مقدمة خاصة للطبعة العربية:
لماذا أنا ملحدة
جمانة حداد
سوبرمان عربي
دار الساقي

اقرأ
مكتبة الكندل العربية

المحتويات

لماذا أنا ملحدة؟
كان يا ما كان...
المرافعة في مديح الأنانية
السرد ملاحظة إلى القارئ
القصيدة مبـتـدأ ثانٍ1
المرافعة : دوبل فاس
السرد - سفر التكوين على طريقتي
القصيدة
المرافعة
السرد - لقاءات حميمة مع الجنس الآخر
القصيدة
المرافعة
السرد
القصيدة
المرافعة
السرد
القصيدة
المرافعة
السرد
القصيدة
المرافعة
السرد
القصيدة
المرافعة
السرد
القصيدة
المرافعة
السرد
القصيدة
المرافعة
السرد

شهادات من الصحافة الأجنبية:

"هذا هو مانيفستو الأنوثة الجديدة"

La Repubblica

"امرأةٌ بلا آلهة ولا أسياد"

L'Orient Le Jour

"حداد هي جيرمين غرير لبنان"

The Independent

"هنا كاتبةٌ 'مزعجةٌ' بحقّ"

L'Express

"قاتلة الأساطير وثائرة الكلمات"

Cahiers De L'Orient

"جمانة حداد صوت الذين لا صوت لهم"

The Guardian

"هجّاءةٌ لامعة: إذا كان سوبرمان عربياً، فلا شك أن 'سوبروومان' لبنانية"

Le Canard Enchainé

"أولئك الذي يرون فيها محض غوغائية يستخفّون بقوتها، فهي أكثر راديكالية على المستوى السياسي مما يستطيعون تخيّله"

The National

جمانة حداد

سوبرمان عربي

عن الله والزواج والرجال الذكوريين
وكوارث أخرى

ترجمة نور الأسعد

مقدمة خاصة للطبعة العربية:
لماذا أنا ملحدة

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاص آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخص آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

Joumana Haddad, Superman is an Arab

The Westbourne Press, 2012 ©

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٤

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٥

ISBN-978-614-425-658-9

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى ولديَّ منير وأنسي،

عساهما يكبران ليصبحا أبعد ما يكون عن "سوبرمان"

وأقرب إلى طبيعة "الرجال" الحقيقيين:

رجلين أستطيع أن أفخر بهما؛

الأهمّ: رجلين يستحقان أن يفخرا بنفسيهما.

... وإلى عقل العويط

أستاذي في الحياة والشعر... والنسوية خصوصاً.

"تسألون ما هذا إذاً؟ إنّه ليس كتاباً بالمعنى المتعارف عليه. كلاّ. سمّوه شتيمةً مطوّلة، بصقة، ركلة مسدّدة نحو الله، والإنسان، والقدر، والوقت... سوف أغنّي لكم. سأخرج عن الإيقاع قليلاً، لكنّني سأغنّي".

هنري ميلر، مدار السرطان

"يدفعني حدسي إلى اختيار رجلٍ يتحدى قوّتي، ينهال عليَّ بالطلبات، لا يشكّ في شجاعتي أو بأسي، لا يعتقد أنّني ساذجة أو بريئة، ويملك ما يكفي من الشجاعة لمعاملتي كامرأة".

أنايس نين

"مأساة الذكورية أنّ الرجل لا يتحلّى البتّة بما يكفي من الرجولة".

جيرمين غرير

مقدّمة الطبعة العربية

لماذا أنا ملحدة؟

"مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها في عالم الفكر الإنساني لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية وإنّما يعود لحالة يسمّيها علماء النفس: التبرير. أصل فكرة الله تطوّرت عن حالات بدائية، وشقّت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية".

اسماعيل أدهم

أنا ملحدة. هذا ليس شعاراً من الشعارات التي تتبدّل مع الوقت، تبعاً للظروف والأحوال. هذا ليس ادّعاءً أتبنّاه لأكون على موضة العصر الذي قد يبدو بعضه ملحداً، وبعضه الآخر مغرقاً في التديّن الظلامي الأعمى.

أنا ملحدة بناءً على موقفٍ عقلي بحت.

في ما مضى، عندما كنتُ طفلةً، كنتُ أشعر بأنّي مؤمنة؛ بأنّ الله الذي تنشّأتُ على حبّه في بيئتي العائلية هو جوهرٌ أساسيّ في كياني؛ بأنّ الحياة الشخصية، والعائلية، والاجتماعية، والثقافية، والروحية، بل الحياة في الكون مطلقاً، لا يمكن أن تكون إلاّ به. مع الوقت، لم أعد أشعر هذا الشعور؛ لم أعد أشعر بأنّ هذا الجوهر يملأ كياني. أنا لم أعد أنا التي وُلِدتْ في تلك البيئة المؤمنة. لماذا؟ ألأنّي أريد أن أخرج على طفولتي، وطقوسي، وتقاليدي، وبيئتي، وأهلي، وعائلتي؟ أم لأنّي تأثرتُ بجوهر مناقض، يملي عليَّ موقفاً مضاداً لما تنشّأتُ عليه؟

هذه الصفحات ليست بحثاً عن الله. إنّها، بكلّ بساطة، بحثٌ عنّي؛ عن أغواري؛ عن السفر الداخلي الذي أسافره في أعماقي، حيث أحفر عميقاً عميقاً لأكتنه نفسي، فلا أجد ذلك الله الذي كان أساس حياتي في ما مضى.

لم يعد الله نبعاً لحياتي، أو جوهراً، أو حقيقة. أصبح فكرةً أتلقّاها بالعقل، وأتعامل معها بالعقل، قبولاً أو رفضاً.

ولأنّني الآن لا أشعر بأنّ هذه الفكرة تقنع كياني، وتغمره، وتأخذ به في دروب الحياة والتأمل والتفكير والكتابة والكينونة والممارسة الوجودية، أقول إنّي ملحدة. أقول إنّني، على هذا المستوى من إدراكي لذاتي،

أشعر بأن الله عدمٌ مطلق. لا حقيقة.

إنّها مسألة حياة أحياها، وأنا لا أشعر بأنّ هذه الحياة تحتاج إلى ذلك الجوهر (و"السند") الذي كنتُ قد تنشّأتُ عليه. لا أشعر بأنّ ذلك الجوهر هو جزء منّي، أو من جوهر وجودي. أنا أحيا، الآن، بدون الله في داخلي. هذا هو باختصار موقفي العقلي والوجودي من مسألة الإيمان.

لهذا السبب لم أعد مؤمنة. لهذا السبب أنا ملحدة.

ولأوضح: ليس عندي شعورٌ بالعذاب من جرّاء عدم الإيمان بالله. بل أشعر بأنّ نوعاً من التوازن الروحي والجسدي والعقلي والفلسفي يملأ سيرورتي، ويمنحني أن أكون امرأة "طبيعية". ليس عندي أحمالٌ أو تابوهاتٌ إيمانية وإلهية، تثقل وجودي. لهذا السبب أشعر بأنّي خفيفة؛ وبأنّي طليقة؛ وبأنّي غير مقيّدة بإرثٍ عميق الجذور كهذا الإرث. أشعر بأنّي موجودة فحسب، وبأنّ عقلي، بما يجنيه من مشاعر وأحاسيس وعلوم وثقافات وقيم وحضارات ومفاهيم وأسئلة وأجوبة وشكوك ويقينات، هو الإيمان الوحيد الذي أؤمن به.

لا أقول ذلك تحدياً، ولا استعراضاً، ولا على سبيل الزعم الفلسفي أو النظري، بل أُدرِج هذا الموقف باعتباره خلاصة تجربة وجودية في الحياة فحسب. هذه الخلاصة هي ثمرة تجسّدٍ للعقل في اختبارات وجودي.

ولأنّي لا أتوقّف عن الاختبار ومواجهة الذات ويقيناتها بالشكّ وطرح الأسئلة، فإنّ مسألة الله صارت عندي تحت مجهر التفكير في النسبيات لا تحت مجهر المطلق السابق للعقل.

وإذا طرحتُ على نفسي الآن السؤال الآتي: أيّ إحساس يملأني حيال هذه الخلاصة العقلية التي تقول إنّ الله لا وجود له في حياتي، وإنّ خالق البشرية المفترَض ليس سوى أحد مخلوقاتها/ اختراعاتها؟ أجيب بسرعة، ولكن بدون تسرّعٍ نزِق: هو الإحساس بالمصالحة مع الذات، بكل مكوّناتها، بطفولتها، بماضيها، بحاضرها، بتناقضاتها، باحتمالاتها، وبتناغماتها. والإحساس بالمصالحة مع الكون، بكل مكوّناته، بطبيعته، بتاريخه، بجغرافيته، بشعوبه، بكيميائه وفيزيائه وأرضه ومياهه وكواكبه.

أنا أؤمن بالعلم، بما اخترقه إلى الآن (الكثير منه يدحض اقتراح الله في شكل حاسم، أو في الأقل "ضرورته" كتفسير لوجود هذا الكون) وبما سوف يخترقه في الغد. مع كلّ احترامي للأشخاص الذين يؤمنون بالحكايات الخرافية (ويحتاجون إليها كدعامات)، ماذا تكون الأديان سوى أدوات عزاء تستهدف الملايين والملايين من العقول التائقة إلى من يطمئنها، في خضمّ أوجاعها ومخاوفها وشكوكها وتحدياتها اليومية وأزماتها؟ هل نريد حقاً أن نجازف بحياتنا، ومبادئنا، ومواقفنا، وخياراتنا، كرهان على ذلك؟ ألن يكون من الأسلم والأجدى أن نحترم المبادئ الأخلاقية والمعنوية الدنيوية، القائمة على القيم الإنسانوية العالمية؟ ألن يكون من الأسلم والأجدى أن نقرّر بأنفسنا ما هي أخطاؤنا ونحاول أن نصحّحها؟ هل صحيح (وعادل) أن نعتبر أنّ فرضية الله تجسيدٌ للحبّ والسماح وتقبّل الآخر والأخلاق، والطريقة الوحيدة لإنقاذ الإنسان من "حيوانيته" أو غرائزه "الشريرة"؟ ليس إذا كنتَ متديناً على نحوٍ أعمى. ليس إذا كنتَ طائفياً بعنف. ليس إذا كنتَ تلتزم حرفياً أحكام دينك – مهما يكن هذا الدين – وتسلّم أمركَ ورأيكَ وقدرتكَ على الحكم والتفكير إلى جهة تزعم أنها "أعلى" منكَ، فتصدّق بسلامة طويّة كلّ كلمة يتلّفظ بها كبار المسؤولين الدينيين في طائفتكَ، وتكيّف حياتكَ، ورؤياكَ، وأعمالكَ مع تلك الحلقة المفرغة من القوانين والوصايا (التي تبلغ في بعض الأحيان حدوداً عبثية)، تلك القوانين والوصايا التي كان شخصٌ آخر قد فكّر فيها بالنيابة عنكَ، وقرّر أنّها تناسبكَ وتمنحكَ بطاقة غير مشروطة لـ"دخول الجنة".

~

فضلاً عن الحادي العقلي و"العقلاني"، ينبغي لي، للنزاهة الفكرية، أن أضيف أنّني أجد في بعض العقائد الدينية الثابتة إهانات لا تحصى لكينونتي كإنسان/ إنسانة. أنا أتفهّم طبعاً حاجة العديد من الناس إلى الإيمان بشيء/ كائن/ قوّة أكبر منهم، والركون إلى فكرة أنّ "أحداً" ما يسهر على سلامتهم ويعتني بهم. هذه هي، أصلاً، الحاجة التي استثمرها مؤسّسو الأديان على مرّ العصور بغية التحكّم بالجماعات من طريق استغلال خوفٍ طبيعي ومشروع، في سبيل السيطرة على العقول والسلوكات والمصادر الإنسانية والاقتصادية والسياسية في العالم.

أتناول هنا تحديداً الأديان التوحيدية الثلاثة التي نشأتْ في كنفها (حوض المتوسط)، والتي هي في الواقع دينٌ واحد بمتغيرات أو

تأويلات ثلاثة: اليهودية فالمسيحية ثم الإسلام.

مشكلتي مع هذه الأديان الثلاثة، كلّها ومن دون استثناء، أنّها أثبتت عبر الزمن، وبألف طريقة وطريقة، أنّها متناقضة، فهي تناقض ذاتها بذاتها. وأنّها عنصرية، متحاملة على النساء، معادية للمثليين، عديمة الرحمة، دموية، رافضة للاختلاف، متحيّزة عملانياً ضدّ الإنسانية والحريات وحقوق الإنسان. وهي متحيّزةٌ خصوصاً ضدّ سلامة المنطق ورجاحة العقل وإنجازات العِلم. إنّها مؤسّساتٌ جبلتها يد نخبةٍ من مشتهي السلطة، ولا تهدف سوى إلى التحكّم بالناس وبحيواتهم ومواردهم وقراراتهم من طريق بيعهم وهماً رائعاً اسمه "الحياة ما بعد الموت"، ابتدعته عقول مجموعة من العباقرة (يُعرَفون تارةً بالأنبياء وتارةً أخرى بالقدّيسين والشيوخ والمتصوّفة). ناهيك بأنّ هذه الأديان الثلاثة قد أقدمت كلها، في مجرى تاريخها، على توظيف العنف والإرهاب ترويجاً لأهدافها، وتصدّت بشراسة للقوى العلمانية والمتنورة التي برزت لتهدّد استمراريتها، وولّدت، بسبب طابعها الحصريّ (إن لم تكن معي فأنتَ عدوّي، فأنتَ كافر، فأنتَ إنسان سيئ)، ظلماً مباشراً أو مبطّناً في حقّ الذين لا يتبعونها.

~

بناءً على ما سبق، فإنّ الأسباب التي تدفعني الى موقفٍ انتقادي ("برّاني" و"بارد") من الأديان التوحيدية كثيرة، لكنّني سأورد في ما يأتي اثنين منها فقط، أعتبرهما رئيسيين وجوهريين:

الأديان التوحيدية تُشعرني بالإهانة، أولاً، لأنّي امرأة. امرأة ذات كرامة. امرأة تؤمن بشكل لا مجال فيه للشك بأنّها مساوية للرجل، وبأنّها ينبغي لها أن تتمتع بالحقوق والامتيازات نفسها التي يتمتع هو بها. فكيف يسعني ألاّ أرفض أدياناً كارهة للنساء بشكلٍ متأصّل، ومعادية لمبدأ المساواة بين الجنسين، وتتنافس في ما بينها لتطبيق المعايير البطريركية، من إذلالٍ للنساء، إلى تصنيفهنّ كمُلكٍ من أملاك الرجل، وقمعهنّ، والتعامل معهنّ بدونية؟ إليكم، قبل أن أمضي قدماً، مقتطفات من الكتب السماوية المقدّسة الثلاثة:

– "لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك" (العهد القديم، سفر الخروج، الأصحاح العشرون، الآية ١٧)

– "لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. ولكن لست آذن للمرأة أن

تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت. لأنّ آدم جُبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يغوَ لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي. ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل" (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، ٢: ١١–١٥).

– {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا} (القرآن، سورة النساء: ٣٤)

استناداً إلى ما سبق، وما هو إلاّ نقطة في بحر هائل من الميزوجينية، هل يُعقل أن نكون يهوداً أو مسيحيين أو مسلمين، ومؤمنين بهذه الأديان كلّ الإيمان، وأن نكافح، في الوقت عينه، النظام البطريركي، أو ندافع عن المساواة بين الجنسين؟ إنّ الإجابة بـ"نعم" ما هي إلاّ من ظواهر التناقض والإنكار المتعدّدة التي نعيشها اليوم. فهذه الأديان الثلاثة تتبنّى الموقف نفسه تجاه المرأة، وإنْ بوجوه وأقنعة مختلفة: موقفاً مستبدّاً، جائراً ومهيناً، منذ البدء مع حكاية "الضلع" و"الخطيئة الأصلية" التي حُمِّلت المرأة وزرها، حتى يومنا هذا. متى نُقرّ تالياً بأن لا سبيل لتحقيق الانسجام بين التعاليم السماوية من جهة، وكرامة المرأة وحقوقها من جهة أخرى؟

هذا لا يعني أنّني أنادي، على مستوى النطاق العام، بدولة ملحدة. لكنّني، أبعد من موقفي الخاص حيال مسألة الإيمان، لا بد من أن أطالب بأنظمة علمانية في حدّها الأدنى. لطالما نالت المرأة حقوقها وحريّتها في مختلف أنحاء العالم ضمن إطار علماني، ومن الضروري – لا بل من الأساسي – ألاّ يغفل المرء عن ذلك. بطبيعة الحال، ليست العلمانية الضامن الوحيد للمساواة بين الجنسين. فوحدها لا تكفي، لكنّها جزءٌ لا يتجزّأ من الوصول إلى هذا الهدف.

أرجو ألاّ يتجرأ شخصٌ ما فيقول إنّ أفكاري هذه ما هي إلاّ مخلّفات فيروس "غربي" انتقل إليَّ (وهو أسهل اتّهام يُوجَّه إلى عربيّ أو عربية يدافعان عن مبادئ العلمانية والحرية والمساواة بين الجنسين، إلخ). لكأنّ هناك فرقاً بين "الحرية العربية" و"الحرية الغربية"، وبين "الكرامة العربية" و"الكرامة الغربية"، إلخ. حقوق الإنسان إنسانية، عالمية، وليست حكراً على الغرب. لمن المعيب والمذلّ لنا نحن العرب

أن نعتبرها محصورةً بالغرب. فلنعد إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صادقت عليه معظم الدول العربية (نظرياً)، تفهموا ما أقصد.

من هنا، أتأسّف على جميع أولئك النساء والرجال، أصحاب النيّات الحسنة، الذين لا يوفّرون جهداً للتوفيق بين طرفين متناقضين كلّ التناقض، متسلّحين بتفسيرات وتأويلات "معقّدة" للغاية، وبأسلوب انتقائي في قراءة النصوص الدينية، لكنّي أكرّر: إنّ الأديان السماوية تقصي النسوية، والعكس صحيح، إلاّ إذا كنتم تعتمدون "الانتقائية" في تفسيركم لكلا المفهومين. إنّها أديان تحطّ من قدر النساء بمظاهر مختلفة، وتؤكّد، بشكل واضح وصريح، أنّ الرجال "متفوّقون" (قوّامون، رؤوس، حماة، أسياد) على النساء.

~

وبعد: الأديان التوحيدية تشعرني بالإهانة، ثانياً، لأنّني أؤمن بأن جسدي ملكي، ولا حدّ لنفاق الأديان السماوية في ما يتعلّق بموضوع الجنس. فضلاً عن أنّني لا أفهم لماذا يشغل رجال الدين بالَهم وتفكيرهم بكيفية استخدامنا لأعضائنا التناسلية؟ إنّنا محاطون بالمتزمّتين الزائفين، من أمثال أسامة بن لادن ومخزونه المزعوم من الشرائط الإباحية، وصولاً الى الكهنة المتحرّشين بالأطفال. في الواقع، يمكن اختصار ذلك كلّه بكلمة واحدة: السيطرة.

المجتمعات العربية مبتلية بانفصام حادّ؛ أشخاص طاهرون في العلن وفاسقون غالباً في الخفاء؛ أشخاص مهووسون بالجنس، لكنّهم لا يستطيعون حمل أنفسهم على التحدّث عنه أو ممارسته بكلّ حرية؛ أشخاص يتلون على مسامعنا محاضرات في القيم الأخلاقية، لكنّهم أبعد ما يكونون عنها؛ أشخاص يدعون إلى الصلاة، ولا يفهمون الصلاة سوى تمتمة ببغائية لكلمات بلا معنى.

في ثقافتنا، تندرج الفضيلة والعفة كمفهومَين مترادفَين، يمكن استبدال أحدهما بالآخر. كذلك بالنسبة إلى الحرية والفجور، ولا سيّما في حال النساء: متلازمة كازانوفا من جهة (الرجل "الفحل") ومتلازمة الفاجرة (المرأة "السهلة") من جهة أخرى. لا يزال المجتمع يتوقّع من النساء أن يحافظنَ على عذريتهنّ في انتظار الزواج؛ ولا يزال مفهوم الشرف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمنفرج ساقَي المرأة، وأجساد النساء

تُعتبر مكاسبَ من حقّ الرجال. فضلاً عن ذلك، غالباً ما يُنظَر إلى المرأة الراشدة "المتحرّرة" كساقطة، لا كشخصٍ يحقّ له أن يقرّر ما يفعل بجسده، سواء أقرّرت مضاجعة رجل أم خمسة رجال أم عدم مقاربة أيّ رجل على الإطلاق.

يزيد الطين بلّةً أنّ بعض النساء يتجرّأنَ فيزعمنَ أنّ هذه المعاملة الفوقية التي يلقينها إنما هي "خيارهنّ". لعلّ ما يحزّ في النفس فعلاً، نفسي على الأقل، هو كيف توافق هؤلاء النسوة على المعاملة المذلّة، فيساومن بذلك على حقهنّ في استخدام أجسادهنّ بالطريقة التي يخترنها. نرى الأمّهات ينحزنَ إلى صفّ الأسرة عند ارتكاب جرائم الشرف، أو يلتزمنَ صمتاً مخزياً، أو يسحبنَ بناتهنّ إلى الطبيب النسائي كي يرقّع أغشية بكارتهنّ أو يحرمنهنّ حق اللذة عبر إخضاعهنّ للختان. كم من امرأةٍ منهنّ تلاعب بعقلها المجتمعُ البطريركي، فعاشت إنكاراً قسرياً للذات بفعل عملية غسل دماغيّ استمرّت قروناً؛ امرأة لا تبرح تردّد العبارات نفسها التي شرّبتها إياها المجتمعات والأديان الذكورية.

يُلقَّن المسيحيّون من جهة أنّ الجنس تجسيدٌ للخطيئة: لا بأس من ممارسته، لكن في إطار الزواج، وضمنياً بهدف التناسل لا غير. كلّ ما خلا ذلك إثمٌ لا يغتفر، يرسل بالخاطئ إلى جهنّم مباشرةً. أما لدى المسلمين، فيكفي أن نقارن التقشف المفروض على المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، بمواصفات الجنة الموعودة لكلّ مسلمٍ صالح: استناداً إلى أحاديث شريفة متنوّعة، سيُكافأ هذا بتزويجه خمسين عذراء (أو ستين أو اثنتين وسبعين: ما الفرق؟) لهنّ صدورٌ "عارمة" أو "مكتنزة" أو "ناتئة كحبّتي رمّان" (تبعاً لذوق الرجل)، وهي صدورٌ لا تصاب بالترهّل البتة. من الأحاديث الأخرى ما يورد أنّ الرجل في الجنّة يملك قضيباً منتصباً أبداً لا يصيبه ارتخاء ولا ينال منه وهنٌ ولا ضعف!

أوّل ما يتبادر إلى الذهن بعد قراءة مواصفات الجنة المذكورة أعلاه – إذا كان المرء صحيح العقل سليم المنطق – مدى انعدام الثقة بالنفس لدى الذكور، ناهيك بحسّهم بالتملّك. أما الفكرة الثانية فهي: ماذا عن المسلمات الصالحات؟ ما الذي ينلنه في نهاية المطاف؟ أمن المعقول أن يحقّ لأزواجهنّ التنعّم بأربع زوجات في الحياة الدنيا و٧٢ زوجة في الآخرة، فيما لا يحصلنَ هنّ على شيء في المقابل؟ ألن تُغدَق عليهنّ مكافأة جنسية أيضاً؟ بالطبع لا، بما أنّ الرجل، الرجل وحده، هو صاحب الشهوة والرغبات الجنسية؛ فيما تخضع المرأة لهذه التجربة كواجبٍ

ليس إلا. هذا كلّه يردّنا، من جديد، إلى المعايير المزدوجة المعتمدة في الدين. لقد تعلّم الكثيرون، منذ نعومة أظفارهم، أنّ الجنس خطيئة، وعملٌ قذر وفاسد. وها هو الرجل يُكافَأ (مكافأة غير مضمونة البتة) في الحياة الأخرى بكمية وافرة مما اعتُبر "قذراً" و"خطيئة" على الأرض. أمرٌ منطقيّ تماماً، أليس كذلك؟

حسبنا أن نذكر، كمثالٍ ثانٍ على هذه الازدواجية المقيتة، الكلمات المروّعة التي كتبها الخميني، في كتابه تحرير الوسيلة: "لا يجوز وطء الزوجة قبل إكمال تسع سنين، دواماً كان النكاح أو منقطعاً، وأما سائر الاستمتاعات كاللمس بشهوة والضم والتفخيذ فلا بأس بها حتى في الرضيعة، ولو وطأها قبل التسع ولم يفضّها لم يترتب عليه شيء غير الإثم على الأقوى".

أما لدى السنّة، فهاكم هذه الفتوى حول حكم زواج الكبير بالصغيرة والاستمتاع بها: "إن الصغيرة التي لم تحض بعد يمكن أن تتزوج وتطلَّق فتكون عدّتها حينئذٍ ثلاثة أشهر. وإذا تزوج الرجل الكبير البنت الصغيرة التي يستمتع بمثلها عادةً جاز له أن يستمتع بها بكل أنواع الاستمتاع المباحة شرعاً. أما وطؤها فلا يطأها حتى تكون مطيقة للوطء بحيث لا يضرّ بها" (منقولة عن موقع إسلام ويب – مركز الفتوى – رقم الفتوى: ١١٢٥١ – التصنيف: اختيار الزوجين). هذا فضلاً عمّا ورد في فتح الباري ، صحيح البخاري، في باب "كتاب النكاح"، حول تزويج الصغار من الكبار: "يجوز تزويج الصغيرة بالكبير إجماعاً ولو كانت في المهد لكن لا يمكن منها حتى تصلح للوطء".

هل ثمة أفظع من تحليل الاستمتاع بـ"رضيعة"، بينما يُحرّم الخمر ولحم الخنزير؟

~

ختاماً، أكرّر: لست ملحدة لأنني ماركسية، ولا أنا ملحدة لأنني عدمية، أو من أتباع الشيطان، أو أشتهي إثارة الانتباه، أو أرغب في زيادة عدد أعدائي: لديَّ من الانتباه (ومن الأعداء) ما يكفيني وأكثر. أنا ملحدة، بكل بساطة، لأن عقلي وكرامتي، كإنسان/ إنسانة، يحولان دون إيماني. وأؤمن بأن من حقّي أن أعبّر عن ذلك.

أعرف أنّ الكثير من المؤمنين سيشعرون بالاستياء (في أقلّ تقدير) لدى قراءة هذه السطور. لهؤلاء أقول: صحيحٌ أنكم قد تحسّون بالإهانة

لتعبيري عن عدم إيماني، لكنّ الوقت قد حان لتدركوا أننا، أنا وآخرين مثلي، موجودون (وبكثرة)، وأننا نشعر بالدرجة نفسها من الإهانة لفرضكم علينا إيمانكم كلّ يوم، بشتّى الوسائل والأساليب، وأينما كان من حولنا. لا بل إنّ تعبير الملحدين عن آرائهم لا يعادل، بأيّ شكلٍ من الأشكال، حجم الاستعراض الديني الذي تُغرقوننا فيه كلّ يوم.

عندما لا يعود إلحادي مصدراً لمشاعر الإهانة التي تعصف بكم، وعندما تصبحون أكثر تسامحاً حيال وجودي ووجود الملحدين غيري، عندها فقط أكون قد أثبتُّ وجهة نظري. في المناسبة، إنّ التسامح لا يعني الامتناع عن رجمنا أو إحراقنا، كما لا ينفكّ بعض القرّاء المسيحيّين المنافقين يذكّروونني، لإقناعي بأنّ دينهم "أفضل" وأكثر رحمةً من الإسلام. نحن غير مضطرين، أيها المسيحيون الكرام، لأن نقدّم لكم جزيل شكرنا وامتناننا لأنّكم "تسمحون" لنا بأن نمارس حقّنا في التعبير عن أنفسنا من دون أن نُقتَل في المقابل. أما من سيشعر بالغضب بسبب كلامي، فله أن يتجاهلني وينام قرير العين، بما أنّه يعلم علم "اليقين" أنّ ربّه سيعاقبني.

~

مسؤوليتنا كجنس "عاقل" تقضي بالوقوف في وجوه أولئك الذين يريدون غسل أدمغتنا وتضليلها ومنعها من التقدم. مسؤوليتنا تقضي بإدراكنا أنّ كل هذه الأديان التي تتمثّل بآلهة وشخصيات ذكورية فقط (من بابوات وشيوخ وأئمة وكهنة وقساوسة وأنبياء وغيرهم) تشكو، ولا بدّ، من علّة. مسؤوليتنا تقضي بإيماننا بقوة مجتمع مدني علماني ينقلنا من قطعان إلى مواطنين، والمساهمة في تعزيزه وتطويره. مسؤوليتنا تقضي بمكافحتنا تدخّل رجال الدين المنهجي في حياتنا العامة والسياسية. لكنها تقضي، في الدرجة الأولى، بأن نجرؤ على أن نسائل.

حريٌّ بنا العودة إلى ما قبل عهد "الصواب" و"الخطأ"، ما قبل عهد المؤسسات الدينية، ما قبل عهد "فكِّر مثلي" و"نحن على حقّ وهم المخطئون". لنعد إلى ما قبل ذلك حتى: إلى ما قبل عهد الخطيئة الأصلية، وكل المؤلّفات المشوّهة وطريقة التفكير المتأثّرة بها.

فلنعد إلى ما قبل آدم. ما قبل حوّاء. ما قبل الملائكة وقبل الأبالسة. قبل الصالح والمستقيم، وقبل الآثم والشرّير. ما قبل الوصايا. قبل

العقاب. قبل الثواب. قبل المقدّسات. قبل الله. وقبل الشيطان.

من ثمّ، دعونا نبدأ من جديد. نبدأنا نحن البشر من جديد، من تلك النقطة البيضاء بالذات.

كان يا ما كان...

كان يا ما كان فتاة صغيرة تحبّ القراءة أكثر من أيّ شيء آخر في العالم. كانت تقرأ كلّ ما تطاله يداها: من صحف والدها إلى مجلات والدتها، بورقها المصقول الملوّن، مروراً بالكتب التي كانت مكدّسة في مكتبة المنزل الكبيرة. لم يقتصر الأمر على هذا الحدّ، بل درجت أيضاً على قراءة نشرات الأدوية، المكتوبة بأحرف صغيرة جداً، تلك التي تُرفَق عادةً بعلب الأدوية لتنبيه المستخدمين إلى الجرعة المطلوبة، وطريقة استعمال الدواء، والآثار الجانبية. هكذا تعلّمَت، وهي لمّا تزل في الثامنة من عمرها بعد، أنّه لا يجوز مزج مضادّات الحموضة مع الكحول، وأنّ "الرانيتيدين قد يقلّل من امتصاص الديازيبام، كما يخفّف من نسبة تركيز الدواء في بلازما الدم"، وهي تنبيهاتٌ لم تعد عليها بفوائد جمّة في مرحلةٍ لاحقة من حياتها.

كانت تقرأ بينما تتناول الغداء (فتضيّق ذرع والدتها بها)، وفي فرص المدرسة (فتخيّب أمل صديقاتها)، وخلال الحصص التي لم تكن تثير فيها اهتماماً (يبالغون في تقدير مادّة الجغرافيا على كل حال)، وفي الحافلة (لهذا، كانت غالباً ما تنسى الترجّل في محطّتها، فتصل إلى موعدها متأخّرةً)، وفي الملجأ حيث كانت تختبئ من شدّة القصف خلال الحرب الأهلية المستعرة في الخارج (وهي طريقةٌ أكثر فعاليةً بكثير من سدّادات الأذن)... وفي الليل، حين يخلد الجميع إلى النوم، كانت تخطف مصباحاً، بعيداً عن مرأى الجميع، لتتسلّل تحت الأغطية، وتشرع في القراءة.

غنيّ عن القول إنّ هذه الفتاة الصغيرة كانت أنا.

~

لم تكن القصص المصوّرة موجودةً في بيتنا على الإطلاق. فهي، أوّلاً، تصبّ في خانة الكماليات التي تكلّف مبلغاً طائلاً، أو بالأحرى كان طائلاً بالنسبة إلى عائلةٍ متواضعةٍ تنتمي إلى الطبقة الوسطى مثل عائلتي. أما ثانياً، فلم تكن هذه القصص تُعدّ قراءةً "جدّية" بالنسبة إلى والدي الصارم، الذي كان يستخفّ بكلّ جملة لا يحتاج المرء إلى إعادة قراءتها مرّتين في الأقل حتى يفهمها. لذا كان عالم القصص المصوّرة مغيَّباً عني بشكلٍ غالب، إلى أن أقبل يومٌ – أحسب أنّي كنت في

التاسعة أو العاشرة من عمري – كنا فيه نزور منزل عمّتي، وكان إحساسي بالعزلة يتزايد وسط ثلاثة من أبنائها (جميعهم من الذكور) وشقيق انهمكوا في ممارسة لعبة "المطاردة" (أو ما يُعرَف بـ"اللقيطة"). أما أنا، فقد اكتشفتُ حينذاك كومةً من مجلات سوبرمان مكدّسةً في زاوية. فما كان منّي إلاّ أن استغرقتُ في قراءتها فوراً. ويا له من اكتشاف!

أحببتُ نبيل فوزي في الحال. كان رجلاً خجولاً، مرتبكاً، صادقاً، لطيفاً، خفِراً وخلوقاً. باختصار، كان حقيقياً. لكن كلّما نزع عنه ملابسه العاديّة ليتحوّل إلى سوبرمان ويطير عبر نافذة من أجل إنقاذ البشرية، كما هو مزعوم، كنت أشعر بشيء من الانزعاج والتململ. لم أستطع أن أحدّد لماذا كان يزعجني إلى هذا الحدّ، ولا سيّما أنّ مظهره كان مظهر البطل الجدير بالإعجاب. لكنّي لم أملك القدرة على التحكّم بشعوري: أحسستُ بالنفور من هذه الشخصية "الأسرع من الرصاصة والأقوى من القاطرة"، والقادرة على "تغيير مجرى الأنهار الجارفة وطيّ الحديد بقوّة اليدين ليس إلا". لم أعتبر أنّ نبيل فوزي قد جسّدَ القناع الذي اختبأ خلفه سوبرمان، بل العكس تماماً. زد على ذلك أنّي شعرتُ بنفورٍ قويّ حيال رندة، المراسلة الصحافية التي أُغرِمتْ بسوبرمان وأعرضتْ عن حبِّ نبيل.

لكنّني فهمتُ سرّ انزعاجي بعد مضيّ وقتٍ طويل جداً: فهذا العالم (من ضمنه النساء) لا يحتاج إلى "رجال من فولاذ"، بل إلى رجالٍ حقيقيّين. نعم أقول حقيقيّين، بكلّ ما يتميّزون به من ارتباك، وخجل، وعيوب، وزلاّت، ونقاط ضعف: رجال حقيقيّون ليست لهم هويّات سرّية؛ ولا يحسبون أنهم أبعد منّا نظراً وأدقّ إصغاءً وأسرع وتيرةً، والأسوأ من ذلك كلّه، لا يخالون أنهم أكثر قدرةً منا على التفكير؛ رجالٌ حقيقيّون لا يحتاجون إلى أقنعة لكي يشعروا بالقوّة؛ رجالٌ حقيقيّون ليسوا مقتنعين كلّ الاقتناع بأنهم لا يُقهَرون؛ رجالٌ لا يخشون الكشف عن مواطن ضعفهم ولا يخفون عنا (أو عن أنفسهم) شخصياتهم الحقيقية؛ رجالٌ لا يشعرون بالحرج إذا التمسوا المساعدة عند الحاجة، بل تمتلئ قلوبهم فخراً إذا ما تلقّوا منا العون؛ رجالٌ لا تتحدّد هويّتهم بناءً على مقاييس قضيبهم ومدى كثافة الشعر على صدورهم؛ رجالٌ لا يعرّفون أنفسهم وفقاً لأدائهم في السرير أو حسابهم في المصرف؛ رجالٌ يولونك آذاناً صاغية عوضاً عن محاولة إنقاذك بكلّ عجرفة وفوقية؛ رجالٌ لا يشعرون بالمهانة أو بنقص في رجولتهم إذا خذلهم انتصابهم بين الفينة والأخرى؛ رجالٌ يناقشونَ مصلحتنا بالتشاور معنا عوضاً عن

إخبارنا بكلّ عنجهية: "دعي الأمر لي"؛ رجالٌ يعتبروننا شريكات لهم لا ضحايا أو مهام أو جوائز؛ رجالٌ يطلعوننا على مشكلاتهم ويشاركوننا همومهم بدل الإصرار على حلّها بأنفسهم؛ باختصار، رجالٌ حقيقيون لا يخجلون من الاستدلال على الطريق الصحيح، عوضاً عن التظاهر بأنهم يحيطون علماً بكلّ شيء (مجازفين تالياً بإضاعة طريقهم في أغلب الأحيان).

~

ممّا لا شكّ فيه أنّ عالمنا هذا بغنىً عن سوبرمان. لماذا؟ لأنّ سوبرمان، بادئ ذي بدء، شخصية خيالية. كثيرٌ منكم سيبادرون إلى القول عند هذه المرحلة: وهل تخبروننا بجديد؟ طبعاً هو خياليّ. ولكن حسبكم هنيهةً: اعلموا أنّ في عالمي (وأنا أكيدة أنّ الأمر مماثل في أنحاء عدّة من عالمكم أيضاً) يخال أشخاصٌ كثيرون أنّه موجودٌ فعلاً. لكنّ المشكلة الفعليّة لا تكمن هنا. لا أتطرّق، في معرض كلامي هذا، إلى متلازمة "الصديق/ المخلّص الوهمي" التي تصيب بعض الناس، بل أعني أنّ الأشخاص المؤمنين بشخصية سوبرمان مقتنعون، وهنا المشكلة، بأنهم يجسّدونه حقاً، ويتصرّفون، تالياً، على هذا الأساس. هنا بالضبط ينحو كلّ شيء نحو الأسوأ. فعند هذه النقطة بالذات يتحوّل القادة إلى طغاة، والمديرون إلى مستعبِدين، والمؤمنون إلى إرهابيين، والعشّاق إلى مستبدّين. ذلك كلّه تحت شعار "أعرف مصلحتك أفضل منك". نعم، الشخصية الوهمية قد تمسي، بالفعل، كارثةً إنسانية. ومع أنّ الأمر قد يبدو مضحكاً في بعض الأحيان، لكنّ الحقيقة غير ذلك تماماً. إنها ظاهرةٌ مؤسفة، وكاسرة، ومدمّرة، سواء بالنسبة إلى الشخص نفسه أم إلى الأشخاص الآخرين.

لعلّ الواقع المبيّن أعلاه هو ما جعلني أتنبّه، في وقتٍ لاحق، إلى تناظرٍ بدا لي معقولاً جداً: سوبرمان عربيٌّ فعلاً. كيف لا، وكلاهما (أي سوبرمان والرجل العربيّ) مصابٌ بعارض انفصام الشخصية نفسه؟ كلاهما يقابلك بهذا الموقف الطافح بالادّعاء والغرور، كمن يقول لك: "أنا المنقذ!". كلاهما يتصرّف بتلك الفوقية الذكورية نفسها، وكأنهما يقولان "أنا الرجل الصالح وكلّ من حولي أشرار"، وكلاهما أيضاً يتوهم بأنه "لا يُقهر". لا يخفى عليك أنّ الكثير من هؤلاء الأشخاص، ممّن نصّبوا أنفسهم أبطالاً خارقين، منتشرون في منطقتنا العربية العزيزة، سواء تمّ تجريدهم من سلطاتهم أم كانوا لا يزالون متشبّثين بها. لعلّ أخطرهم هم الإرهابيون: فكيف عساك تقف في وجه شخصٍ مستعدٍّ

للموت بكلّ ما أوتي من قوّة، لا بل راغب فيه كلّ الرغبة؟ أنت، في هذه الحالة، خاسرٌ للمعركة منذ الطلقة الأولى. أضف إلى ذلك، الوعدَ بحصوله على خمسين حورية عذراء ما إن تطأ قدماه الجنّة المزعومة (ما يجعلها، تالياً، أشبه بماخور) كي يصبح الشخصُ المتشرّب تلك الأفكار قوّةً لا تُهزَم (لا أنفكّ أتساءل على هذا الصعيد: كيف لرجل واحد أن يلبّي رغبات خمسين عذراء: ألا يمكن لاثنتين أو لثلاث من النساء "المحترفات" على الأقل التخفيف من العبء الملقى على عاتقه؟).

هؤلاء الإرهابيّون، فضلاً عن الحكّام الديكتاتوريين والمتعصّبين دينياً، هم من أشهر نماذج "سوبرمان" العربية، منهم أسامة بن لادن، وصدّام حسين، ومعمّر القذّافي، وحسني مبارك، وعبد الله بن عبد العزيز آل سعود، وأيمن الظواهري، ومحمود أحمدي نجاد، وبشار الأسد، وهلمّ. لحسن الحظّ، لقد أطيح بعضٌ من هؤلاء، وفي حلول وقت قراءتك هذا الكتاب سيكون المزيد منهم قد رحلوا أيضاً. لكن لمّا كان هذا النوع من الأشخاص ينمو ويتكاثر كالخميرة، فإنّ انقراضه من هذه الدنيا أمرٌ لا يُعوَّل عليه.

دعونا لا ننسى أيضاً الممثّلين الأقل شهرةً لهذه الفصيلة من الأشخاص. بعبارةٍ أخرى، يجب ألاّ ننسى النماذج التي تحتلّ المرتبة الأولى في تجسيدها شخصية "سوبرمان العربي"، وأعني بها: الأب، والأخ، والحبيب، والزوج، والابن، والجار، ورئيس مجلس الإدارة، والكاهن، والشيخ، والإعلامي، ومحرّر الإعلانات، ورجل السياسة، والزميل في العمل، وغيرهم كثير. باختصار: الرجال العاديون المحيطون بنا.

بالفعل، سوبرمان عربيّ. يُخيّل إليك أنّه قويٌّ، لكنّ عضلاته ما هي إلاّ واجهة تخفي مواطن قلقه وعدم استقراره. تحسبه حقيقياً لكنه في الواقع زائفٌ واصطناعي. قل إنّه نسخةٌ شاحبة عن أصل ليس في وسعه مضاهاته. قد يبدو مقاوماً لكنّ مقاومته هذه لا تدوم طويلاً. يكفي التحدّي البسيط، ليس إلاّ، كي تزعزعه، وتخيفه وتكسره. أما "الكريبتونايت"، فما هو إلاّ رمز أخضر اللون لما لا يُعدّ ولا يُحصى من مخاوفه السريّة. قد يوحي للأشخاص أنّه يمدّهم بالمساعدة، لكنّه، في الواقع، يضيّق عليهم الخناق ويستبدّ بهم. قد يبدو ذكياً، لكن حسبك أن تصغي إليه بدقة كي تعرف أنّه يخلط الرجولة بالذكورية، والإيمان بالتعصّب، والأخلاقيات بالتقاليد المنتهية الصلاحية، والخير بالمصلحة الشخصية، والحماية بالتضييق حدّ الخناق، والحبّ بالتملّك،

والقوة بالاستبداد. قد يبدو لطيفاً في الظاهر، لكنه نتنٌ من الداخل. اِنزع عنه القشرة اللمّاعة، فلن تجد إلاّ الأكاذيب والخداع والجبن والنفاق. قد يزعم أنّه ينقذ العالم، لكنّ الحاجة تدعو إلى إنقاذ العالم منه، وقبل ذلك كلّه إلى إنقاذه من نفسه.

~

ولكن متى بدأ "نمط سوبرمان" هذا يرتسم فعلاً؟

كلّ القصص تولد من رحم بدايةٍ ما. وعليه، فإنّ قصّةً طويلة الأمد، ليس لها في ما يبدو نهاية – مثل قصّتنا هذه – تملك، من دون شكّ، بدايةً آسرة. في الواقع، انطلقت القصّة على هذا النحو: في البدء كانت الفوضى، فأوجدت الخوف. ثمّ كان الخوف، فأوجد الله. ثمّ أوجد اللهُ مفهومَ الخطيئة. ثمّ أوجد مفهومُ الخطيئة الرجلَ الذكوري. ثمّ أوجد الرجلُ الذكوري المرأةَ الوديعة الطيّعة. ثمّ أوجدت المرأةُ الوديعة الطيّعة أسلوبَ المكر. أوجد المكرُ الأقنعةَ الواقية. ثم أوجدت الأقنعةُ الواقية فكرةَ المعركة بين الجنسين وأشياء كثيرة أخرى معها. ومن ثمّ عدنا إلى الفوضى من جديد.

لكنّ سوبرمان ليس المُلامَ الوحيد على وجوده واستمراريته. دعونا لا ننسى أنّ المرأة هي التي تلد الرجال الخارقين وتربّيهم: تالياً، سوبرمان وليد جهل الأمّهات، وسطحية الحبيبات، وطاعة البنات، وتساهل الشقيقات، ولافعالية الزوجات، وهكذا دواليك.

فضلاً عن ذلك، غالباً ما تؤدي الأمهات تحديداً دوراً مباشراً (بطريقة واعية أو لاوعية) في تجريد بناتهن من قوتهنّ وإيمانهنّ في أنفسهنّ. وسوف أورد في ما يأتي ثلاثة أمثلة حقيقية على هذه الظاهرة المؤلمة:

ليلى امرأة لبنانية في الثانية والثلاثين من العمر، كنت التقيتُها أخيراً في سياق أبحاث أقوم بها من أجل إعداد كتاب جديد. شرعت أمها تجبرها على القيام بأعمال المنزل كافةً، عندما كانت لا تتجاوز السابعة من العمر، ولم تهتم يوماً بدروسها ولا بلباسها ولا بتغذيتها. جلّ ما كانت تنشغل به هو راحة شقيق ليلى الأكبر. كان مفروضاً على ليلى أن تخدمه وتلبّي حاجاته، تماماً مثلما كانت والدتها تفعل مع والدها. كبرت ليلى وهي مقتنعة بأن الذكور أهمّ من الإناث. لحسن الحظ، غيّرت رأيها في ما بعد.

سامية صديقة مصرية تعيش وتعمل في لبنان. بينما كانت تروي لي قصة تعرّضها للختان عندما كانت في العاشرة في العمر، كان واضحاً أن أكثر ما يوجعها في تلك الذكرى المرعبة هو واقع أن والدتها هي التي أخضعتها رغماً عنها لتلك العملية.

عادت أميرة من عملها مبكرةً في أحد الأيام بسبب شعورها بالمرض، فوجدت زوجها في السرير مع الخادمة. قررت أن تطلب الطلاق على الفور. عندما سألتها أمها ما المشكلة، وأطلعتها أميرة على حقيقة ما جرى، نصحتها الأم بالتروي، لأن هذا أمر "طبيعي" ولا يجدر بها أن تهين سمعة عائلتها بسبب فعل مماثل "لا أهمية له".

هذه هي الحقيقة المؤلمة: ثمّة نساء كثيرات في العالم هنّ ثمرة النظام البطريركي: نساء يفضّلن الرجل الذكوري على الرجل النبيل. نساء يتمنّين إنجاب الصبيان بدلاً من البنات. نساء في موقع سلطة يُسئن معاملة النساء اللواتي يقعن تحت سلطتهن. نساء يلتزمن الصمت حيال تعرّض بناتهن للضرب أو التحرش أو التعذيب أو حتى الاغتصاب. نساء يشجّعن بناتهن على الزواج في سنّ مبكرة لأن الزواج هو قمة الطموح بالنسبة إليهن: إن التجليات البشعة للمرأة البطريركية لا حدّ لها للأسف في ثقافاتنا ومجتمعاتنا.

بات من الملحّ للنساء أن يتنبّهن إلى العدوّ الذي في دواخلهن قبل محاربة العدو الخارجي. بات من الملحّ أيضاً وضع حدّ للخلط المجحف، التعميمي، بين الرجال والعقلية البطريركية. ليس كلّ رجل عدوّاً، ولا كل امرأة حليفة. ولن يحدث أيّ تغيير إيجابي في مجتمعاتنا المريضة قبل أن تبدأ الأمّهات في تربية الأجيال الجديدة بطريقة مختلفة، قائمة على المساواة والاحترام بين الجنسين.

أجل، ينبغي للأمّ التي تهزّ السرير بيمينها والعالم بيسارها، أن تعي أنها هي التي تكسر السرير أحياناً، ومعه الحلم بعالم أفضل. لعلّ إعجاب رندة بشخصية سوبرمان الزائفة والبرّاقة على حساب نبيل فوزي الحقيقي والمتواضع ما هو إلاّ رمزٌ واضح وهادف عن الدور الذي تؤديه المرأة في المحافظة على استمرارية عرق الرجال الذكوريين. في الواقع، إنها حلقة مفرغة، والعديد من الأشخاص قد وقعوا في فخّها، رجالاً أكانوا أم نساءً. وقعوا في الفخّ بكلّ اقتناع وسرور، سواء عمداً أم على غفلةٍ منهم. لهذا السبب حريٌّ بنا أن نتنبّه، على وجه

السرعة، إلى أنّ سوبرمان رجلٌ زائف، وأنّ هذه النسخة الزائفة ذات نوعيّة رديئة جداً. لقد حان الوقت ليمزّق كلّ سوبرمان زيّه ويلتزم الملابس العاديّة. لقد آن الأوان لنزدري الشعارات البرّاقة ونبحث عن الجوهر الصافي:

في دواخلنا أولاً، قبل البحث عنه في أيّ مكان، وأيّ شيء، وأيّ شخص آخر.

١ ـ لماذا هذا الكتاب؟

”إذا لم تقل الصدق عن نفسك، فلن تتمكّن من قوله عن الآخرين“.

فيرجينيا وولف

القصيدة

تراب

أفضل كتابٍ سوف أكتبه

مختبئ في مكان ما

تحت الكتب التي سبق أن كتبتُها:

أعرف ذلك جيّداً.

وربّما

أقول ربّما

لو بحثتُ عميقاً وطويلاً

قد أجده

في أحد الأيام.

... لكنّ شيئاً ما يظلّ ينبئني

بأنّ أفضل كتابٍ سوف أكتبه على الإطلاق

ليس إلاّ بقايا التراب

العالقة تحت أظفاري:

أظفاري العنيدة هذه

التي لا تتعب من الحفر.

المرافعة في مديح الأنانية

”هذا هو جمال الأدب: أن تكتشف أنّ توقكَ هو نفسه توق آخرين في مختلف أنحاء العالم، وأنّكَ لستَ وحيداً ومعزولاً. تكتشف أنّكَ تنتمي“.

ف. سكوت فيتزجيرالد

بصراحة وبالعربي ”المشبرح“: أنا لا يهمّني تغيير العالم.

لا يهمّني أن أجعل المؤمنين ملحدين. طوبى للمؤمنين أوهامهم.

لا يهمّني أن أعظ الذكوريين حول ضرورة احترام المرأة وكرامتها وكينونتها. عقاب الذكوريين الثاني أنهم ذكوريون. أما عقابهم الأول فأنّني، ومثيلاتي (وأمثالي من جنس الرجال)، قيد الوجود. ولا بدّ سنتصادم في منعطف أو في آخر.

لا يهمّني أن أحوّل الخبثاء إلى صادقين. ليتعفّن الخبثاء في وحول كذبهم على ذقونهم وذقون غيرهم.

لا يهمّني أن أكشف نفاق معظم الشخصيات الدينية. فالدجل والغباء يستحقّان أحدهما الآخر.

لا يهمّني أن أظهر عيوب مؤسسة الزواج. فليتناسل هواة ”حتى يفرّقنا الموت“ فوق سرير أوهامهم.

لا يهمّني أن أقنع الرجال المستبدّين بأنّ المرأة (عقلاً وجسداً) لا تشكّل جزءاً من ممتلكاتهم، لا سيّما إذا كانت بعض النساء أنفسهنّ مقتنعات بهذا الأمر، شأنهنّ شأن الرجال.

لا يهمّني أن أثبت للنساء اللواتي يرتدين البرقع أنهنّ خاضعات لآليات النظام البطريركي، وأنّ عقولهنّ قد تعرّضت لغسلٍ مكثّف في هذا المجال. ولا هدفي أن أثبت لنساء ”البلاي بوي“ أنهنّ خاضعات كذلك لآليات النظام البطريركي، وأنّ عقولهنّ قد تعرّضت، أيضاً، لغسل مكثّف في هذا المجال.

لا يهمّني أن أفضح المعايير المزدوجة التي تزخر بها مجتمعاتنا

وأنظمتنا المنافقة.

قسماً (ليس بالله) لا يهمّني أن أرشد الضائعين والضائعات، ولا أن أضيء عيون العميان والعمياوات، ولا أن أفسد المتديّنين والمتديّنات، ولا أن أشفي العاجزين والباردات، ولا أن أنصح المعقّدين والمعقّدات، وهلمّ.

جلّ ما يهمّني هو حقّي في أن أكون أنا من أريد أن أكون؛ حقّي في أن أقول أنا ما أريد أن أقول؛ حقّي في أن آخذ أنا ما أريد أن آخذ؛ حقّي في أن أكتب أنا ما أريد أن أكتب؛ حقّي في أن أفعل أنا ما أريد أن أفعل؛ وحقّي في أن أعيش أنا مثلما أريد أن أعيش.

لا تهملوا الـ"أنا". إلحظوها. ليست محشورة هنا بالمصادفة.

أنانية؟ ليكن، وعلى رأس السطح. هذا هو بالضبط ما يحتاج إليه العالم في رأيي المتواضع: عدد أكبر من الأنانيين الشفّافين وعدد أقلّ من المحسنين الزائفين.

أما إذا كنتُ – إذ أكون مَن أكون، وأقول ما أقول، وآخذ ما آخذ، وأكتب ما أكتب، وأفعل ما أفعل، وأعيش مثلما أعيش – أستفزّ بضعة آخرين وأخريات على أن يكونوا بدورهم مَن يريدون أن يكونوا؛ على أن يقولوا بدورهم ما يريدون أن يقولوا؛ على أن يأخذوا بدورهم ما يريدون أن يأخذوا؛ على أن يكتبوا بدورهم ما يريدون أن يكتبوا؛ على أن يفعلوا بدورهم ما يريدون أن يفعلوا؛ وعلى أن يعيشوا بدورهم مثلما يريدون أن يعيشوا... فحسبي أنّي أعتبر نفسي آنذاك من أسعد البشر على هذه الأرض. وكم أعتزّ بـ"أضراري الجانبية" هذه، لا بل كم أستمدّ منها قوتي وعزمي وعنادي وشغفي.

لا. أنا لا يهمّني تغيير العالم، صدِّقوني. يهمّني أن أحيا. هذه هي معركتي. وقضيتي. ونضالي. أن أحياني أنا، بلا روتوش، ولا برطلة، ولا مساومة، ولا صفقات.

أن أحياني عاريةً، عريَ قصيدةٍ خرجت لتوّها من الرحم.

هذا كلّ ما في الأمر.

السرد ملاحظة إلى القارئ

”لا أملك ما أقدّمه لأحد سوى ارتباكي“

جاك كيرواك

عزيزي القارئ،

قبل أن تشرع في تجميع شتّى أنواع الافتراضات وتتسرّع في الاستنتاجات، اِسمحْ لي بأن ألفتكَ إلى أنّ هذا الكتاب، بالرغم من عنوانه الناريّ، ليس مانيفستو ضدّ الرجال بشكلٍ عام، ولا ضدّ الرجال العرب بشكلٍ خاص.

إن هو سوى صرخة في وجه النظام البطريركي، بكلّ ما فيه من ”قيم“ وسلع ومراجع عبثية، إن لم نقل معيبة: صرخة مغموسة بالشغف، لا بالسموم. هو أيضاً صرخة في وجه أحد أسوأ منتجات هذا النظام: أقصد فصيلة الرجال الذكوريين، وفصيلة الأشخاص المحدودي التفكير، وفصيلة الإنسان البدائي، والفصيلة التي تحمل شعار ”تعيشين في ظلّي ولا وجود لك إلاّ فيه“...

يطيب لنا أن نظنّ أنّ هذه الفصائل قد انقرضت، لكنّ الحقيقة غير ذلك. نقنع أنفسنا بأنّ الثورات العربية سوف تضع حدّاً لهذا كلّه، لكن ما أبعد ذلك عن اليقين، لا سيّما أنّنا نعيش في منطقة لا يزول فيها وحشٌ إلاّ ليُستبدَل بوحش آخر. نرتاح إلى فكرة أنّ هذه الفصائل تتلاشى، لكنها، في الحقيقة، ليست حتى مهدّدة بالانقراض.

لا تزال هذه الوحوش تحيط بنا من كلّ جانب، تحوم حولنا كغيلانٍ صامتة، رغم كلّ الصراعات التي قامت من أجل صون حقوق المرأة، ورغم التظاهرات، والقوانين، والحريات المدنية الممنوحة، وما يُعرَف بـ”رياح التغيير“، والمساواة الظاهرية في بعض أنحاء هذه الأرض. يحلو لي أن أقارن كلّ هذا بجحيم دانتي: حيث بعض الناس عالقٌ في الدائرة الأولى، وبعضهم الآخر في الدائرة التاسعة. لكنها، في الحالتين، تبقى جحيماً.

قد تردّ مجادلاً بأنّ العديد من النساء في عالمنا إنما هنّ منتج فاسد لهذا النظام البطريركي أيضاً. ستكون محقّاً تماماً: بالفعل، إنّني أوافقكَ

الرأي وأصرّ على تكرار هذه الحقيقة كلّما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، لا لشيء إلاّ محاولةً مني لتجاوز هذه النزعة السهلة، والخادعة، والمنتشرة في بيئتنا، إلى المزج التعميمي بين البطريركية وجنس الرجال. أعني بكلامي هذا، المرأة التي كلّما زادها الرجل تجاهلاً أو أمعن في إساءة معاملتها، شعرت بانجذابٍ أكبر تجاهه؛ المرأة التي تفضّل الرجل صاحب النفوذ على الرجل صاحب الاحترام؛ المرأة التي تنتظر مجيء مولودها إلى هذا العالم متمنيّةً أن يكون ذكراً لا أنثى؛ المرأة التي تربّي أبناءها على السلوك الذكوريّ، وبناتها على الطاعة والخضوع؛ المرأة التي تلتزم الصمت بينما تتعرّض بناتها للاستغلال، سواء جسدياً أم نفسياً؛ المرأة التي تجرّ بناتها إلى عمليّات خياطة غشاء البكارة أو الى الختان؛ المرأة التي تعظ النساء الأخريات بأنهنّ خُلقن لملازمة منازلهنّ لا للمشاركة في الحياة السياسية أو الاجتماعية أو العملية في بلادهنّ؛ المرأة التي تلقّن بقية النساء الإذعان والخنوع؛ المرأة التي تحتقر النساء الناجحات أو تحاربهنّ أو تكنّ لهنّ كرهاً شديداً؛ المرأة التي لا تؤمن بوجود نساء ناجحات؛ المرأة التي تشجّع بناتها على الزواج في الرابعة عشرة من عمرهنّ أو على "التحلّي بالصبر" عندما يقدم أزواجهنّ على ضربهنّ؛ لكن أولاً وخصوصاً: المرأة المقتنعة كلّ الاقتناع بأنّ الرجال يمثّلون الجنس الأقوى والأرقى والأذكى... إنّ النماذج البشعة التي تجسّدها المرأة البطريركية في مجتمعاتنا وثقافاتنا (سواء عن عمد أم على غفلةٍ منها) لا تُعَدّ ولا تُحصى.

هذا من جهة. أما من جهة أخرى، فما زلنا نقع، في كلّ زاوية من زوايا عالمنا الحديث هذا، على رجال يخالون أنّهم "أفضل" من النساء، لا بل ويعلنون هذا الأمر بأعلى الصوت وهم يقرعون صدورهم فخراً كحيوانات الغوريلا: أعني هنا الرجال الذين يسيئون معاملة المرأة، ويضربونها، ويستغلّونها، ويعاملونها بفوقية، ويستخفّون بها، ويخفونها عن الأنظار، ويعتبرونها كتلة لحم رخيصة أو سلعة "تُباع" و"تُشترى"؛ الرجال الذين ينظرون إلى المرأة بدونية ويحتقرونها في أفضل الأحوال، أولئك الذين يستغلّون عضلاتهم المفتولة و/أو السلطات (الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو الاقتصادية) التي يسبغها عليهم النظام البطريركي العفن كي يمعنوا في النساء قمعاً واستبداداً. هم الرجال الخارقون، كما يحبّون أن يصوّروا أنفسهم؛ هم "منقذو" البشرية.

لكنّ سوبرمان، أقولها من جديد، ليس سوى كذبة. جلّ ما ينبغي إنقاذه

اليوم هو تلك السفينة الغارقة التي تُدعى الرجولة. أجل، سوبرمان كذبة، وكذبة مثيرة للاشمئزاز، خطيرة وسامّة أيضاً، إن لم نقل انتحارية؛ شأنها شأن تلك الصورة المبتذلة عن الأميرة "المسكينة"، التي تنتظر أن ينقذها الفارس الباسل. وبقدر ما حان الوقت كي تؤمن الفتاة "المضطهدة" أو "الكارهة لنفسها" بقدراتها، آن الأوان كي يصير هذا الرجل الخارق المزعوم رجلاً. أعني رجلاً حقيقياً:

الرجل الذي تستحقّه الأنوثة... الرجل الذي تستحقّه البشرية... لكن أولاً وأخيراً الرجل الذي يستحقّ أن يكونه هو نفسه.

٢ ـ كيف بدأ كلّ شيء (بشكل عام)

"أما بعد، فإذا كنتُ اختباراً فعلاً، فهل أنا كلّ ما يقوم عليه هذا الاختبار؟ كلا، لا أعتقد ذلك. البقية جزءٌ من الاختبار أيضاً. أنا الطرف الأساسي فيه، نعم، لكن أعتقد أنّ للبقية حصّة مهمّة أيضاً في هذه المسألة".

مارك توين، "مذكّرات حواء"

القصيدة مبـتـدأ ثانٍ[1]

[1] هذه القصيدة مقتطف من ديوان للشاعرة بعنوان عودة ليليت (منشورات دار النهار ٢٠٠٤/ الدار العربية للعلوم والاختلاف ٢٠١٠).

ثم خلق الله المرأةَ على صورته من التراب في اليوم السابع خلقها من فرط الحياة عند احتمالها خلقها ليليت التي كحبٍّ مؤجّل عيناها

التي صيّادةٌ وقتيلة والجسـر بينهما

التي الأسُودُ على هديل ثدييها تغفو

التي قوانينُها تسنّها وحيدةً وتنتهكها جماعات

التي كملكةٍ ورعية

التي أرضُها برتقالةٌ مسطّحة وتعلم أنّها تدور حولها

التي السروةُ سروتُها ومثلها أوّل الليل وآخر البحر

المغرورة كغيمة وكغيمة متواضعة

التي لا تصدّق

الأثخن شهقةً في الصيف والأطول دمعةً للخريف

التي توثق رجالها وتبكي على صدورهم

التي لا تسمّيها الأشياء

التي مُذْنِبٌ ثوبُها من تلقائه

التي بماضيها تحلم وتقنص الغد

الفحلةُ أنوثتُها الرقيقةُ في الفحولة

الحرونُ نشوتُها ولا تأتي الحارقة كنهر

التي في صحن الحليب تشرب القمر ومن راحة اليد تأكل السماء

التي لا يُـقبَض عليها وتلوح في الأفق

التي الضوءُ الخافت وعريُها لمَن لا يرى بالعين

الحرّة والمكبّلة وفرارهما

التي وئامُها الجحيم والفردوس

الشهوة وشهوتها

التي شجرةُ تفّاحٍ مثقلة بشبق المجيء وبرقُها متناثر على كتف هاوية

التي بخورٌ يعبق من جسد الخيال

الحنونُ في البطش الجبّارةُ في الانسحاق

التي الترفُ ضدّ الضرورة الهلعُ ضدّ اليقين

التي من أجل كلّ امرأة نظرتْ ولم تقطف

التي قطفتْ ولم تهدر

ثم أهدرت ولم يفض عنها

التي من أجل كلّ رجل

التي تخون بنات جنسها

التي تخون

التي طعناتُها أرقّ من لمساتهنّ

الخطيئة إذ تصلّي

والتي قد حان ليلها

شاعرة الشياطين وشيطانة الشعراء

خذوها مني من الأحلام المستديرة كاللون الأزرق

كثِّروها جمِّعوها اِنهبوها

ولا تكتفوا.

المرافعة : دوبل فاس

”واأسفاه! مَن يظلّ حياً في قلب الرجل ليس الطفل الذي كانه، بل المراهق“.

آرثر هيلبس

من الرجال مَن يقول للمرأة: ”إنني أحترمكِ، وأدعمكِ، وأنا متضامنٌ معكِ وسأحميكِ حتى آخر يومٍ في حياتك. هذه هي مشيئة الله، ومن حقّكِ أن تتوقّعي منّي ذلك“. لكنّ هؤلاء غالباً ما يخلطون ما بين الاحترام والاستعلاء، ما بين الدعم والقمع، ما بين التضامن وتربيتةٍ مهينة على الظهر. ليس هذا فحسب، بل يخلطون أيضاً وخصوصاً ما بين وصايا ربّهم البطريركي وسحق بعضٍ من أبسط حقوق الإنسان.

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّهم ”يحترمون المرأة، ويدعمونها، ويتضامنون معها، ويحمونها“: ”إننا نشجّع شريكاتنا على بناء مسيرة مهنيّة ناجحة. طموحِك من طموحنا، وإنجازاتكِ لَمصدر فخرٍ بالنسبة إلينا“. لكنّهم مقتنعون، في قرارة أنفسهم، أنّ المرأة لا تعمل إلاّ لتشغل وقت فراغها. وليس من الغريب أن يُمنوا بنوبةٍ قلبية إذا كانت تجني راتباً يفوق راتبهم. كما إنّها غالباً ما تضطرّ إلى استجداء ثقتهم واهتمامهم وتشجيعهم، كمثل طفلةٍ صغيرة تتسوّل الانتباه.

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّهم ”يشجّعون شريكاتهم على بناء مسيرة مهنيّة ناجحة“: ”تثيرنا المرأة التي تتحلّى بذكاء حاد، وشخصية قويّة، وطبع ناريّ. ما نفع أن تكون المرأة جميلة إذا كانت أشبه بدمية غبية جامدة صامتة لا تتفاعل مع كلامنا؟ تعجبنا حتى الطريقة التي تجادلنا بها النساء وتوبّخنا“. لكنّهم يتمنّون، سرّاً، لو أنّ النساء كنّ أقل ذكاءً وحماسة، وأكثر طاعةً وإذعاناً.

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّ ”صاحبة الذكاء الحاد، والشخصية القويّة، والطبع الناريّ تثيرهم“: ”نعشق في المرأة نزعتها الشهوانية وزعرنتها الحارقة. نريدها أن تبادر معنا إلى ما يحلم به كلّ رجل سرّاً من دون أن يجرؤ على طلبه. نريدها أن تستبق رغباتنا وتلهب فراش الاستيهامات واللقاء“. لكنّ فكرة ألاّ تكون عذراء ليلة زفافها تقضّ مضاجعهم، ومبادرتها إلى العلاقة الجنسية تُشعرهم بالمهانة. أما

مفهوم الشرف، فيختصرونه كلّه بما بين فخذيها.

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّهم "يعشقون في المرأة نزعتها الشهوانية وزعرنتها الحارقة": "لا نطيق الغيرة ولا نجد لها مبرّراً. ليست علاقتنا عقد ملكية، ومن البديهي أن يثق الواحد منّا بالآخر". لكن تراهم لا يجدون خطباً في مضاجعة امرأة ثانية أو حتى الزواج بها، بينما لا يتردّدون في إهانة زوجتهم أو هجرها أو ضربها أو حتى قتلها إذا أقدمت على خيانتهم، لأنّ ما ينطبق عليهم لا ينطبق، بطبيعة الحال، عليها.

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّهم "لا يطيقون الغيرة ولا يجدون لها مبرّراً": "لا نرتوي من الإصغاء اليكِ. نرجوكِ أن تشاركينا دائماً مخاوفكِ وأحاسيسكِ ومشكلاتكِ وهمومكِ". لكنهم يفكّرون كلما باحت واسترسلت في البوح: متى ينتهي عارض الاعترافات المملّ هذا؟

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّهم "لا يرتوون من الإصغاء إلى المرأة": "نضع لذّتكِ في الأولوية. نشوتنا من نشوتكِ ولا يهمّنا الجنس من طرفٍ واحد". لكنّهم غالباً ما يغطّون في نومٍ عميق على طريق عودتهم من مشوار الجسد، قبل أن تكون هي قد همّت بالذهاب.

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّهم "يضعون لذّة المرأة في الأولوية": "نقدّر رقة إحساسكِ ونحترم ضعفكِ. لا تخافي من خلع أقنعتكِ وإظهار وجهكِ الهشّ أمامنا. معنا لا تحتاجين إلى ادّعاء القوة والثقة بالنفس. نحبّكِ سواء أكنتِ منكّلةً باطشة أم منهزمةً باكية. لكنّهم لا يترددون في محاربتها عند الضرورة بمعرفتهم الواسعة لنقاط ضعفها.

يقول بعض الرجال الذين يزعمون أنّهم "يحترمون ضعف المرأة": "نحبّكِ كما أنتِ. لا تغيّري فيكِ شيئاً. نعشق جمالكِ الطبيعي البريء من أيّ تدخلات خارجية". ولكن حين تتلصص هذه المرأة على نومهم من شبّاك حدْسها تلمح في رؤوسهم أطياف نساء أخريات، نساء لا يشبهنها، بشفاه سيليكونية ونهود بلاستيكية وأجسام اصطناعية ونظرات فارغة؛ نساء طيّعات سعيدات بأن يكنّ محض دمى وأكسسوارات؛ نساء يبحرن بثقة في مياه الذكورة الباطنية وينخرن الأحلام؛ نساءٌ – أشياء، نساءٌ – غلافات، نساءٌ – أصنام يتهادين في الخيال مطمئنات جاهلات بلا خوف، عابرات ليّنات بلا تهديد، حصينات

خالدات... بلا حياة.

السرد - سفر التكوين على طريقتي

”النهاية هي من حيث نبدأ“

تي. إس إليوت

...وكان مساءٌ وكان صباحٌ يوماً سادساً. وقال الله: ”نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدبّ على الأرض“. فكان الرجل. وسمّاه الله آدم. ورأى الله كلّ ما عمله فإذا هو حسنٌ جدّاً...

لكن برزت مشكلةٌ واحدة. كان الرجل خالداً، وغير راضٍ عن ذلك. لم يخطر في ذهن الله – وهو الأزلي في أقلّ تقدير – أنّ الرجل قد يحتاج إلى خاتمة. لكن تلك كانت الحقيقة المرّة. فما كان من الله إلاّ أن تمدّد فوق صخرةٍ ضخمة (الصخرة نفسها التي خلقها في اليوم الأوّل)، وراح يمعن التفكير في المشكلة: ”ألا تكفيه الحيوانات؟ ألا تكفيه النباتات والجبال والأنهار؟ ماذا عسايَ أفعل أكثر كي أجنّب نفسي شكاوى هذا المخلوق المزعج؟“.

فجأةً ومضت في ذهن الله فكرةٌ، تماماً كما حدث لأرخميدس عندما صاح ”وجدتها!“. ارتأى أن يمنح الرجل الموت. فما كان منه إلاّ أن خلق السجائر، وحوادث السير، والزلازل، وغيرها من الكوارث المزعجة التي قد تخلّص الإنسان من مشكلة خلوده. ثمّ رأى الله كلّ ما عمله فإذا هو، بطبيعة الحال، حسنٌ جدّاً...

لكن برزت مشكلةٌ ثانية. كان الرجل متعجرفاً إلى حدّ لا يُحتمل. لم يخطر في ذهن الله – وهو الواحد الأحد والراغب في أن يبقى كذلك في أقلّ تقدير – أنّ الرجل بحاجة إلى أن يعرف حدوده. لكن تلك كانت الحقيقة المرّة. فما كان من الله إلاّ أن غاص في أعماق البحر (البحر نفسه الذي خلقه في اليوم الثاني)، وراح يمعن التفكير في المشكلة: ”ألا تكفيه الحيوانات والنباتات والجبال والأنهار والموت؟ ماذا عسايَ أفعل أكثر كي أجنّب نفسي شكاوى هذا المخلوق المتعِب؟“.

فجأةً ومضت في ذهن الله فكرةٌ ثانية. ارتأى أن يمنح الرجل الوعي

بذاته. فما كان منه إلاّ أن خلق المرايا. ثمّ رأى الله كلّ ما عمله فإذا هو، بطبيعة الحال، حسنٌ جدّاً...

لكن برزت مشكلةٌ ثالثة. كان الرجل مصاباً بكآبةٍ شديدة. لم يخطر في ذهن الله – وهو الذي كان دائم البهجة والتفاؤل على غرار "باغز باني" في أقلّ تقدير – أنّ الرجل بحاجة إلى المواساة والسلوى. لكن تلك كانت الحقيقة المرة. فما كان من الله إلاّ أن تنزّه على سطح القمر (القمر نفسه الذي خلقه في اليوم الثالث)، وراح يمعن التفكير في المشكلة: "ألا تكفيه الحيوانات والنباتات والجبال والأنهار والموت والمرايا؟ ماذا عسايَ أفعل أكثر كي أجنّب نفسي شكاوى هذا المخلوق النكد؟".

فجأةً ومضت في ذهن الله فكرةٌ ثالثة. ارتأى أن يمنح الرجل عزاءً كيميائياً. فما كان منه إلاّ أن خلق "البروزاك". ثمّ رأى الله كلّ ما عمله فإذا هو، بطبيعة الحال، حسنٌ جدّاً...

لكن برزت مشكلةٌ رابعة. كان الرجل يشعر بالملل. لم يخطر في ذهن الله – وهو الذي كان يتمتع بالاكتفاء الذاتي في أقلّ تقدير – أنّ الرجل بحاجة إلى الترفيه عن نفسه. لكن تلك كانت الحقيقة المرّة. فما كان من الله إلاّ أن امتطى حماراً وحشياً (الحمار الوحشيّ نفسه الذي خلقه في اليوم الرابع)، وراح يمعن التفكير في المشكلة: "ألا تكفيه الحيوانات والنباتات والجبال والأنهار والموت والمرايا والبروزاك؟ ماذا عسايَ أفعل أكثر كي أجنّب نفسي شكاوى هذا المخلوق المتذمّر؟".

فجأةً ومضت في ذهن الله فكرةٌ رابعة. ارتأى أن يمنح الرجل شيئاً يتسلّى به. فما كان منه إلاّ أن تناول كتلةً صغيرة (للأسف) من الطين عن الأرض، ثمّ قولبها على شكل أنبوب، وعلّقها عند منفرج ساقَي الرجل، لكي تكون دائماً في متناوله. هكذا خلق الله القضيب. ثمّ رأى الله كلّ ما عمله فإذا هو، بطبيعة الحال، حسنٌ جدّاً...

لكن برزت مشكلةٌ خامسة. كان الرجل يشعر بالوحدة. لم يخطر في ذهن الله – وهو الممتلىء برفقته في أقلّ تقدير – أنّ الرجل بحاجة إلى رفيق. لكن تلك كانت الحقيقة المرّة. فما كان من الله إلاّ أن جلس في ظلّ شجرة تين (الشجرة نفسها التي خلقها في اليوم الخامس)، وراح يمعن التفكير في المشكلة: "ألا تكفيه الحيوانات والنباتات والجبال والأنهار والموت والمرايا والبروزاك والقضيب؟ ماذا عسايَ أفعل أكثر

كي أجنّب نفسي شكاوى هذا المخلوق المغيظ؟".

فجأةً ومضت في ذهن الله فكرةٌ خامسة. فارتأى أن يمنح الرجل، وقضيبه، كائناً يتسلّى به، ويأمره، ويتكبّر عليه، ويوظّفه لخدمته، ويستغلّه ويسيء معاملته. تالياً، عوض أن يرتاح الله المسكين في اليوم السابع، كما كان مقرّراً، بذل مجهوداً إضافياً وأخيراً، فخلق المرأة... خلقها من طين، تماماً كما فعل مع الرجل، وسمّاها ليليت. ثمّ رأى الله كلّ ما عمله فإذا هو، بطبيعة الحال – نظراً إلى تضاريسها واستداراتها وكلّ ما تبقى – حسنٌ للغاية...

لكن برزت مشكلةٌ جسيمة أخيرة. تبيّن أنّ ليليت ليست لعبة، وفق ما خطّط له صانعها عندما خلقها، أو لنقلْ إنّها كانت مشروع لعبة فاشلاً. كيف لا وقد تبيّن أنّها أنثى حرة، مستقلة، قوية، لا تقبل أن يهينها الرجل (ولا الله كذلك بطبيعة الحال). لم تحبّذ ليليت أن تُعامَل كأكسسوار، وبعدما ضاقت ذرعاً بأوامر الرجل التافهة، قرّرت أن تغادر الجنّة المزعومة بحثاً عن مكانٍ أكثر إثارةً للاهتمام. فنزلت إلى الأرض، وبدأت تتناسل.

لكن لم يمضِ وقتٌ حتى عاد الرجل إلى التذمّر والشكوى من الوحدة. فما كان من اَللّٰه إلاّ أن حاول خلق امرأةٍ من جديد. لكن حرصاً منه، هذه المرّة، على أن تكون مطيعةً وخاضعة، خطر له أن يخلقها من ضلع الرجل: هكذا تكون جزءاً صغيراً من الكليّة الذكوريّة. أنّى لها ألاّ تكون، في هذه الحالة، سوى مطيعة وخاضعة لـ"سيّدها"؟ وهكذا كانت حوّاء.

...منذ تلك اللحظة، كانت نهاية الرجل والمرأة، وبداية فوضى عارمة تُدعى "صراع الجنسين".

٣ ـ كيف بدأ كلّ شيء (بالنسبة إليَّ)

"المفارقة في الحبّ هي أنّ الحبيبين يصبحان كياناً واحداً، لكن يبقيان شخصين مستقلين".

إريك فروم

القصيدة

استعارة

الحبّ سمكة زلقة

لكن رائحته أجمل.

الحبّ سمكة زلقة.

كلما ظننتَ قبضتَ عليه

انسلّ من بين يديك.

عندما يستقرّ ساكناً في راحتك،

لا تتنفّس الصعداء:

هذا يعني فقط

أنه قد مات.

المرافعة

من حبّ إلى حبّ

"لا يعنيني الرجال في حياتي، بل الحياة في رجالي".

ماي وست

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان يعاملني كملكة

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنه لم يكن ملكاً.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان يجعلني أضحك

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنه لم يكن يشرب دموعي عندما أبكي.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجل لأنّه كان متكلّماً فصيحاً

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنه تكلّم كثيراً وعنى قليلاً.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجل لأنّه حملني إلى القمر

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه لم يعرف كيف يردّني إلى الأرض.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجل لأنّي كنت أستمتع بممارسة الحبّ معه فوق سرير واحد

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّي لم أستمتع بالنوم إلى جانبه فوق سرير واحد.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجل لأنّي افتتنتُ به

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه كان مفتوناً بنفسه.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان يعرف كيف يلامس جسدي

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه لم يكن يعرف كيف يلامس روحي.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان يعرف كيف يلامس روحي

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه لم يكن يعرف كيف يلامس جسدي.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان يُشعرني بالراحة

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه كان يُشعرني براحةٍ زائدة.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان ذكيّاً ومثقّفاً

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه كان يتباهى بذكائه وثقافته.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه فرض نفسه على أحلامي

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّي سئمتُ الأحلام.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه عرف كيف يدخل إلى حياتي

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه لم يعرف متى يغادر.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان يكتب إليَّ رسائل جميلة

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّ أقواله لم تتحوّل إلى أفعال.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان ينظر إليَّ باحترام

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّي لم أنظر إليه بالمثل.

مرّةً، وقعتُ في حبّ رجلٍ لأنّه كان كاملاً متكاملاً

ثمّ توقّفتُ عن حبّه لأنّه كان كاملاً متكاملاً.

من حبّ إلى حبّ،

من نار إلى نار،

من حبّ إلى حبّ

من رماد إلى رماد،

والرجل الذي سيُبقي ناري متّقدةً

لم يُخترَع بعد.

الرجل الذي سيُبقي ناري متّقدةً،

لا يزال عليَّ إيجاده.

السرد - لقاءات حميمة مع الجنس الآخر

”كلّ النساء يصبحن مثل أمّهاتهنّ: تلك هي مأساتهنّ.

ما من رجلٍ يفعل: تلك هي مأساته“.

أوسكار وايلد

كان يشبه ”تان تان“، ذلك المراسل البلجيكي الشهير الآتي إلينا من عالم القصص المصوّرة. أذكر أنّه كان رقيق الملامح، شامخ الأنف، جميله، ذا ابتسامة تفضح ما يخفيه من مكر. كان كلانا في السابعة من العمر عندما التحق بالمدرسة الكاثوليكية للبنات حيث كنت أتعلّم. في الواقع، كان أحد الفتيان الثلاثة في الحيّ الذين تمكّن أهلهم من إقناع الراهبات بقبولهم كتلاميذ في المدرسة، نظراً إلى أنّ ”الصبيّ في هذه السنّ اليانعة لا يُعقَل أن يشكّل خطراً على شرف فتاة صغيرة“. حقاً؟

أعجبني جاك في الحال، وكنت على يقين من أنّه بادلني الشعور نفسه. فمع أنّه بالكاد كان يتوجّه إليّ بالكلام، كان يستغلّ كلّ فرصة ليشدّني من شعري ويلوذ بالفرار. صحيحٌ أنّي كنت أشعر بألمٍ فظيع حينذاك، فتنهمر مني الدموع، إلاّ أنّ هذا الأمر ضاعف من إعجابي به. بالفعل، كنت، كلّما شدّني من شعري بقوّة أكبر، شعرتُ بإعجابي ينمو وينمو، وأجزم أنّه يستلطفني لا محالة. كان يقيناً مزروعاً فيَّ بالفطرة لأنّي لم أكن، بطبيعة الحال، مطّلعةً على أصول العلاقات في تلك الآونة. ما كان في وسعي حينذاك أن أفسّر سلوكه تفسيراً منطقياً، فأقول: ”إنّه يشدّ بشعري لأنّه محبط. وهو محبط لأنّه معجبٌ بي، مما يجعله يشعر بالخوف“. بعد مضيّ زمنٍ طويل، فهمتُ أنّ نمط السلوك الذكوري – إن كان من نمطٍ ذكوري فعلاً – يسير على هذا النحو، بناءً على طرقٍ مختلفة لـ”شدّ شعر المرأة“.

~

كنتُ كلّما وقفتُ أنا وأمّي على الشرفة، ورأيتُ جارنا، الشاب الطويل الوسيم، يعبر الشارع، من علوّ ١٥ متراً، قلتُ لأمّي: ”سأتزوّج بذلك الرجل!“. لم أكن أعرف اسمه، ولكن أردتُ الزواج به في كلّ حال. لم

أكن قد تجاوزتُ التاسعة من عمري، ولكن أردتُ الزواج به في كلّ حال. كان الأمر يشكّل لغزاً بالنسبة إلى أمي: اعتبرت ذلك أحد تصرّفات ابنتها الغريبة التي لم تكن قد ألفتها تماماً بعد. ذات يوم، خطرت لها تلك الفكرة الفظيعة بأن توقفه في الشارع، بينما كنت أرافقها، لتخبره عن نزوتي هذه. ولمّا فعلتْ، وددتُ لو انشقّت الأرض وابتلعتني بينما كان الشاب المذكور يقرص خدّي المتورّد من شدّة الخجل ويقول: "كم هذا لطيف!". كرهتُه في الحال. ولم أعد أُخبر أمي عن رغبتي في الزواج به. احتارت في أمري. ذات يومٍ، اعترفتُ لها بحقيقة الأمر، بعدما كانت قد سألتني السؤال نفسه للمرّة الألف: "لأنّه لم يعد بعيد المنال". بطبيعة الحال، لم تفهم ماذا عنيتُ، ولا أنا فعلتُ. ولكن هذا كان شعوري في تلك الآونة. كنت أريد "الرجل غير الموجود في المتناول"؛ كنت أريد الحلمَ بكلّ بساطة.

في تلك الآونة نفسها تقريباً، بدأ يراودني كابوسٌ لم ينفكّ يقضّ مضجعي منذ أيّام الطفولة. كنت أرى نفسي في سريرٍ خشبيّ أبيض صغير. فجأةً، يُلقى السرير من الطابق الخامس، فأراه، وأنا ممدّدة فوقه، يهوي بشكلٍ عموديّ، لكن بطيء، نحو القاع. ولا يلبث أن يرتفع على علوّ الطوابق الخمسة من جديد، ويستعيد مكانه في الغرفة. لكن الأمر لا يطول حتى يُلقى به مجدّداً نحو الأسفل بفعل قوّةٍ غامضة... لكأنّي سيزيف والصخرة في وقتٍ واحد.

هل كان الكابوس استعارةً تعكس روحي المضطربة؟ تلك الروح الواقفة أبداً على حافّة الهاوية؟ روحٌ لا تقبل بالمساومات، بل تدمن البدايات، ولا تكفّ عن فتح الصفحات الجديدة في مختلف المجالات تقريباً؟ روحٌ تتوق دائماً وأبداً إلى ما هو "بعيد المنال"؟ هل كنت نموذجاً عمّا وصفه الشاعر الفرنسيّ أندره بروتون قائلاً: "طوال حياتي قلبي يتوق إلى شيء ما، لا أستطيع تسميته"؟ لعلّ الحال كانت كذلك فعلاً، لكنّ الأمر كان مزعجاً إلى أبعد حدود بالنسبة إلى الفتاة الصغيرة التي كنتُها آنذاك.

ما أنا على يقينٍ منه هو أنّ الكابوس يمكن أن يمثّل، حتماً، رمزاً سابقاً لأوانه عن علاقتي بالرجال: بناء، فدمار، ثمّ بناء من جديد، مرّةً تلو الأخرى، إلى أن يصاب أحدنا بالإنهاك، ويُقرّ بأنّ المضيّ قدماً مستحيل. أهي دورة الحياة؟ بل قل إنّها حياةٌ ضمن دوائر. وقلبٌ ضمن دوائر. وإرادةٌ ضمن دوائر. بدون طريق مسدود، لكن أيضاً بدون نهايات. بدون روتين الواقع، لكن أيضاً بدون واقع.

~

بلغت هذه الحالة أوجها عندما أصبحتُ في الثانية عشرة من عمري، ووقعتُ، في معرض لقاءٍ صادمٍ وغريبٍ، على كتابات دو ساد، ناهيك بمواكبتي لزواج والديَّ المتدهور وشجارهما اليوميّ. في تلك الآونة بالذات، بدأتُ أؤمن بكلّ اقتناعٍ، سابحةً ضدّ تيّار صديقاتي الحالمات، وضدّ المعتقدات السائدة أيضاً، بأنّ الرجل المناسب لا وجود له، وبأنّ الموجود فقط هو رجلٌ مناسب في وقت مناسب. واقتنعتُ أيضاً بأن لا وجود للفارس المقبل على ظهر حصان، ولا لأمير الأحلام، ولا للنهايات السعيدة.

تلك كانت فلسفتي: الحياة لحظة، وليس ثمة أمامنا سوى انتهاز الفرص. كلّ ما في الحياة مرفقٌ بتاريخ لانتهاء الصلاحية، لا سيّما العلاقات. كان من الصعب أن يقع المرء حينها على مراهِقة أكثر سخريةً وتحرّراً من الأوهام. أما قراءاتي المفضّلة قبل النوم في تلك الآونة فكانت فلسفة في غرفة النوم وفينوس في الفراء.

نتيجةً لذلك، كانت معظم حياتي كراشدة، مسيرة في حلقة مفرغة. في الواقع، أثبتُّ أنّي محارِبةٌ مقدامة على مختلف الأصعدة إلاّ في المسائل المتعلقة بالحبّ. في الحبّ، كنت ملكة الخطط البديلة. لم أطبّق مرّةً خططي الأساسية بكامل بنودها. كنت أفترض تلقائياً أنّ الخطة الأساسية مصيرها الفشل حكماً، وأنتقل مباشرةً إلى الخطة البديلة. ولم يكن يهمّني إذا مُنيت الخطة البديلة بالفشل أيضاً. ففي جعبتي كنت أخبّئ دوماً خطّةً بديلة ثانية. كنت ملكة الخطط البديلة، الثانية والثالثة والرابعة إلخ.

كان أصدقائي يسمّونني الحكيمة، الرؤيوية، المتنبّهة، البعيدة النظر، الشكّاكة، أو بكلّ بساطة: القاسية القلب، لأنّي كنت أدير ظهري من دون أن ألتفت إلى الوراء. لكن ينبئني حدسي، لا أدري لماذا، أنّي كنت جبانةً ليس إلاّ؛ لكأنّي امرأة تحمل قنبلةً يدويةً، وما القنبلة إلاّ المرأة نفسها، آملةً ألاّ تنفجر في وجهها يوماً ما. وإلاّ فماذا تسمّون شخصاً يهرب من سلّم الحريق حتى عندما لا يكون هناك حريق؟

~

بطبيعة الحال، لم يكن زواجي في سنّ العشرين من شخص كنت قد التقيتُ به وأنا في السادسة عشرة من عمري بخطوةٍ إلى الأمام. كان

الزواج بالنسبة إليّ تذكرتي لمغادرة منزل أهلي وخطوة أولى أخطوها نحو الاستقلالية. زاد الطين بلّة في تلك الآونة أنّي كنت عذراء في ليلة عرسي (يا للعار!) وأنّنا لم ننسجم كزوجين على الصعيد الجنسي. في هذا الإطار، حريّ بالإنسان ألاّ يُقدم على الزواج إذا لم يكن قد اختبر العلاقة الحميمة مع الشخص "المختار" أولاً (في الواقع، حريّ به ألاّ يُقدم على الزواج إطلاقاً، ولكن هذا أمرٌ سأتطرّق إليه في وقت لاحق). قد يُخيّل للعديد منكم أنّي أعلن أمراً بديهياً (أي ضرورة اختبار الجنس قبل الزواج)، لكنّ الحال لم تكن كذلك في لبنان أواخر الثمانينات. ماذا أقول؟ إنّ الحال ليست كذلك حتى في لبنان اليوم. في تقريرٍ مصوّر أعدّته المنتجة اللبنانية المقيمة في لندن أماندا حمصي أوتوسون (بلاك يونيكورن برودكشن)، تبيّن أنّ معظم الشباب الذين في العشرينات من العمر يرفضون الزواج من امرأة فُضّت بكارتها. هذا مع الإشارة إلى أنّ الاستبيان المذكور أُجري مع طلاب جامعيين، في العام ٢٠١١، في بلدٍ وُصف مرّةً بأنّه "سويسرا الشرق".

سريعاً ما تحوّلنا، زوجي وأنا، إلى "زانيَين" لا ينفكّان يبحثان عن "العشب الأخضر في الجهة الأخرى من السياج". يجدر بي القول هنا إنّي أمقت، كما تتصوّرون، كلمة "زانٍ" أو "زانية" لما تحمله من مدلول ديني (أفضّل عليها عبارة "عاشق متسلسل")، لكنّي لا أمانع استخدامها، لا سيّما أنّها تجعل العديد من العرب يشهقون ويسدّدون إليك نظرات ملؤها الإجحاف والحكم المسبق: تعلمون طبعاً أنّنا نشتهر برجم هذه الفصيلة من الأشخاص (سواء حرفياً أم مجازياً) عندما تتّخذ شكل أنثى، وبتمجيدها والتصفيق لها في نسختها الذكورية (متلازمة الفاجرة مقابل متلازمة كازانوفا). قلّما يهمّ أنّ معظم الأشخاص يمارسون الزنى سرّاً ويشجبونه علانيّةً؛ قلّما يهمّ إنْ كانت هذه الازدواجية في العيش تمثّل، بالنسبة إلى عدد كبير من الأشخاص، حلاً "عملياً"، عوض التخبّط في أدغال الطلاق الديني الشائكة، أو المجازفة بخسارة مكانتهم الاجتماعية. ولكن، لا بأس في ذلك. لطالما آمنتُ بأنّ أفضل ما يمكن أن يحدث لي هو أن ينبذني مجتمع زائف ذو وجهين. وحريّ بي الإقرار بأنّني فعلتُ الكثير الكثير كي أحمله على نبذي: لقد كافحتُ كي أتمكّن من العيش وفيّةً لنفسي ولأفكاري، لا وفقاً للصورة التي يودّ أن يلصقها بي الآخرون.

إنّ إحساسي بذاتي لم يكن يوماً خاضعاً للأفكار التي كانت الأسرة أو الأصدقاء أو الرجال أو المجتمع أو غيرهم يرسمونها عني. كما أني عملتُ، بكلّ قوّة وشراسة، على أن لا أقدّر مكانتي، أو أقيسها، وفقاً

لأهميّتها في أعين الآخرين، لأنّ فعل "الزنى" الحقيقي إنما هو هذا: أن تكون خائناً نفسكَ. هنا، أجدني أردّد ما كتبه عزيزي الماركيز دو ساد: "أتقولون إنّ طريقة تفكيري لا يمكن أن تكون مقبولة؟ وهل تحسبون أنّ هذا يهمّني؟ مغفّلٌ حقاً من ينظّم طريقة تفكيره كرمى للآخرين".

~

بطبيعة الحال، وصلتُ أخيراً إلى مرحلةٍ شعرتُ فيها أنّني قد ضقت ذرعاً بهذه "الحياة المزدوجة" التي أعيشها، فقرّرتُ أنّ الوقت قد حان لأكون أكثر صدقاً تجاه نفسي، وأواجه الطلاق كإحدى المجازفات التي ينطوي عليها الزواج. بالفعل، إنّ الطلاق، بكلّ بساطة، احتمال ينبغي أخذه في الحسبان عند الإقدام على الزواج (في ما خلا بعض الاستثناءات السعيدة التي لا تساهم إلاّ في إثبات صحّة هذه القاعدة). قلّما همّني إنْ كان الناس في بلادي لا يزالون يعاملون النساء المطلّقات بفوقية، فيقابلوهنّ إمّا بتزمّت وازدراء وإمّا بشفقة (فالذنب ذنب المرأة في الحالات كافةً تقريباً إذا آل الزواج إلى الفشل). زد على ذلك أنّني كنتُ قد ضقتُ ذرعاً بتصنّع النشوة لا لشيء سوى لمسايرة الرجال وبعث الطمأنينة في نفوسهم: فليعلموا أنّني أشارك في "هذه العلاقات" كرمى لنفسي بقدرٍ ما – إنْ لم أقل أكثر مما – أشارك فيها كرمى لهم. السبيل الوحيد إلى بعث الطمأنينة في نفوسهم هو من طريق إرضائي كلّ الإرضاء. بالفعل، يجب أن تكون هذه العلاقة مكافأةً (متبادلةً) ينالها كلٌّ من الطرفين عن جدارةٍ تامّة.

خلال سعيي الأعمى هذا، قابلتُ الكثير من الرجال: الطويل القامة والقصير؛ البدين والرشيق؛ الفتيّ والمُسِنّ؛ المرِح والجديّ؛ اللطيف والشقيّ؛ المثابر والكسول؛ الخلاّق والمنطقيّ؛ الثرثار والصّموت؛ الأنيق والهيبيّ؛ المبتسم والعابس؛ السريع والبطيء؛ الفاسق والمحروم؛ المحارب والديبلوماسي؛ الغاضب والمستكين؛ الطموح واليائس...

لكن في كلّ مرة كان باستطاعتي أن أتوقّع الآتي، فأعرف كيف سيخيّب كلّ رجلٍ منهم أملي (قد يعلّق علماء النفس هنا أنّها "آلية للدفاع عن النفس ناتجة من خوفي من الارتباط/ الحميمية/ الالتزام"). في كلّ مرّة كنت أكتشف أنّ هؤلاء الرجال هم بالفعل "أعداء". لا أقصد أعدائي. كلا. بل أعداء أنفسهم. لذا، كان التخلي عن تلك العلاقات أمراً

في غاية السهولة.

لكن هل يملك الرجال حقاً ألاّ يكونوا أعداء أنفسهم؟ فالتوقّعات التي يقيّدونهم بها منذ نعومة أظفارهم لا تُحصى. بدايةً، ثمة تلك النزعة الرهيبة إلى تكييف الأشخاص حسب جندرهم (أزرق/ زهريّ، قويّ/ ضعيفة، فاعل/ منفعلة، صيّاد/ فريسة، صاحب إنجازات/ متلقية، إلخ). فضلاً عن ذلك، إنّ الضغوط التي تُمارَس على الذكور، كي يكونوا متطابقين مع مثال أعلى للرجولة، غالباً ما تكون هائلة: الصبيان لا يخافون. الصبيان لا يبكون. الصبيان لا يخسرون معركةً. الصبيان يخوضون الحروب. الصبيان ينتصبون على الطلب. الصبيان لا يضعفون أمام فتاة. الصبيان يثبتون "رجولتهم" دوماً. وما هي الصفة الأساسية الأولى للرجولة؟ أن تكون حسّاساً؟ بالطبع لا.

لكنّ الصبيان يشعرون بالخوف طبعاً، وهم حسّاسون بالتأكيد. هذا هو الواقع. ليس هذا فحسب، بل يحقّ لهم الشعور بالخوف، وهم بحاجة إلى اعتناق روحهم الحسّاسة ورفض نموذج سوبرمان الذي يساهم في تراجع إنتاجيتهم في الحياة. حينها فقط يمكن تسجيل تغيير حقيقي في ديناميكية العلاقات، وكسر الأفكار النمطية والقوالب المضمحلة.

ينبغي للإناث أن يبدأن بالتفكير في أنفسهنّ على نحوٍ مختلف، أي كنساء كفوءات ومؤثّرات عوض كونهنّ ضحايا لا أكثر. في المقابل، يجب أن يبدأ الفتيان بالتفكير في أنفسهم كبشرٍ يحملون مشاعر إنسانية: أي كأشخاصٍ حسّاسين، لطفاء، صادقين، لا كأبطال لا يُقهَرون.

لسوء الحظ، جميعنا يعرف المعاملة التي يلقاها الرجال الحسّاسون من النساء في عالمنا هذا. تجد الواحد منهم يحيط المرأة بكلّ احترام وتقدير، ليكون جزاؤه أن تهجره هذه الأخيرة من أجل رجلٍ ذكوريّ فارغ يسيء معاملتها ويحطّ من قدرها. لا بدّ من أنّ المرأة تعاني مشكلةً متأصّلة في نفسيّتها (كراهية الذات؟)، لكي يتمتع الذكور المنحطّون والعديمو الإحساس حتى يومنا هذا بمخزونٍ لا ينضب من النساء الحاضرات والممتثلات لمشيئتهم. لعلّ رندا (المراسلة المغرمة بسوبرمان والمتجاهلة لنبيل فوزي) ليست إلاّ نموذجاً لظاهرة أنثوية شائعة جداً. لذا، يجدر بالنساء أن يؤدّين دورهنّ في عملية التغيير هذه أيضاً. هذا كلّه يدفعني إلى التفكير في طريقة تعليمنا/ تدريبنا، نحن النساء، سواء عن وعي أم غير وعي منا (هل من فرق؟)، على الشعور

بالإعجاب/ الحبّ/ الشغف تجاه معذّبينا (من هنا بدأت متلازمة ستوكهولم الشهيرة). فأفكّر كيف كنت، على سبيل المثال، أشعر بانجذابٍ جنسيّ قويّ، يملأني حرجاً اليوم، تجاه الذكور العدوانيين الذين تسيّرهم كبرياؤهم وحبّهم للتنافس، هذا النوع نفسه الذي أقابله بالكره والاشمئزاز عندما أستخدم عقلي عوض شهوتي الجنسية: في الواقع، كنت أشعر بالانجذاب نحو جانبٍ من جوانب الغرور الذكوري (لا أخجل من الاعتراف بأنّي لا أزال أحبّذ لمسةً بسيطة من الغرور بين الفينة والأخرى، طالما أنّها لا تتجاوز حدود كبريائي وكرامتي). هنا، يحضرني أيضاً موضوع الميول المازوشية وقدرتها على تدمير علاقة ما (وحياةٍ بأكملها) إذا أصبحت جزءاً من نمط قاتل، عاطفياً وجسدياً، عوض كونها جزءاً من لعبة محض جنسية بين راشدَين يمارسانها بالتوافق والتراضي.

حول هذه النقطة بالذات، لا يسعني أن أشرح بسهولة سرّ شغفي المتّقد بالماركيز دو ساد. ماذا يمكن أن أقول أكثر من أنّه يحتلّ مكانةً كبيرةً في قلبي لأنّه أطلق يديَّ وخيالي ككاتبة، ولم يميّز مرّةً بين السلوك الطبيعي وغير الطبيعي في الحياة الجنسية: وهذا جزءٌ كبير من فلسفتي الخاصة في الحياة والكتابة. رغم ذلك، يرى الكثيرون أنّ حبي له ما هو إلاّ انحراف ونقيصة، لا سيّما أنّه يُعتبر الكاتب الكاره للنساء بامتياز. لكنّني فضّلتُ ألاّ أراه ككاره للنساء. بالنسبة إليَّ، لا يمكن اختصار مسيرته كلّها كشخص يَعتبر كره النساء شغله الشاغل وتعذيبهنّ على الورق متعته الخالصة. لقد كان مغامراً جسوراً في متاهات الذات الإنسانية، وكاتباً غاص في الأعماق أكثر من أيّ شخصٍ آخر حتى أيامنا هذه. زد على ذلك أنّ التخيّلات الإيروتيكية لا تخضع فيً رأيي (لا بل يجب ألاّ تخضع) لأحكام "المساواة". بالفعل، إذا نُقِل مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة إلى ميدان الجنس، فقد يتحوّل أحياناً إلى عبء أو كابح، من دون أن يكون، بالضرورة، وسيلةً من وسائل الاستثارة الجنسية. لهذا، تنسج العديد من النساء الناجحات وصاحبات النفوذ أخيلةً جنسية، ينسجن فيها مشاهد سادية ومازوشية، حيث يحلو لهنّ أن يؤدّين دور الخاضعة أو المستسلمة للرجل. هي رغبة إيروتيكية بأن يكنّ خاضعات لما يتعدّى إرادتهنّ ويتجاوز نطاق تفكيرهنّ. لا ريب في أنّ تعابير "غير مقبول" أو "تمييزي" أو "غير مسموح" لا مكان لها بين راشدَين متوافقَين في السرير، طالما أن لا أحد يعمّم هذه الممارسات على سلوكه، وطالما أنّ كلاً من الرجل والمرأة مدركٌ أنّ "ما يحدث في السرير، يبقى في السرير".

~

كانت المعايير المزدوجة المثيرة للاشمئزاز التي كنت أصادفها من حولي، أينما توجّهتُ تقريباً، تحديداً عند لقائي بأولئك الأشخاص الذين نصّبوا أنفسهم أبطالاً خارقين و/أو الجبناء الذين يعيشون حالةً من الإنكار الذاتي، تطفئ فيّ أيّ نوعٍ من الرغبات، الجسدية منها والعقلية، وهذا لم يساعد في تحسين الوضع بطبيعة الحال. لكنّ هذا الأمر لم يكن يزعجني. أقصد: هم لم يكونوا يزعجونني. فعندما لا ينسج المرء توقّعات كبيرة، يبعد عنه شبح خيبات الأمل. إنّها معادلة آمنة، أليس كذلك؟

لكن ما إن بلغتُ سنّ الأربعين (أوَليس من الأدقّ القول: ما إن "اصطدمتُ" بسنّ الأربعين؟) حتى رحتُ أفكّر: "إنّني صائمة منذ أربعين عاماً، فأين هو هذا الشيطان المزعوم الذي سيقوم بإغوائي؟". ما إن بلغتُ سنّ الأربعين حتى سئمتُ المعادلات الآمنة، وسئمتُ الاكتفاء بالرجل المناسب في الوقت المناسب، وبدأتُ أتوق إلى قفزةٍ خطيرة؛ بعبارة أخرى، بدأتُ أتوق إلى إيجاد الرجل المناسب. نقطة على السطر. هكذا قرّرتُ ألاّ أبدأ علاقاتي متسلّحةً بشحنة مسبقة من خيبة الأمل. قرّرتُ أنّ ما بين "الاستهتار" و"راحة البال" هاوية يجب أن أعبرها، وأنّني سأنزف كثيراً لكنّي لن أتأذى. وقرّرتُ أيضاً أنّني أفضّل، إلى حدٍّ كبير، أن أندم على الأشياء التي قمت بها، عوض تلك التي لم أقم بها. أخيراً، قرّرتُ: "بعد اليوم، لن أفعل فعلتي وأدبر هاربةً. بعد اليوم، سأفعل فعلتي وأمثل للمحاكمة، متحمّلةً ذنبي، عن سابق إصرار وترصّد".

ليس ثمة حاجة إلى رجالٍ كثر لإثبات أنّني على خطأ: رجلٌ واحد يكفي. في الوقت نفسه، سيتطلّب الأمر الكثير لإثبات أنّني على خطأ: سيتطلّب وجود الرجل المناسب. أعني به الرجل الذي سيخرّب، عن غير قصدٍ منه، عمليتي التخريبية المقصودة.

لكن أليس من المفترض أن نصحو من أوهامنا مع تقدّمنا في السنّ؟ هل أنا أكبر بطريقة عكسية؟ إما أنّني أفعل، وإما أنّ الإنسان يضعف لا محالة أمام القصص الخرافية. تماماً كالمصاب بانفصام في الشخصية في حالة اللبنانيين: فانفصام الشخصية يمسي جزءاً من المعادلة إذا كنتَ لبنانياً.

~

رغم الاستخفاف واللامبالاة اللذين تميّزتُ بهما في بداياتي، صرتُ الآن أفكّر في الأمور على هذا النحو: نحن مجرّد أنصاف لا أكثر. أنصاف في أفضل الأحوال. وفي بعض الأحيان، نكون مجرّد قطع وأجزاء من هنا وهناك. لكنّ السؤال الذي ينبغي طرحه ليس: "أين النصف الآخر؟"، السؤال هو: "هل من نصفٍ آخر؟" هل نؤمن بوجوده ونحاول إدراك كنهه، أم نشيح بوجهنا ونمضي قدماً؟ هل نأخذ احتياطاتنا أم نعضّ أصابعنا ندامةً؟ لا بدّ من وجود بديل ثالث. لا بدّ من ذلك.

لا تسيئوا فهمي: لم أتحوّل إلى إنسانة رومنطيقية حالمة. فما زلت أريد العثور على رجلٍ أرى فيه صورة "الماركيز دو ساد". لكنّني صرتُ أريد أن أقع في غرامه. وبما أنّني أعرفني جيّداً، حريّ بي أن أضيف: أريد أن أقع في غرامه لفترة تتجاوز الأسبوعين.

٤ ـ كارثةٌ اسمها الأديان السماوية

"محور الشرّ الحقيقي يتمثّل في المسيحية واليهودية والإسلام. الأديان المنظّمة هي المصدر الأساسي للكره في العالم: إنّها عنيفة، غير منطقية، غير متسامحة، متحالفة مع العنصرية والقبليّة والتعصّب، متورّطة في الجهل، معادية للحرية، مزدرية للنساء، وقاسية حيال الأطفال".

كريستوفر هيتشنز

القصيدة

صلاة

شكراً أيّها الله

على التسونامي في أندونيسيا

على إعصار كاترينا

وعلى الزلزال في اليابان.

شكراً على الحرب العالمية الأولى،

شكراً على الحرب العالمية الثانية،

وعلى الحلقات الجديدة من هذا المسلسل

التي سترسلها إلينا في عيد الميلاد المقبل.

شكراً أيّها الله

على الأطفال الذي يموتون من فرط الجوع في أفريقيا

على الأطفال الذين يموتون من فرط الحقد في فلسطين.

شكراً على ثورات البراكين واندلاع الزوابع وسقوط النيازك؛

على هيروشيما، تشيرنوبيل ومجزرة قانا؛

على أمراض السيدا والسرطان والباركنسون.

شكراً أيّها الله

على العمى، على حوادث السير،

على العنصريين والمغتصبين والمعتدين على الصغار.

شكراً على الكوليرا ووقوع الطائرات،

على الأيتام والأرامل والثكالى.

شكراً على الألغام والسيّارات المفخخة

وعلى ألعاب الدمار الشامل.

قبل أن أنسى:

شكراً على ثقب الأوزون

(لطالما اشتهيتُ سمرةً أشدّ دكنةً).

ثمّ شكراً يا الله على تنظيم "القاعدة"،

على البرقع وعلى الـ"بلاي بوي".

شكراً على اضهاد النساء، على جرائم الشرف،

وعلى الأميّة والظلم.

شكراً على انكسارات القلب، على الخيانات والخيبات،

على الوعود الكاذبة والأحلام المخطوفة.

شكراً على الكوابيس

وعلى الحيوات التي كثيراً ما تشبهها.

شكراً على الضيّقي العقول

والسخفاء، والقساة، والأنذال.

شكراً على الذين يطعنون في الظهر، على ضاربي الزوجات،

على وحوش "وول ستريت" والقتلة المتسلسلين.

شكراً على الصراصير والطغاة:

(كم يعزّي أنّهم قد يصمدون بعد انفجار نووي).

شكراً أيّها الله

على يوم القيامة، على الـ"ماكدونالدز".

شكراً على الزواج، وشكراً على الجحيم:

يا لهما من لفتتين لطيفتين!

ولكن في شكل خاص،

عزيزي الله،

شكراً على الله.

فمن بين الكوارث كلّها،

تحفتكَ الحقيقية

هي أنتَ.

المرافعة

لِمَ لا

"لا يمكنني أن أؤمن بربٍّ يطالب بالثناء طوال الوقت"

فريديريك نيتشه

لا أؤمن بالله لأنّني أفضّل أن يكبّلني عشيقي لا وهمٌ من الأوهام.

لا أؤمن بالله لأنّني أفضّل أن أتعثّر وأعرج في سيري عوض استخدام عكّازات.

لا أؤمن بالله لأنّني أحبّ أن أسنّ قوانيني بنفسي (من ثمّ أن أخرقها).

لا أؤمن بالله لأنّني لا أريد أخاً أكبر يرعاني.

لا أؤمن بالله لأنّني أريد أن أنجز أعمالاً خيرية حبّاً بالخير لا طمعاً في مكافأةٍ تأتيني ما بعد الموت.

لا أؤمن بالله لأنّني أريد أن أرتدع عن الشرّ بناءً على أخلاقي الإنسانية البحتة، لا خوفاً ممّن يهدّدني بأنّه سيشويني على نارٍ حامية.

لا أؤمن بالله لأنّني لست بارعةً في فنّ المناجاة الفردية والأحاديث من طرف واحد.

لا أؤمن بالله لأنّني أفضّل الاختراعات التي تحسّن نوعية الحياة.

لا أؤمن بالله لأنّني لا أريد أن أؤجّل الجنّة والنار، بل أفضّل أن أعيشهما على هذه الأرض حالاً وتوّاً.

لا أؤمن بالله لأنّه إنْ كان موجوداً فعلاً، فهو لا يستحقّ إيماني به، إذا كانت كلّ مصائب هذه الأرض تحدث وفقاً لمشيئته.

لا أؤمن بالله لأنّني امرأة، وقد فضّل أن يراني كضلعٍ لا ككلٍّ متكامل.

لا أؤمن بالله لأنّني تعلّمتُ أن أُثني على إيجابياتي وأحاسبني على

أخطائي بنفسي.

لا أؤمن بالله لأنّه، بالنسبة إلى ربٍّ "قادرٍ على كلّ شيء"، لم يحسن اختيار ممثّليه على الأرض.

لا أؤمن بالله لأنّني أعرف تماماً كيف ألخبط نفسي بنفسي.

لا أؤمن بالله لأنّني أؤيّد الحرية والاختيار على حساب التخويف والرشوة.

لا أؤمن بالله لأنّ كلّ طفلٍ يعاني على هذه الأرض يزيدني اقتناعاً بأنّ الإيمان به صعبٌ فعلاً.

لا أؤمن بالله لأنّه بحاجة إلى أشخاص يعبدونه ويخشونه، مما يثبت أنّه يعاني نقصاً هائلاً من الثقة بالنفس.

لا أؤمن بالله لأنّني أنا إلهتي.

وأفضّل، بأشواط، أن أؤمن بنفسي.

السرد

لا تشتهِ امرأة قريبك ولا حماره

"حسناً إذاً، سأذهب إلى الجحيم".

مارك توين

بين أمٍّ دأبتْ على اقتيادي إلى القدّاس صباح كلّ أحدٍ، ومجموعة من الراهبات كنّ يجرجرننا، نحن التلميذات، إلى القدّاس عصر كلّ أربعاء، كنت أشعر كأنّني سجينة حالةٍ خانقة من "النعيم المقدس". حفظتُ الشعائر الكنسية الكاثوليكية عن ظهر قلب (وما زلت أتذكّرها)، لكنّ العفريتة الصغيرة التي كنتُها حينذاك كانت بحاجة إلى الكثير بعد كي تصبح مؤمنة متفانية.

كنت أستغلّ فترة القدّاس في المدرسة كي أراجع دروسي أو أطالع كتبي المفضّلة. كلّما وسعني إلى ذلك سبيلاً، كنت أختار زاوية منعزلة من الكنيسة، يُقصد بها مساعدتي على التأمّل الروحي وتلاوة فعل الندامة (الذي كنت بحاجة ماسّة إليه). وكنت أخبّئ روايةً ممتعة داخل كتاب الصلوات الضخم الذي كانت الراهبات يوزّعنه علينا جميعاً لمتابعة القدّاس، فأروح أتمتم العبارات المقدّسة على غرار إنسان آليّ، بينما أتقصّد القراءة في سرّي (في المناسبة، إنّ القيام بمهام متعددة في وقتٍ واحد هو فنّ أنثويّ بامتياز). ثم، عندما أصبحتُ في الثالثة عشرة من عمري، كنت أجد لذّةً ما بعدها لذّة في قراءة الروايات الخليعة حصراً خلال القدّاس (انتهاك القوانين وتجاوز الحدود هو، من جهة أخرى، متعة كاثوليكية بامتياز). في الواقع، كنت، كلّما وجدتُ كتاباً "سيّئاً" في مكتبة والدي، استخرجتُه من مكانه لإدراجه ضمن قراءاتي في الكنيسة. كم كان انتقامي هذا لذيذاً!

إلى جانب ذلك، كنت أجد متعةً بالغة في نسج خطايا وهمية أتلوها خلال فعل الاعتراف. وقد شكّل هذا الأمر تمريناً ممتازاً لتشغيل مخيّلتي وتوسيع آفاقها. لكنّي أفترض أنّ الكاهن المسكين لم يجد متعةً في الإصغاء إلى هذياني الأسبوعي. في أحد الأيّام، بعدما كنت قد فرغتُ لتوّي من قراءة رواية إيمانويل لصاحبتها إيمانويل أرسان، ذهبتُ إليه وأخبرتُه أنّني قبّلتُ إحدى زميلاتي على شفتيها (مع

الأسف كانت هذه كذبة لا أكثر). كنت أشعر بأنفاسه تتسارع بينما أقصّ عليه تفاصيل مخترَعة تفسّر كيف أغوى الشيطانُ الفتاةَ العفيفة التي كنتُها في الرابعة عشرة من العمر. في مناسبة أخرى، اعترفتُ له بأنّ بعض الأسئلة "الشريرة" كانت تساورني. ولما سألني عنها، أجبته: "هل تمارس الراهبات العادة السريّة؟ فإنْ كنّ يفعلن، هل يعتبر ذلك إثماً وانتهاكاً لـ"نذر العفّة"؟". رغم الستار الذي كان يفصل بيننا، لمحتُه وقد كاد يقفز من على كرسيّه من فرط الصدمة. لا أذكر ماذا قال لي بالتحديد أو عدد الصلوات التي كان عليَّ تلاوتها كي يغفر لي الربّ خطيئتي، ولكن بالكاد كنت أتمالك نفسي من الضحك.

بارِكْني يا أبتاه، فلم أخطئ بما يكفي... بعد.

~

بعدما "اعترفتُ" بما سبق، اِسمحوا لي الآن بأن أنعش ذاكرتكم بما يأتي:

١. "مبارك أنت يا ربّ لأنّك لم تجعلني وثنياً ولا امرأة ولا جاهلاً". السيدور (كتاب صلاة يهودي).

٢. "لأنّ الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل. ولأنّ الرجل لم يُخلَق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل". العهد الجديد (رسالة كورنثوس الأولى، الإصحاح الحادي عشر، ٨–٩).

٣. {يوصيكم الله في أولادكم للذّكر مثل حظّ الأنْثيين}. (القرآن، سورة النساء، ٤:١١).

هذه مقاطع من كتب ذائعة الصيت، يعرفها معظمكم على ما أفترض. هي كتبٌ تروّج للأديان السماوية الثلاثة، وتتنافس، كما رأينا للتوّ، على فرض المعايير البطريركية، من إذلالٍ للنساء إلى تصنيفهنّ ضمن ممتلكات الرجل واعتبارهنّ أقل قيمةً واستحقاقاً للحقوق.

قد يردّ عليَّ البعض بالقول: "ما هذه إلاّ مقتطفات. من غير الدقيق علمياً استنباط العموميات من التفاصيل". وهو اعتراضٌ أردّ عليه بدوري: "أنتم محقّون. لكن حتى القراءة الدقيقة لهذه الكتب وغيرها من التعاليم تكشف، في أفضل الأحوال، عن نوعٍ من التساهل والتسامح الفوقيين تجاه النساء (ما يحبّ المؤمنون تسميته

”احتراماً“)؛ وهما تساهل وتسامح ينبثقان من إيمان راسخ ومهين بتفوق الرجال، وهو إيمان لا يقلّ ضرراً وظلماً عن التمييز المباشر ضدّ المرأة“.

من الأشخاص أيضاً من سيعترض قائلاً: ”هذه الكتب جميعها قديمةٌ جداً وهي تعكس ظروفاً اجتماعية مختلفة كان فيها هذا النوع من الخطاب مبرّراً نوعاً ما“. في هذا الشأن، أردّ: ”فليكن. لنفترض أنّني، في معرض كوني محامية الشيطان، أُقرّ بشرعية هذا الاعتراض وبقدرتي على تقبّل هذا العيب. ولكن، إذا كانت هذه هي الحال فعلاً، فلماذا إذاً لا تزال هذه الكتب – حتى قرننا الحادي والعشرين – نصوصاً جوهرية تفرض على العديد من الأشخاص نمط سلوكهم، وأفكارهم، ومبادئهم، وحياتهم؟ لِـمَ تعتبر هذه النصوص عصيّة على التغيير؟ ما هي الإصلاحات الداخلية التي أدّت حقاً إلى إحداث أيّ نوعٍ من التحسين في موقع المرأة من وجهة نظر الأديان السماويةً المنظّمة، وساهمت في استعادة كرامتها ومساواتها مع الرجال، لا بالقول فقط بل أيضاً – وخاصّةً – بالفعل؟“.

هل يبدو كلامي مبهماً؟ دعوني إذاً أضرب نفسي مثالاً فأطرح عليكم السؤال الآتي: إنّني امرأة لبنانية، ولكن هل أنا مواطنةٌ لبنانية؟ كلاّ، طالما أنّ الدين الذي أسند إليّ منذ ولادتي (تذكّروا أنّ غالبيتنا يرثون أديانهم ولا يختارونها) هو الذي يضبط وضعي، وشؤوني، وموقعي، وحياتي، من المهد إلى اللحد. كلاّ، طالما أنّني مدرجة في السجلّ الرسمي ككاثوليكية، وأنّ زواجي الأول كان كاثوليكياً، وأنّي أمّ لولدين، صفتهما الأولى أنّهما كاثوليكيان. كلاّ، طالما أنّ النساء اللبنانيات محرومات من حقّ منح جنسيتهنّ إلى أولادهنّ وأزواجهنّ. كلاّ، طالما أنّ مشهدنا السياسي العظيم يكاد يفتقر إلى النساء. كلاّ، طالما أنّ القادة السياسيين/ الدينيين اللبنانيين يرفضون سنّ قوانين تستهدف الرجال الذين يضربون نساءهنّ. كلاّ، طالما أنّ هؤلاء القادة السياسيين/ الدينيين أنفسهم يرفضون تجريم الاغتصاب الزوجي زاعمين أنّ ”أمراً كهذا غير موجود“ (مما يعني أنّ الرجل يملك الحقّ المطلق في التصرّف بجسد زوجته كيفما رأى ذلك مناسباً، ومتى).

في اختصار، نحن اللبنانيين لسنا ”مواطنين“ بل قطعان طائفية، طالما أنّنا نسمح لأنفسنا، حتى يومنا هذا، بأن نطرح على الآخرين السؤال الآتي: ”من أيّ دينٍ أنت؟“؛ طالما أنّنا نستمرّ في نشر التعصب، واحتقار ”الآخر“ (هنا أتساءل: من هو هذا الآخر؟)، والتمرّس على

الشوفينية والتمييز والعنصرية؛ طالما أنّنا مجرّد مجموعة من الطوائف، لا أمّة واحدة؛ طالما أنّ الحياة السياسية في هذه الدولة لا تزال تخضع لانتماءات قادتها الدينية؛ طالما أنّنا نطبّق قانوناً من العصر الحجري يجيز سجن المثليين جنسياً لا لشيء إلاّ بسبب خيارهم الجنسي هذا، كونه خياراً مرفوضاً من الدين؛ طالما أنّ هذه الواحة من المعارضة والحرية التي كانها لبنان في الخمسينات والستينات قد صارت واحةً للاستبداديين؛ وطالما أنّ الأشخاص مضطرون للسفر إلى قبرص لعقد زواج مدني، وهو زواج تعترف به دولتنا (وتروّج له وكالات السفر عبر الملصقات الإعلانية)، لكنّه لا يزال غير مطبّق هنا: وهذا أحد التجليات العديدة للازدواجية المقرفة التي نعانيها، تلك التي يمكن أن أستخلص منها ما لا يُعدّ ولا يُحصى من الأمثلة.

عارٌ على دولة تدّعي أنّها "جمهورية ديموقراطية" أن تفتقر إلى مجتمع مدنيّ علمانيّ متحرّر من أحكام الشخصيات والقوانين الدينية. رجاءً، لا تردّدوا على مسامعي هنا كم يمثّل لبنان استثناءً يفيض "حداثةً وتنويراً" في المنطقة: فالأشخاص الذين يفعلون ذلك يميلون، نوعاً ما، إلى مقارنته بدول أكثر تشدداً وظلامية مثل المملكة العربية السعودية. لكن أليست المقارنة مع الأسوأ شكلاً من أشكال الجبن وإنكار الواقع؟ أليس الأشرف والأجدى أن نقارن أنفسنا بـ"الأفضل" ونحاول تالياً تحسين الواقع عوضاً عن الرضى بوهم أنّنا "بألف خير"؟

لا تخبروني كذلك عن "التوازن الدقيق" الذي ينبغي مراعاته في بلدٍ متعدّد الطوائف مثل لبنان. فما هذا إلاّ تبرير يسوّغ المزيد من الإقطاعية والانقسام. ما هذا إلاّ وسيلة تجيز للديانات احتكار حياتنا، وتشريع السلطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجائرة التي تمارسها علينا.

في هذا الإطار، يكتب الأكاديمي الأميركي جاك نلسون- بالماير، عن حقّ: "ستستمرّ اليهودية والمسيحية والإسلام في تدمير العالم حتى يقدم كلٌّ منا على رفض العنف الذي تتضمّنه الكتب المقدّسة، ويؤكّد كلّ فرد فينا قوّة الله السلمية". بطبيعة الحال، لم تبتدع الأديان السماوية مفهوم النظام البطريركي: فهو موجودٌ منذ عهود التاريخ السحيقة. لكنّ الأديان أرسته وفق أسسٍ مؤسساتية، وعزّزته، عوضاً عن محاولة التخلّص منه. يكفيني هذا السبب، كامرأة، لكي أرفضها وأحاربها. لأنّه إذا كان الله بهذه "الرحمة" و"الرأفة" وهذا "العطف" و"العدل"، كما يدّعون (لا تجعلوني أستفيض في الحديث عن الطبيعة

الذكورية لألوهته)، ألم يكن حريّاً به إذاً النظر إلى جنس البشر بطريقة متساوية؟

بسبب ما سبق، لا يسعني، عندما أسمع بعض الناشطات النسويات يتحدّثنَ عن "النسوية الإسلامية" اليوم، إلاّ أن أشعر بكمٍّ هائل من اليأس: مفهوم "النسوية الإسلامية"، مثله مثل النسوية المسيحية أو اليهودية، يحتوي على تناقض ضمني يقوّض مفعوله أو هدفه الرئيسي. فمتى نقلع عن المساومة وعن محاولة تحقيق تغيير حقيقيّ من قلب "الثمرة العفنة"؟ متى نقرّ بأن لا سبيل لتحقيق الانسجام بين التعاليم السماوية (كما هي سائدة حتى يومنا هذا) من جهة، وكرامة المرأة وحقوقها من جهة أخرى؟

~

ليست الأديان السماوية متحيّزة ضد المرأة فحسب، بل هي أيضاً وخصوصاً متحيّزة ضد الكرامة الانسانية، إذ تحوّل البشر إلى روبوتات مجرّدة من المشاعر. إليكم أحد الأمثلة الكثيرة على ذلك: لطالما كنتُ مقتنعة بأن لا شيء أفظع على هذه الأرض من أن تفقد أمٌّ ولدها. لكنّي اكتشفتُ أنّ ثمة ما هو أفظع. أي أن تدعو أمّ لابنها بالموت، لا بل أن تتمنّى له أن يكون قد مات "عطشاناً"، مثلما سمعتُ يوماً والدة أحد قتلى "حزب الله" في سوريا تصرخ في فيلم تمّ تناقله على الفايسبوك. بربّكم، هل ثمة أكثر ترويعاً من كلمات كهذه وأمّ كتلك؟ لا. ليس عندي في الأقل. ولا حرج عندي على الإطلاق في أن أقول إنّ مشهد هذه الأمّ لم يثر فيَّ سوى مشاعر الغثيان والغضب. أجل الغضب. غضب أمّ تعرف أن ليس أغلى على قلبها وروحها من أولادها. ترونها أنانية؟ لا بأس. سأظلّ أقول تبّاً لأيّ دين ولأيّ قضية ولأيّ إيديولوجيا ليس لها أن تنتصر إلاّ على حساب حياة أولادي. أولادي هم قضيتي الأولى. وهذا واجبهم عليَّ في الحد الأدنى.

يقول بعض علماء النفس إنّ المغتصَب عندما يكبر سيصير مغتصِباً. ويقول المؤرخون إنّ التاريخ يعيد نفسه. ويقول البوذيون إنّ الحياة تمشي في دوائر لا في خطّ مستقيم. كلّ شيء يدلّ، إذاً، على أن لا مفرّ من أن يحصل اليوم ما هو حاصل. وفق المنطق نفسه، كل شيء يدلّ كذلك على أن ضحايا اليوم سيكونون مضطهِدي الغد. وهكذا دواليك من ضاربٍ إلى مضروبٍ فضاربٍ إلى ما لا نهاية. ألم يحن الوقت لكي نكسر هذه الحلقة اللعينة؟

أقول "ضحايا" متحدثةً عن القتلى الجانبيين لهذه الحروب الدينية، لكنّهم بالنسبة إلى المقاتلين والجنرالات والأسياد والشيوخ "أضرار جانبية". اسمحوا لي بأن أسمّيهم "شهداء قسريين". شهداء نعم، لا بل الشهداء الوحيدون لأنّهم لم يطلبوا هذا العنف، ولا هذا الدم، ولا هذا الموت. ترى، لو كان يحقّ للضحية أن تقرّر مصيرها سلفاً، أن تختار بين أن تكون ضحية أو أن لا تكون (في أمان الضمير لا تحت إرهاب المذياع والبروجكتور وغيرهما)، ماذا كانت لتختار؟ ترى لو خُيِّرت الأمّ بين أن تفقد أولادها (الاحتمال وحش في ذاته)، أو أن تظلّ تنوّمهم على زند حنانها المُطَمْئِن، ماذا كانت لتختار؟ حتّام سيظلّ إبراهيم يقدّم ابنه إسحق ذبيحةً للّه؟

ثمة هنا حاجة لتوضيح مهمّ: يعمد الكثيرون إلى الربط بين استخدام العنف من جهة والإسلام دون غيره من جهةٍ أخرى، وهنا يكمن التحريف في التاريخ والواقع. لقد سمع الناس أجمعون في عالمنا اليوم، على الأرجح، بـ"القاعدة" و"حزب اللّه"، لكن كم منهم سمع بالميليشيا المسيحية التي تطلق على نفسها اسم "هوتاري"، وهي مجموعة مسلّحة ناشطة في أعمال عنف متعدّدة، يصف أعضاؤها أنفسهم بأنّهم "جنود مسيحيون يستعدون لمجيء المسيح والمحاربة في صفّه"؟ كم من الناس سمع بمجموعة "جيش اللّه"، وهي منظّمة مسيحية إرهابية مناهضة للإجهاض تجيز اللجوء إلى العنف لمكافحة الإجهاض في الولايات المتّحدة، ويرتبط اسمها بعدد كبير من الاغتيالات التي استهدفت مسهّلي عمليات الإجهاض؟ كم منهم سمع بالمجموعات الإرهابية اليهودية، على غرار "غوش إيمينوم أندرغراوند" و"بريت هاكانايم"؟

نسجاً على المنوال نفسه، كثيرون سمعوا بأسامة بن لادن السعودي وأيمن الظواهري المصري، لكن كم من الأشخاص سمع بالأوغندي جوزيف كوني، قائد "جيش الربّ المتمرّد"، وهي مجموعةٌ تشنّ حملةً عنيفة من أجل تأليف حكومة دينية تستند في حكمها إلى الوصايا العشر؟ كم من الأشخاص يعرفون الممارسات الوحشية المتطرّفة التي أقدم عليها "جيش الربّ" هذا في حقّ المدنيّين: من قتل وتشويه واغتصاب، لا بل في بعض الأحيان من أكل للحوم البشر، ناهيك بأعمال خطف وإرغام نحو ٦٦ ألف طفل على الانخراط في صفوف المقاتلين، ذلك كلّه باسم المسيحية؟ كم من الأشخاص سمعوا بجون إيرل، القسّ الكاثوليكي الذي اقتحم، بسيّارته، عيادةً للإجهاض، ورفع فأسه للانقضاض على الحاضرين قبل أن يعاجله أحد حرّاس الأمن

برصاصة؟ كم من الأشخاص سمع باليهود المتطرّفين الذين ارتكبوا أعمالاً إرهابية باسم ديانتهم، على غرار باروش غولدستاين ويعقوب تيتيل؟

غالباً ما يميّز الغرب الإسلام بصفته الحامل الوحيد لتاريخ أسود في مجال حقوق المرأة، لكنّه غالباً ما ينسى – كما نفعل نحن أيضاً – أنّ اليهودية تعتبر "أنّ حرق التلمود أفضل بألف مرّة من تسليم على امرأة"، وأنّ الوصية العاشرة في العهد القديم تقول: "لا تشتهِ إمرأةَ قريبكَ ولا عبده، ولا أمته، ولا ثورَه، ولا حمارَه ولا شيئاً ممّا لقريبك".

ينسى الغرب أيضاً، تماماً كما نفعل نحن، أنّ رسائل القدّيس بولس تحظّر على النساء إلقاء الخطب في الساحات العامة وتسجيل مداخلات في الاجتماعات، وأنّ يسوع المسيح لم يختر امرأةً واحدة كي تكون بين رسله الاثني عشر. في الواقع، يشير العهد الجديد إلى نوعَين من النساء بشكلٍ أساسي: الفاجرة/ الآثمة والعذراء/ الطاهرة. في كلتا الحالتين، تطالعنا الطريقة الذكورية نفسها في تقسيم العالم إلى أسود وأبيض، وخير وشرّ، إلخ.

ليس هذا فحسب، فالكنيسة الكاثوليكية لا تزال، حتى يومنا هذا، تدين وسائل منع الحمل. لا يهمّ إن كانت ٩٨% من النساء الكاثوليكيات في الدول المتطوّرة يستخدمنَ حبوب منع الحمل، بل ما يهمّ هو أن نعيش في حالة من إنكار الواقع. ترانا بحاجة إلى الادعاء، دائماً وأبداً، أنّ كلّ مرّة يلج فيها رجلٌ امرأةً، يكون الروح القدس حائماً من فوقهما (ما يجعل الله متلصّصاً)، وأنّ الجنس ممارسة "مقدّسة" ابتُكرت لغاية واحدة فقط هي التناسل. أيّها الكاثوليك، تمتّعوا بمصنع الإحباطات الذي يُدعى الفاتيكان.

أيضاً وأيضاً، لا تزال الكنيسة الكاثولكية، حتى يومنا هذا[2]، متمسّكةً بذكوريتها: حذار أن تطرق امرأةٌ باب هذه المؤسسة وتتولى فيها موقعاً ذا سلطة وتأثير فعليين. ربما يكون السبب أنّ تاج الأسقف المذهّب ثقيل على رؤوس النساء.

[2] من الضروري التوضيح هنا أنّ هذه الكلمات كُتِبت قبل تسلم البابا فرنسيس أسقفية روما (الفاتيكان)، وأنّ الأخير أظهر غير مرة استعداداً لإعادة النظر في عدد كبير من المسائل الشائكة على غرار موقع المرأة في الكنيسة والاجهاض والتمييز على المثليين. يبقى أن نرى ما

إذا كانت وعوده سوف تتحول الى إجراءات وتطبيقات في السنوات المقبلة، أم سوف تبقى في مجال التنظير البحت.

في هذا الموضوع، لفت انتباهي أنّ نحو خمسين قسّاً من إنكلترا قرّروا، في أوائل العام ٢٠١١، التحوّل من الأنغليكانية إلى الكاثوليكية، بعدما أعلنت كنيستهم نيّتها فتح الباب أمام ترسيم الكاهنات. فأثار الموضوع بلبلةً وموجةً من الجدال والنقد ضمن كلتي الكنيستين. ما همّني شخصياً من المسألة هو التبعات التمييزية الجليّة التي أظهرها: إذ لم يتوانَ يومذاك الناطق باسم الفاتيكان، فيديريكو لومباردي، عن القول إنّ الفاتيكان يعتبر محاولات ترسيم الكاهنات "جريمة خطيرة"، شأنها شأن التحرّش بالأطفال. فكيف عسى امرأة ذات كرامة أن تقرأ كلمات مماثلة ولا تستشيط غضباً؟

ثم ماذا عن الأسقف الإيطالي أردوينو برتولدو الذي زعم أنّ النساء اللواتي يتعرّضنَ للاغتصاب إنّما يتحمّلنَ مسؤولية ذلك أنفسهنّ، لأنّهن "أغوين المعتدين عليهنّ"؟ أفترض أنّ الخبر الذي سيزفّونه إلينا تالياً هو ضرورة ارتداء النساء الكاثوليكيات للبرقع، لحماية الرجال من جاذبيتهنّ. كلّ هذا بينما فضائح التحرّش بالأطفال في الكنيسة الكاثوليكية لا تنفكّ تتكاثر!

هل اليهودية أفضل؟ بالطبع لا. لكنّني لن أسمح لنفسي بالتعمّق في هذه القضيّة من مختلف جوانبها، بما أنّها لم تشكّل عنصراً أساسياً ومباشراً من تربيتي، كما كانت الحال مع الكاثوليكية والإسلام. لكنّي أعلم علم اليقين أنّ اليهود الأرثوذكس المتطرّفين لا يزالون يميّزون ضدّ النساء في دولة تزعم أنّها "الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط". أولاً، إنّ مفهوم الديموقراطية في الشرق الأوسط غير موجود على الإطلاق. ثانياً، إنّ الفظائع المتواصلة التي ترتكبها إسرائيل في حقّ الفلسطينيين كفيلة، وحدها، أن تنتزع منها كلّ ادّعاء بالديموقراطية.

لن أغوص في المزيد من الأمثلة والتساؤلات، فلن تتّسع لها هذه الصفحات، وما هذا بالغرض من كتابي على كلّ حال. لكن، كي أكون أكثر صراحةً ودقةً، حتى وإن كان كلامي التالي يجازف بأن يكون تبسيطاً، أعلن: طالما أنّه ممنوع على المرأة أن تكون رئيسة الكنيسة الكاثوليكية، سأستمرّ في فضح مدى كراهية الكنيسة الكاثوليكية للنساء. وطالما أنّ الرجال المسلمين لا يرتدون البرقع، سأستمرّ في

انتقاد الإسلام وشجبه كأداة للقمع والتمييز في حقّ المرأة وقيد صارم ومهين يكبّل كينونتها.

~

ترى كيف عسانا نتوصّل إلى حلّ هذه المعضلة في بلدان معقّدة كالبلدان العربية، حيث لا فصل بين الدين والدولة في معظم الحالات؟ لا أزعم أنّني أملك الجواب. فكلماتي هذه لا ترمي إلاّ إلى فضح الظروف المعاكسة التي نعيش فيها. لكنّه سؤال يجب أن نطرحه جميعاً على أنفسنا، كي نحاول التوصّل إلى جواب من خلال جهد فكري جماعي واجتهادات اجتماعية وقانونية وسياسية ودينية.

دعونا نبدأ بالتوق إلى المجتمعات المدنية الحرّة والعلمانية التي نستحقّ أن نعيش فيها، ونعمل من أجل إرسائها، بعيداً من غسل الدماغ الذي تُخضعنا له الأديان السماوية. آنذاك، وآنذاك فقط، يمكننا أن نبدأ بالحديث عن تغيير إيجابي حقيقي في العالم العربي.

ليس دقيقة واحدة قبل ذلك.

٥ ـ كارثةٌ اسمها الخطيئة الأصلية

"دلّوني على امرأة لا تشعر بالذنب أدلّكم على رجل".

إريكا يونغ

القصيدة

عودٌ على بدء

سئمتُ كوني فتاةً مهذّبة:

كن تفّاحتي المحرّمة

دعني أغرس أسناني في فخذكَ

ولتسل دماؤكَ على طول ذقني

كي أُنفى

مرّةً أخرى

من الجنّة.

سئمتُ كوني فتاةً داعرة:

خذ وركيَّ الممتلئتين

خذ شفتيَّ الرطبتين

وردّ لي لحظة البراءة الأخيرة

قبل وقوع الخطيئة الأصلية

كي نعيد ارتكاب الإثم

منذ البداية

كما لو كانت المرّة الأولى.

المرافعة

أسئلة لا بدّ منها

”لا أحتاج إلى غرفة نوم لكي أثبت أنوثتي. يمكنني أن أعكس القدر نفسه من الجاذبية الجنسية وأنا أقطف تفّاحة من شجرة أو أقف تحت المطر“.

أودري هيبورن

متى نكفّ عن تصنيف المرأة التي تتحرّش بالرجل بأنّها فاجرة، بينما الرجل الذي يتحرّش بامرأة هو، بكلّ بساطة، ”جريء واثق من نفسه“؟

متى نكفّ عن تسمية المرأة التي تحبّ ممارسة الجنس بأنّها مهووسة، بينما نعرّف الرجل الذي يحبّ ذلك، بكلّ بساطة، بـ”الرجولي“؟

متى نكفّ عن اعتبار المرأة التي تخون رجلها فاسقةً، بينما نعزو خيانة الرجل للمرأة، بكلّ بساطة، إلى ”جيناته التي تحفّز على تعدّد العلاقات“؟

متى نتوّقف عن الحكم على المرأة التي ترتدي الملابس المثيرة بأنّها مستفزّة (لكأنّها تدعو الرجل إلى التحرّش بها أو حتى اغتصابها)، بينما نسمّي الرجل الذي يفعل ذلك، بكلّ بساطة، ”أنيقاً“؟

متى نتوقّف عن اعتبار المرأة الخمسينية التي تواعد رجلاً في الخامسة والعشرين مثيرةً للشفقة، بينما الرجل الخمسيني الذي يواعد امرأةً في الخامسة والعشرين هو، بكلّ بساطة، ”في عزّ شبابه“ وشيبته ”هيبة“؟

متى نكفّ عن اتّهام المرأة الناجحة بأنّها تضاجع الرجال لشقّ طريقها قدماً، بينما الرجل الناجح هو، بكلّ بساطة، ”ذكيّ“ و”شاطر“؟

متى نكفّ عن تصوير المرأة الأربعينية العازبة عانساً مكروبة، بينما الرجل الأربعيني العازب هو، بكلّ بساطة، ”الفارس المنشود“؟

متى نكفّ عن تقييم المرأة التي تطارد رجلاً بأنّها مجنونة، بينما نعتبر أنّ الرجل الذي يطارد امرأة هو، بكلّ بساطة، "ضعيف الإرادة"؟

متى نكفّ عن تسمية المرأة التي تستمتع بمشاهدة الأفلام الإباحية بأنّها غريبة الأطوار، بينما الرجل الذي يستمتع بمشاهدة الأفلام الإباحية هو، بكلّ بساطة، "طبيعي"؟

متى نكفّ عن وصف المرأة التي تتأمّل مؤخّرات الرجال بأنّها منحرفة، بينما الرجل الذي يتفحّص مؤخرات النساء هو، بكلّ بساطة، "مقدّر للجمال"؟

أخيراً، السؤال الأهمّ:

متى لا يعود طرح أسئلة مماثلة مبرّراً؟

السرد

بين المليح والقبيح

”– هل الجنس قذِرٌ؟

– فقط إذا مورِس كما ينبغي“.

وودي ألن

كان جارنا استعرائياً، يحبّ الكشف عن عورته أمام الآخرين. كان متقدّماً في السن، متغضّن الوجه ومثيراً للاشمئزاز. وكان، كلّما صادفني على السلالم، عائدةً من المدرسة، فتح رداءه في وجهي (كان يلبس رداءً دائماً لسببٍ لم أعرفه قط) ويريني قضيبه المتجعّد. أذكر أنّه كان يردّد على مسامعي، قبل أن أدبر هاربةً لأختفي داخل بيتنا: ”هيّا، المسيه. تعرفين أنّك تريدين ذلك“. كان هذا أوّل قضيب أراه في حياتي. وعليَّ أن أُقرّ بأنّه لم يكن أفضل مقدّمة للتعرّف إلى التركيبة الجسدية للرجل، ولا الصورة الأكثر جاذبيةً بالنسبة إلى طفلة. عضوه كان بشعاً، والوضع في ذاته كان قذِراً. من يدري، لعلّ هذا ما دفعني، عندما أصبحتُ ناشطةً جنسياً، إلى إغماض عينيَّ بإحكام كلّما جمعني سريرٌ برجلٍ عارٍ. كنت أريد أن أتجنّب هذا المشهد بأيّ ثمن، أن أتذوّق المشاعر الناجمة عنه، ولكن من دون أن أراه بأمّ عينيّ. لعلّها كانت غريزة بقاء بكلّ بساطة، أو لعلّي كنت أقنع نفسي: ”تجنّبي خيبات الأمل ومشاعر الاشمئزاز يا امرأة“. لم أكن حتى أستطيع أن أحمل نفسي على لمسه بيدي. كانت الفكرة في ذاتها تُشعرني بالتقزّز. وقد لزمني وقتٌ طويل، وحفنة كبيرة من الشجاعة، كي أنظر ”الثور“، ذات يوم، عيناً بعين. وعندما فعلتُ أخيراً، اكتشفتُ أنّه لم يكن شنيعاً كما كنت أتخيّل، بل على العكس تماماً.

ذات ليلة، رأيتُ والديَّ مصادفةً وهما يمارسان الحبّ. لا شكّ في أنّ العديد من الأطفال قد مرّوا بالتجربة نفسها، وهو أمرٌ مربكٌ للغاية كأقلّ ما يقال. أذكر أنّني رأيتُ والدي ممدّداً على ظهره، بينما والدتي متّخذةً الوضعية العليا، تغطّيهما (لحسن الحظ) ملاءات السرير. كانت مجرّد لمحة خاطفة، أذكر أنّني هرعتُ بعدها عائدةً إلى غرفتي وقد تملّكني الإحراج والارتباك، لكأنّني رأيت ما لم يكن تجدر بي رؤيته. ”ضبطتهما

بالجرم المشهود". لم أفهم تماماً معنى ما كنت قد رأيته، لكنه في مطلق الأحوال لم يعجبني. شعرتُ يومذاك بالانزعاج. وصرت أقدّر، لا بل أتوق حتى إلى شجاراتهما، تلك التي كانت تسبّب لي كلّ المعاناة في ما سبق. في رأسي، كان شجارهما مساءً يعني أنهما لن يمارسا "ذاك الأمر" في وقت لاحق. كانت الفكرة تمرّ في رأسي فأتنفّس الصعداء!

ما كان السرّ في ردّ فعلي هذا؟ أهي البيئة المحافظة التي تربّيتُ فيها؟ أهي كلّ تلك الموانع التي كنت مضطرة لمواجهتها كطفلةٍ تنمو في مجتمع متزمت؟ هل لأنّ والديَّ لم يكونا صريحين معي حول أيّ شيء؟ هل لأنهما كانا يمنعانني من مشاهدة أيّ برنامج تلفزيوني من المرجّح أن يتبادل فيه شخصان القبل؟ لستُ أدري. لكنّ "الجنس الآخر" ظلّ مرتبطاً لمدة طويلة في نظري – ومخيّلتي – بفكرة "الانحلال الأخلاقي" (الخطيئة الأصلية الشهيرة)؛ وقد ترافقت مع هذا الرابط فكرةٌ ما برحتُ أعذّب نفسي بها، أوهمتني بأنّ المعاناة هي الثمن المفروض عليَّ "دفعه" لقاء أيّ شعور بالانجذاب تجاه رجل.

~

بالفعل، هذه هي التعاليم التي يمطروننا بها ويلقّنوننا إياها منذ نعومة أظفارنا: "الجنس خطيئة. الجنس سيّئ. الجنس شرّ من الشرور". وقد يضيف البعض أيضاً: "الجنس شيء قبيح". تلك هي التربية التي لا تزال الأغلبية الساحقة في العالم العربي تخضع لها اليوم، في قرننا الحادي والعشرين المزعوم هذا. وأنا أعلم، عندما أقول "الأغلبية الساحقة"، أنّني لا أطلق التعميمات جزافاً.

ليس الجنس خطيئة فحسب، بل إنّه "الخطيئة الأصلية"، وتالياً هو الخطيئة العظمى التي يمكن الإنسان ارتكابها، على الأقلّ إذا صدّقنا الكتب التي تروّج لها الأديان السماوية الثلاثة. ومن هو المسؤول الأساسي عن هذا الانحلال المروّع؟ المرأة بكلّ تأكيد. تلك الفاجرة التي "قطفت التفاحة".

أراهم وأراهنّ من حولي أنّى ذهبت. نساء ولكن أيضاً رجال. بالغون ولكن أيضاً شبّان وشابات. الخوف يسكنهم. الخوف من بعبع اسمه الجنس. ما إن يأتي ذكره حتى ترتبك النساء ويشعر الرجال بالحرج ("عيب"). ما إن يأتي ذكره حتى يتهامس المسنّون، وينتقل الشباب

إلى الفرنسية أو الإنكليزية (”أسهل“). ثمة من يرفض التطرق إلى الموضوع، وثمة من يتطرق إليه مازحاً، أو متعنتراً (الرجال خصوصاً)؛ ومن تتطرق إليه مستحييةً، أو جاهلةً تماماً على هذا المستوى. لا تُحصى النساء في مجتمعاتنا (منها المجتمع اللبناني) اللواتي يعتقدن أنّ أجسادهن ملك الزوج العتيد، وأنّه لا يحق لهنّ حتى الحد الأدنى من القرار على هذا المستوى. أما حق المتعة في ذاته، فانسوا.

أقول ما سبق، طبعاً، من دون تعميم. إذ ثمة قلة قليلة متصالحة مع أجسادها في هذه البقعة من العالم التي نهشتها المحرّمات السخيفة، وتآكلها الجهل. الجهل هنا قد يكون قسرياً، بسبب الظروف المحيطة، لكن النوع الأفدح منه هو ذاك الطوعي. على غرار ما قالته لي إحدى السيدات ”المتعلمات“: ”ما هذا الكلام الفارغ؟ أنا يهمّني أن يكون زوجي راضياً. لمَ أستفسر عن موضوع كهذا؟“.

في موازاة عبارة ”كوني جميلة واصمتي“ البطريركية بامتياز، هناك توصية ”كوني صالحة وافتحي فخذيك واستسلمي“: الجنس واجب. الأهم أنّه لا ينبغي أن يتم سوى في إطار الزواج، خصوصاً، بل حصراً في ما يتعلق بالنساء. يوماً ما، سيكتشف العرب أن البعبع الحقيقي ليس الجنس، بل طريقة تعاطينا معه، وخصوصاً المعايير المزدوجة في هذا التعاطي. إلى ذلك الحين، هنيئاً لكل عذراء حيث وجدت، لها ملكوت السماء وزفت هذه الأرض.

~

إذاً، الجنس عملٌ سيّئ وشرير وقبيح. ويزداد سوءاً وشرّاً وقبحاً إذا كنا نتكلّم عن النساء، وفي حالتنا هذه، عن النساء العربيات؛ ما يحملنا على الحديث عن كمية المعايير المزدوجة المنتشرة في العالم العربي. غنيّ عن القول إنّه يستحيل عليَّ التطرق إلى كلّ الأعراض والأدلة المرتبطة بـ”متزامنة الخبث الجنسي“ المنتشرة في العالم العربي اليوم. لكنّني سأحاول أن أعرض في ما يأتي ثلاثة من أبرز منتجاتها:

أولى حججي تتمثّل بتلك الممارسة المروّعة التي لا تزال مستمرّة حتى أيامنا هذه، أعني بها ”جرائم الشرف“. اسمحوا لي هنا بأن أعرّفكم إلى مها. هي فتاةٌ أردنية، كانت في الرابعة والعشرين من عمرها عندما ارتكبت ”جريمة“ تعرّضها للحمل بعد أن أقدم جارها على

اغتصابها. فما كان من شقيقها إلاّ أن قتلها جزاءً لها على العار الذي ألحقته بأسرتها. طعنها غير مرّة في وجهها، وعنقها، وظهرها، ثم قطّعها إرباً إرباً بواسطة ساطور. وفي حين أنكر الجار المتّهم باغتصاب مها جريمته، وبدّل مكان سكنه، نال شقيقها القاتل عقوبةً بلغت ستّة أشهر في السّجن: علّلت المحكمة هذا الحكم التخفيفي بـ"حالة الغضب الشديد" التي دفعت الشقيق إلى التصرّف بطريقة غير منطقية بينما كان يدافع عن "شرف" العائلة. وأضافت المحكمة نفسها أنّ "سلوك المرأة المعيب" انحرف عن تقاليد المجتمع الأردني ولطّخ سمعة العائلة.

بالفعل، يجيز القانون الأردني منح الرجال عقوبةً تخفيفية عند قتلهم إحدى قريباتهم، إذا لوّثت شرف العائلة. وكانت الحكومة قد طرحت على مجلس النوّاب (الذي يسيطر عليه الإسلاميون) مشروعاً لإلغاء القانون المذكور، قابلَهُ هؤلاء بالرفض. من هنا، يمكن القول، باختصار، إنّ المرأة، إذا تجرّأت على ممارسة الجنس خارج إطار الزواج، سواء بإرادتها أم رغماً عنها (كما كانت الحال مع مها)، فمن الضروري أن تموت. أما إذا قتل رجلٌ شقيقته، فتكفيه ستّة أشهر في السجن عقاباً لا أكثر.

هل تنحصر هذه المشكلة في الأردن؟ يا ليت! فقد أظهرت إحصاءات الأمم المتّحدة أنّ ما يصل إلى ٥ آلاف امرأة وفتاة يُذبحن سنوياً على أيدي رجالٍ تربطهم بهنّ علاقة قربى، في إطار ما يُعرف بـ"جرائم الشرف". من جهتها، تشكّك المنظّمات التي تُعنى بحقوق المرأة في الشرق الأوسط في هذا الرقم، مؤكدةً أنّ عدد الضحايا أكثر من ذلك بأربعة أضعاف.

بطبيعة الحال، تنطبق جرائم الشرف على النساء دون الرجال. هل سمعتم مرّةً بامرأةٍ عربيّة دقّت عنق أخيها لأنّه مارس الجنس قبل الزواج؟ إليكم أخيراً هذا السؤال: ترى، هل تعمد أمّهات الضحايا إلى محاولة حماية بناتهنّ، أم يلتزمن صمتاً مخزياً في أفضل الأحوال، أم يقفنَ في صفوف رجال العائلة؟ لنترك الموضوع عند هذا الحدّ. فمن الأسئلة ما لا يستدعي أيّ إجابة.

~

لننتقل الآن إلى حجّتي الثانية، وهي عقدة العذرية: لا يزال يُتوقّع من

النساء العربيّات أن يكنّ عذراوات ليلة الزفاف. لو كنّا نعيش في عالمٍ طبيعي، لبدا هذا الأمر أشبه بدعابة سمجة. لكنّها الحقيقة بعينها. فعلاً، هذا هو الواقع في منطقةٍ عربية يطغى فيها التركيز على عفّة الأنثى، وأخلاق الفتيات، وسلوكهنّ الذي يجب ألاّ تشوبه شائبة. هذا هو الواقع في عالمٍ عربيّ يُفترض برجاله أن يفاخروا بتجاربهم الجنسية (كلّما طالت اللائحة، كان هذا أفضل طبعاً)، وحيث يجدر بمعظم نسائه الانتظار بفارغ الصبر ريثما يجيء الفاتح المبارك كي "يهبنَه" مهبلاً نقيّاً طاهراً (ما يدفع ببعض النساء إلى ممارسة الجنس الشرجي قبل الزواج: فيا لهنّ من "عذراوات" فعلاً!). هذا هو الواقع في عالمٍ عربيّ حيث يُفترض بالنساء أن يكنّ كائناتٍ هيولية مثالية وُلدت من دون احتياجات أو نزوات أو أخيلة جنسية.

إلامَ يفضي هذا كلّه؟ إلى ترقيع غشاء البكارة بالطبع، إلى جانب أشياء أخرى، إذ تلقى هذه الممارسة انتشاراً واسعاً في لبنان والدول العربية الأخرى، فضلاً عن اللجوء إلى غشاء البكارة الاصطناعي. أذكر في هذا الإطار حادثة تسويق غشاء البكارة البلاستيكي الصيني في السوق المصرية، بسعر لا يتعدّى الثلاثين دولاراً، ما أغضب العديد من رجال الدين المصريين الذين طالبوا بحظر هذا المنتج، واعتبروه تشويهاً للقيم والتقاليد العربية، لا سيّما أنّه يتيح للنساء التظاهر بالطهارة الجنسية في ليلة زفافهنّ.

أما بعد، فما يحزّ في النفس في هذا الموضوع كله، على الأقلّ بالنسبة إليَّ، هو إذعان المرأة نفسها غالباً لهذا الذلّ، والمساومة على حقّها في استخدام جسدها كما يحلو لها. متى تبدأ هؤلاء النساء بطرح السؤال الآتي على أنفسهنّ: لمَ يحقّ للرجال استخدام عضوهم كيفما شاؤوا في العالم العربي، بينما يُفترض بنا المحافظة على "نقاوتنا" (أي الامتناع عن المضاجعة)؟ إذا كان الجواب "لأنّ النساء يجب أن يعاملنَ أجسادهنّ باحترام" (بما معناه أنّ ممارسة الجنس تقلّل احترام الإنسان لنفسه)، فلمَ لا يبادر الرجال بالمثل ويظهرون لنا كيف يمكن مواجهة مشكلة الكبت الجنسي؟ ثمّ من قال إنّ الرجال أفضل من النساء في اتّخاذ القرارات المتعلقة بأجسادهم؟

إليكم هذا السؤال الثاني (من باب التهكّم): لمَ لا يبدأ الأهل المتنوّرون بإخضاع طفلاتهم الرضيعات لعمليات تمزيق غشاء البكارة بمجرّد أن يبصرنَ النور، قبل أن يغادرنَ المستشفى، تماماً كما يخضع بعض الأطفال الرضّع لعملية ختان؟ أليس من شأن ذلك أن يساعد في

التخلّص من خرافة العذرية المنافية للعقل، ويحرّر النساء من عبءٍ ثقيل يلقيه عليهنّ هذا "الكنز" الثمين الذي تجب المحافظة عليه من كلّ "خزي وعار"؟ ألا يمكن أن يساهم في إعادة وضع الأمور في نصابها، ويدفع العرب إلى رؤية غشاء البكارة على حقيقته، أي مجرّد غشاء عديم الفائدة، عوض اعتباره هديةً لا تُقدَّر بثمن تقدّمها الفتاة إلى رجلٍ واحد دون غيره؟ ألن يخلّصنا هذا من المثل العربيّ التافه: "شرف البنت زيّ عود الكبريت: لا يُشعل إلاّ مرّةً واحدةً"؟

أكرّر: لو كنّا نعيش في عالمٍ طبيعي، لبدا لنا هذا الأمر أشبه بدعابة سمجة. لكنّكم لن تروني أضحك في القريب العاجل.

~

أخيرا، اسمحوا لي بأن أتطرق إلى العنصر الأخير في هذا الفصل: أي ختان البنات.

تتعرّض ٨ آلاف امرأة لتشويه في أعضائهنّ التناسلية يومياً، ويُحرمنَ تالياً من حقّهن في التمتّع باللذة الجنسية (٩٧% من النساء في مصر يتعرّضنَ لهذه العملية الوحشية، بينما يبلغ عدد النساء اللواتي يتعرّضن لها بشكلٍ عام في العالم أجمع نحو ١٤٠ مليون امرأة وفتاة، معظمهن من القارة الأفريقية). يُفترض بهذه الممارسة المروّعة أن تضمن عذرية المرأة قبل الزواج، وأن تكبح جماح شهوتها الجنسية، و"تشفيها" من العادة السرية والشبق. تُطبّق هذه الممارسة سعياً إلى التحكّم بحياة المرأة الجنسية، بناءً على تصنيف النساء ضمن مجموعتين وفقاً للمعيار البطريركي: الفاجرات من جهة، والعفيفات من ثانية. لا بل تُعتبر النساء اللواتي لم يخضعنَ لهذه العملية، في بعض المجتمعات، غير نظيفات بما فيه الكفاية للمس الطعام والشراب. رغم هذا كله، تصرّ روزنامتي على إعلامي بأنّنا نعيش في القرن الحادي والعشرين...

علاوةً على أنّ ختان الإناث يمثّل انتهاكاً مباشراً لحقوق الإنسان، فهو ينطوي كذلك على أخطارٍ صحية عدة، منها التهابات بولية ومهبلية متكرّرة، وآلام مزمنة، وتعقيدات عند الإنجاب. لكنّ أكثر ما قد يثير السخط في هذا الشأن، كما هي الحال مع جرائم الشرف وعمليات ترقيع غشاء البكارة، هو حجم الدعم الذي تحظى به هذه الممارسة من جانب النساء أنفسهنّ. فالأمّهات هنّ من يجرجرن بناتهنّ من أجل

الخضوع لهذه العملية، في ظلّ ظروفٍ غير صحيّة غالباً، ويؤكدن أنّهن "يخترن" هذه العملية، وسواها من الممارسات المشينة في حقهنّ، بملء إرادتهنّ. ولكن كيف لامرأة أن تختار مثل هذه الطريقة الوحشية، والوقحة، والمهينة، والمذلّة، للتعامل مع هويّتها وجسدها كأنثى؟ وكيف يمكن الحديث عن "خيار" عندما لا يكون ثمة بديل آخر؟ أو عندما يكون البديل هو التعرّض للنبذ، أو الضرب، أو الجلد في الساحات العامة، أو السجن، أو حتى القتل؟ هل تملك هؤلاء النساء خياراً حقاً؟ إذاً، أدعوهنّ إلى اختيار كرامتهنّ في المقام الأوّل.

لكن دعونا لا نُعمل السكّين في الجرح، فهذا الجرح لا يزال مفتوحاً على اتّساعه وينزّ دماً باستمرار.

~

في وسعي أن أستفيض في الكلام عن هذه المواضيع لصفحات وصفحات. في وسعي أن أخبركم عن المتظاهرات المصريات اللواتي أجبرن على الخضوع لاختبارات عذرية خلال مرحلة ما بعد الثورة (وقد سُجّلت حالات اغتصاب متكرّرة في هذا الإطار). أو عن المدوّنة المصرية الشابة علياء المهدي التي وُجِّهت إليها تهمة "التحريض على الفسق والفجور وازدراء الأديان" بعدما نشرت صورة عارية لنفسها احتجاجاً على نهضة المتشددين الإسلاميين في مصر؟ هذا مع العلم أنّ الأشخاص أنفسهم الذين وجّهوا إليها أصابع الاتهام سرعان ما انهالوا بالضرب الوحشيّ على متظاهرة كانت موجودة بالقرب من ميدان التحرير، فمزّقوا قميصها وركلوها على نهديها المكشوفين، بكلّ ما أوتوا من قوّة.

في وسعي أن أخبركم أيضاً عن بطلة الملاكمة اللبنانية رلى الحلبي التي عاجلها والدها في برلين برصاصةٍ لأنّها كانت غادرت المنزل للعيش مع حبيبها؛ أو عن طالبة الثانوية العامة السعودية، نور، التي خنقها شقيقها الأكبر عندما اكتشف أنّها كانت تدردش مع شاب عبر الفايسبوك؛ أو عن الازدواجية في التعاطي مع المثليين وحقّهم في التمتّع بخيارهم الجنسي وحريّتهم الفردية (تجدر الإشارة هنا إلى أنّ معظم الرجال العرب "يشمئزّون" من مشهد رجلَين مثليّين يتبادلان القبل، بينما يزعمون، بكلّ فخر، أنّ مشهد امرأتين تفعلان الشيء نفسه يملأهم إثارةً. ومع أنّ العلاقات المثلية جريمةٌ يعاقب عليها القانون في غالبية البلدان العربية، إلاّ أنّها ممارسة منتشرة سرّاً،

نتيجة الفصل بين الجنسين، هذا مع الإشارة إلى أنّ أشرس المندّدين بالمثلية في الرأي العام، هم، غالباً، مثليون سريون أو مكبوتون).

في وسعي أن أخبركم أخيراً عن القيم الزائفة والسطحية السائدة في العديد من المجتمعات، كالمجتمع اللبناني مثلاً، حيث يرفض الناس الترويج لشركاتهم ومنتوجاتهم على صفحات مجلة ثقافية إيروتيكية مثل جسد، بحجة أنّها "جريئة" أكثر من اللازم، بينما تتكاثر الملصقات الإعلانية والإعلانات التلفزيونية وأشرطة الفيديو كليب الحافلة بالمشاهد الساخنة؛ وحيث لا يمكن الوقوع على إعلان لبرّاد من دون صورة امرأة نصف عارية ممدّدة فوقه، على افتراض أنّها تغري الزبائن بشرائه (غنيّ عن القول إنّكم لن تروا رجالاً نصف عراة معروضين من أجل إغراء الزبونات بشراء أريكة جديدة).

~

قد تسألون: ما الذي يمكن أن تفعله النساء في مثل هذه الظروف؟ في الواقع، بإمكان المرأة أن تبدأ ببعض الأمور البسيطة، في بيئةٍ تسمع فيها مراراً وتكراراً أنّ مكانها الوحيد هو البيت، وأنّ دورها الوحيد هو تربية أطفالها: أعني بذلك تربية بناتها وأبنائها على عدم الاكتفاء بما هو مسموح وممكن وفي المتناول، والسعي دائماً إلى ما هو أفضل في الحياة. فكلّ تغيير يبدأ بالرغبة في تحقيق هذا التغيير، ولا ريب في أنّ التربية والتعليم هما أساس هذه العملية. لذا، عوض التذمّر من المصير الظالم الذي مُنيت به المرأة، والوقوع في الحلقة المفرغة إياها عند تربية الجيل القادم، في وسع الأم البدء بتربية أولادها على معاملة الجنس الآخر، والتعامل مع الجسد والحياة الجنسية، بقدرٍ أكبر من الاحترام والتفهّم، عوض كلّ تلك العقد الفظيعة والأمراض النفسية السخيفة التي لا نزال نشهد عليها اليوم.

وما هو دور الرجل؟ فليبدأ بالتخفيف من شعوره بعدم الأمان، وبالخوف من قوّة المرأة الحقيقية. فليبدأ بالإصغاء إلى النساء بدل مجرّد النظر إليهنّ. فليبدأ باحترام عقل المرأة، وحريّتها، وقدراتها، بدل قمعها بكلّ ما فيها.

لكن أولاً وأخيراً، فليبدأ بتعزيز إيمانه بنفسه. لأنّ النظام البطريركي وممارساته تدلّ في الدرجة الأولى على نقص هائل في مستوى الثقة بالنفس لدى الرجال.

~

في العودة إلى الموضوع الذي افتتحتُ به حديثي هذا: ليس الجنس عملاً سيّئاً، بل السوء يتمثّل في معاييرنا المزدوجة الكارهة للنساء. ليس الجنس ممارسةً شرّيرة، بل الشرّ هو النفاق المروّع الذي نعيش فيه. ليس الجنس علاقةً قبيحة، بل القبح ينعكس في قيمنا العقيمة التي تميّز بين رجل وامرأة. أخيراً وليس آخراً، ليس الجنس خطيئة، بل هو حاجة ولذّة بشرية أساسية وجميلة.

فلننتهِ إذاً من لعبة الشعور بالذنب العبثية هذه، ولنكسر الدوّامة قبل أن تكسرنا!

٦ ـ كارثة اسمها الذكورية

"الرجل إله ناقص".

رالف والدو إمرسون

القصيدة

إعادة نظر

تظنّ أنّكَ القرصان الذي لا يُقهر

وأنّي السفينة التي تُسبى.

لكنّ السارق المحتال

هو الذي يُسرَق

فتأكّد إن كان قلبكَ لا يزال في مكانه

يا سيّدي العزيز.

تظنّ أنّكَ الذئب الشرّير

وأنّي ذات الرداء الأحمر.

لكن اِشحذ أسنانكَ

قبل أن تعبر غابتي

لأنّ لحمي يتوق إلى سكّينكَ

يا سيّدي العزيز.

تظنّ أنّكَ رجل غامض

وأنّي كتاب مفتوح.

لكنّ وضوحي صنّارة

أكلتَ أنتَ طعمها

فأنصحكَ بإعادة النظر

يا سيّدي العزيز.

تظنّ أنّكَ الصيّاد

وأنّي الفريسة المسكينة.

لكنّ الطريق تدور وتدور

في لعبة المطاردة بيننا.

فيستحسن أن تنظر وراءكَ

يا سيّدي العزيز.

تظنّ أنّكَ السيف

وأنّي العنق المنحورة.

لكنّي معلّمة سالومي

وهذا الرأس فوق الطبق

ليس إلاّ رأسكَ

– أعني أنّه رأسي –

يا سيّدي العزيز.

المرافعة

كتاب الوصايا الذكورية

"يُعرَّف الرجل كإنسان، بينما تُعرَف المرأة كأنثى. وكلّما حاولت أن تتصرّف كإنسان، قيل عنها إنّها تقلّد الرجل".

سيمون دو بوفوار

يقول الأب الذكوريّ لابنته: "كوني مطيعة".

يقصد: نفّذي ما تُؤمرين به أوّلاً، ثم فكّري. ومن الأفضل ألاّ تفكّري على الإطلاق.

يقول الابن الذكوريّ لوالدته: "ليس لكِ أن تكوني سوى أمٍّ لي".

يقصد: وجودكِ مرتبط بوجودي. ودوركِ الوحيد في الحياة هو إعداد طعامي، والاعتناء بي، وخدمتي.

يقول الرجل الذكوريّ لحبيبته: "أتوقع أن تكوني عذراء ليلة زفافنا".

يقصد: يجب أن أكون الرجل الأول والأخير في حياتكِ. ومتى تزوّجتكِ، أصبحتِ ملكي.

يقول الزعيم الذكوريّ لناشطات بلاده: "ما لكنّ والسياسة؟".

يقصد: أنتنّ وُلدتنّ لتوافقن وتلحقن، بينما وُلدتُ أنا لأحكم وأسيطر.

يقول المثقّف الذكوريّ للمرأة المثقفة: "لن تؤخذي على محمل الجدّ".

يقصد: أنتِ موجودة لتصغي فحسب، لا لتعبّري عن أفكاركِ.

يقول الموظّف الذكوريّ لزميلته: "لا تستحقّين راتباً يوازي راتب الرجل".

يقصد: أنتِ تشغلين وظيفةً فحسب، أما أنا فأملك طموحاتٍ ومسيرةً مهنية.

يقول المتديّن الذكوريّ لجميع النساء: "لا تكشفن عن شعركنّ".

يقصد: أنتنّ مصدر إغراء ليس أكثر، ومن مسؤوليتكنّ أن تحميننني من عجزي عن النظر إليكنّ كبشر.

يقول الإباحيّ الذكوريّ لجميع النساء: "تعرّين من أجلي".

يقصد: أنتنّ مصدر إغراء ليس أكثر، ومن مسؤوليتكنّ أن تبرّرن عجزي عن النظر إليكنّ كبشر.

يقول الرقيب الذكوريّ للخلاّقة: "لا تفصحي عمّا تفكّرين به".

يقصد: اصمتي والحقي بالقطيع.

يقول المربّي الذكوريّ للطفلة: "لا تفضّلي القراءة على الطبخ".

يقصد: لمَ ترهقين نفسكِ بالتعلّم بينما الطريق إلى قلب الرجل يمرّ بمعدته؟

يقول النظام الاجتماعي الذكوريّ للمراهِقة: "طموحكِ الأكبر هو الزواج".

يقصد: حياتكِ عديمة الجدوى إن لم تجدي لنفسكِ عريساً.

يقول المجتمع التقليديّ الذكوريّ للزوجة: "معيبٌ أن تستمتعي بممارسة الجنس".

يقصد: أنتِ مجرّدة من الاحتياجات الجنسية. ما عليكِ إلاّ أن تفتحي ساقيكِ وتصطنعي الوصول إلى النشوة لترضي غرور زوجكِ.

يقول كلّ رجل ذكوريّ أعرفه: "لا تؤلّفي هذا النوع من الكتب التي تفتقر إلى الحشمة".

... رغم ذلك، أنا أفعل. ولن أكفّ.

السرد

للرجولة ثمنٌ غالٍ

”تتعلّم النساء الاعتذار عن قوّتهنّ بينما يتعلّم الرجال الاعتذار عن ضعفهم“.

لويس فايز

دعوني أعرّفكم إلى السيد ”سين“. بدا لي للوهلة الأولى رجلاً أقرب إلى الكمال، من النوع الذي تتوسّل إليكِ جيناتكِ أن تنجبي منه طفلة: متعلّماً، ناجحاً، ذكيّاً، مرحاً، وفوق ذلك كله وسيماً، وهذا أمرٌ لا ضير منه على الإطلاق. كان واثقاً من نفسه، لا يعاني عقدة أوديب (فمعظم الأمّهات اللبنانيات يمطرنَ أولادهنّ بوابلٍ من الغنج والدلال، حتى يصبح الواحد منهم ”ابن أمّه“ فعلاً)، ولا هو متملّك بشكلٍ مَرَضي. فضلاً عن ذلك، بدا منبهراً بإنجازاتي أكثر من شكلي، أي في اختصار: كانت عبارة ”كامل الأوصاف“ تنطبق عليه تماماً.

كان قد مضى على بداية علاقتنا ثلاثة أسابيع عندما هزّ البلاد خبر جريمةٍ مهولة، حيث تمّ العثور على جثّة فتاةٍ في التاسعة عشرة من عمرها في غابةٍ معزولة. في تفاصيل الخبر أنّ الفتاة المذكورة قد تعرّضت للخطف والاغتصاب ومن ثمّ الضرب حتى الموت بينما كانت تقود سيّارتها عائدةً إلى البيت بعد سهرةٍ أمضتها برفقة أصدقائها. بطبيعة الحال، تحدّثنا عن الجريمة في ذلك اليوم، فعلّق السيد ”سين“ على الموضوع قائلاً: ”هذا ما يحدث عندما يسمح الأهل لبناتهم بالخروج ليلاً“.

لم يُضف الأستاذ الكريم شيئاً آخر. لم يأتِ على ذكر المجرم الذي اغتصب الفتاة. لم ينبس بتعليقٍ واحد عن نظامنا الأمني المتردّي. بالنسبة إليه، كان المذنب واضحاً: الضحية نفسها. لأنّها ”تجرّأت“ على الخروج والاستمتاع برفقة أصدقائها، كما يُفترض بأيّ شابة أن تفعل. هذه الخطوة وحدها وضعتها ضمن خانة ”الفتيات المنحلاّت“، واغتصاب ”الفتاة المنحلّة“، بحسب المنطق الذكوري، أمرٌ مبرّرٌ تماماً. في هذا الإطار، لا أملك إلاّ أن أثور غضباً بسبب عدد النساء اللواتي يتعرّضنَ للتحرّش والاعتداء الجنسي يومياً، أينما كان في العالم، ويجيء ردّ

الفعل دوماً (بالنسبة إلى عناصر الشرطة، ووسائل الإعلام، والرأي العام وغيرها) قائماً على مناقشة عدد الكؤوس التي شربتها الضحية، وطريقة لباسها، وكيفية تصرّفها، وتفاصيل حياتها الجنسية؛ أي باختصار، كيف "جلبت هذا الأمر على نفسها"، متحوّلةً، تالياً، من ضحية إلى متّهَمة. إن لم يكن هذا الحكم بطريركياً، فما هو الحكم البطريركي إذاً؟

غنيٌّ عن القول إنّ جيناتي شعرت بالقرف والاشمئزاز من موقف الرجل، وتلك كانت نهاية قصّتي مع السيد "سين". "الكامل الأوصاف" كان محض قشرة ما إن حككتُها حتى بان الذكوري الكامن تحتها.

~

الآن أعرّفكم إلى السيد "صاد". قابلتُه خلال مؤتمر نظّمته إحدى المؤسسات الثقافية العربية في فيينا. كنتُ قد جلستُ إلى جانبه مصادفةً خلال إحدى حفلات العشاء الجماعية، فاسترعى انتباهي في الحال. كيف لا، وقد كان يتحدّث بكلّ اندفاع وبلاغة عن حقوق المرأة وضرورة ردّ الاعتبار إليها ومنحها حقّ المساواة مع الرجل في العالم العربي، ناهيك بالحاجة الملحّة إلى إنشاء أنظمة علمانية متحرّرة من الضغوط التي تمارسها الأديان! من التفاصيل التي يجدر بي عدم التغاضي عنها في حكايتي هذه أنّ صاحبنا كان سعوديّاً. رحت أقول في نفسي: "كم هذا رائع! أخيراً، وقعتُ على مفكّرٍ متفتّح البصيرة في أرض التخلّف بامتياز". في تلك الليلة، خلدتُ إلى النوم وبي من التفاؤل والأمل بالتغيير ما لم أشعر به في حياتي قبلاً قطّ.

في صباح اليوم التالي، انتهى المؤتمر وحان وقت المغادرة. بينما كنا مجتمعين كلّنا في ردهة الفندق، في انتظار السيارات التي ستنقلنا إلى المطار، رأيتُ "فولتير السعودي" يخرج من المصعد وإلى جانبه طيف أسود. بعدما أنعمتُ النظر، أدركتُ أنّها امرأة منقّبة. ولمّا سألتُ مَن تكون، أجابني أحد الزملاء المشاركين في المؤتمر أنّها زوجة الرجل "المتنوّر إياه". كان قد أجبرها في ما يبدو على ملازمة غرفتهما طوال الأيام الثلاثة، من دون أن يسمح لها ولو بالنزول لتناول العشاء معنا.

إذا كان السيد "صاد" فولتير حقاً، فما كنت أنا سوى ساذجته "كانديد".

~

أخيراً وليس آخراً، أقدّم إليكم السيد "زين". هو زوج رفيقة من رفيقاتي، وينتمي إلى أحد الأحزاب الإلهية الكثيرة المنتشرة في "بلاد الأرز". أكثر ما يطمح إليه السيد "زين" في الحياة، وفقاً لزوجته، هو أن يصبح "شهيداً" ذات يوم. كيف لا، وله زعيم يمتلئ قلبه فخراً واعتزازاً بابنه الذي فقده في هجوم انتحاريّ، فما عاد يدع فرصةً تمرّ إلاّ ويكرّر مدى افتتانه بهذا العمل البطولي الذي يتمثّل في تفجير المرء نفسه كرمى لقضيّة، وقتل آخرين معه على الدرب. فضلاً عن ذلك، تشرّب السيد "زين"، منذ نعومة أظفاره، الإيديولوجيا المقيتة التي تقول: "إذا كان الإله الذي أؤمن به أنا مختلفاً عن الإله الذي تؤمن به أنت، فهذا سببٌ كافٍ كي أكرهك وأحاربك وأقتلك". لا يخفى على أحدّ أنّ فرقة المؤمنين بالشهادة رائجة في العالم العربي، وأنّ ثقافة الاستشهاد تشكّل صناعةً مزدهرة تدرّ علينا كمّاً كبيراً من الذكوريين: هم أشبه بدمى تخال نفسها أبطالاً، أو قل مجرمين مقتنعين بأنّهم رجال خارقون. كلّنا سمع بعصابات المخدرّات، وعصابات القمار، وعصابات غسل الأموال، لكنّ الأخطر منها كلّها هي، من دون شكّ، عصابات الله.

أذكر يوم صادفتُ السيّد "زين" على أحد شواطئ جنوب لبنان. رأيته قادماً برفقة زوجته وابنيه. جلست السيدة النهار بأكمله يومذاك تحت أشعّة الشمس الحارقة، من دون أن تخلع عنها لا الحجاب ولا القميص الطويل الكمّين أو سروال الجينز، بينما تمدّد زوجها "المحبّ" بثوب السباحة كي يتنعّم بحمّام شمس، وانشغل ولداها باللعب في البركة. هذا كلّه، بناءً على منطق أنّه يجب عدم إغواء الرجال الأفاضل بمشهد جسدٍ أنثوي. لأجل ذلك، يجدر بالنساء أن ينضحنَ عرقاً ويختنقنَ تحت الشمس الحارقة، لكي يحمينَ الرجال من جاذبيتهنّ. لكن ألا يعني هذا المنطق أنّ الرجال مجرّد حيواناتٍ عاجزة عن التحكّم بغرائزها؟ وإذا كانوا، فعلاً، حيواناتٍ عاجزة عن التحكّم بغرائزها، أليس من الأجدى ربطهم برسن عوض إرغام زوجاتهم على الاختناق تحت طبقات الأقمشة والثياب؟

رحتُ أنظر يومذاك إلى رفيقتي وأنا أستشيط غضباً، وأفكّر: كيف يعقل أن يكون هذا عادلاً؟ كيف يعقل أن يقع أيٌّ كان على هذا المشهد فلا يشعر بالنقمة أو يندفع إلى قول/ فعل شيء ما؟ مع ذلك، بدا الأمر طبيعياً تماماً بالنسبة إلى زوجها (لا بل بالنسبة إليها أيضاً، وهنا الأسوأ). ففي نهاية الأمر، ما الذي تمثّله النساء بالنسبة إلى أعضاء العصابة المقدّسة هؤلاء؟ مجرّد أمّة من الخادمات ومشروع أرامل في أفضل الأحوال؛ إناث يجدر بهنّ أن يكنّ سعيدات في رعاية أزواجهم –

أي تزويدهم الطعام والجنس والثياب المغسولة والمكوية – ومن ثمّ إرسالهم إلى "الشهادة" عندما يحين الوقت المناسب. كيف لا، وهذا هو المعنى الأسمى للكرامة بالنسبة إلى الرجل: الجهاد في سبيل الاستقامة والحقيقة الإلهيتين، والاستعداد للموت من أجل ملاقاة وجه الله!

جدير بالذكر هنا أنّ الشهادة ليست مفهوماً إسلامياً بحتاً، ولا ابتكاراً يقتصر على الإسلام دون غيره. فأصوله تعود إلى سفر التكوين عندما اختبر الله إبراهيم آمراً إياه بالتضحية بابنه إسحق لإثبات ولائه له. من ثمّ جاء دور يسوع، والطريقة التي ضحّى به "الآب" على الصليب لمغفرة ذنوب البشرية وإنقاذ العالم من ثقل الخطايا. في الواقع، إنّ تاريخ الأديان التوحيدية حافلٌ بالدماء، والعنف، والتضحيات القاسية والعقيمة. في هذا الإطار، ليس السيد "زين" إلاّ أحد ضحايا غسل أدمغة، عمره آلاف السنين.

~

في إمكاني أن أتلو عليكم لائحة لا تنتهي من حالاتٍ جمعتني بأشخاصٍ مهووسين بذكوريتهم: على غرار ذلك المفكّر "المتحرّر" الذي كان يلومني يوماً على لباسي المحتشم، ثم جنّ جنونه لأنّه رأى شقيقته تدخل المطعم، حيث كنا، بتنّورةٍ قصيرة جداً. وماذا عن الروائيّ اليساريّ الشهير الذي يدّعي أنّه مدافع شرس عن تحرّر النساء، لكنّه لا يترك فرصةً تمرّ إلاّ ويتحرّش بأيّ أنثى يصادفها، لكأنّه لا يشتهي تحرّر المرأة إلاّ لكي توافق على مضاجعته. يجدر بي هنا أن أوضح أنّ التحرّش الجنسي بلغ مستوياتٍ وبائية في العالم العربي إلى درجة أنّه بات في إمكاننا إدراجه كإحدى الرياضات الوطنية، في ظلّ غياب أيّ قوانين تحمي النساء منه. ففي مصر وحدها تتعرّض ٩٨% من الزائرات الأجنبيات و٨٣% من المصريّات للتحرّش والمضايقات. غالبية هؤلاء لا يبلّغنَ عن حالات التحرّش بسبب شعورهنّ بالخوف، والخزي، والذنب، بما أنّهنّ متّهَمات دوماً بالرغبة في "جذب الانتباه".

ثمّ حدِّثوا ولا حرج عن الصحافيّ المناضل الذي وضع حملتي على جرائم الشرف وزواج القاصرات ضمن خانة "البورجوازية". أما الحملة المذكورة، فكانت جزءاً من محاضرةٍ كنت قد ألقيتُها في الجامعة الأميركية في بيروت حول موضوع التمييز ضدّ النساء العربيات، ضمن إطار سلسلةٍ من المؤتمرات التي تناولت موضوع الشباب والجنسانية

في العالم العربي. كنت قد "تجرّأتُ" على تركيز حديثي على موضوع جرائم الشرف، وزواج القاصرات، وتابو العذرية، كثلاثة من أمثلة لا تُعدّ ولا تُحصى عن الازدواجية التي نتعامل بها مع الجنس والحرية الجنسية في بلادنا. لكن يبدو أنّ السيّد المذكور اعتبر أنّ الكلام على حقوق المرأة في العالم العربي ما هو إلاّ نزوة بورجوازية. فما كان منه إلاّ أن احتجّ: "كيف يمكنكِ التحدّث عن مثل هذه الأمور بينما البلد غارقٌ في الفساد السياسي والاقتصادي، وبينما الناس يموتون في فلسطين يومياً؟". لعلّ الناشط العزيز نسي أنّ المؤتمر لم يكن يعالج موضوع سياسة الدولة اللبنانية أو تحرير فلسطين، بل تحديداً محور "الشباب والجنسانية" في العالم العربي. لكنّه كان على حقّ. كان يجدر بي أن أحشو كلّ هذه المواضيع في خطابي حشواً كي أتخلّص من شعوري بالذنب، ومن ثمّ أنتقل إلى الحديث عن جرائم الشرف بضمير مرتاح. لا ريب في أنّ وضع حدٍّ للجرائم الإسرائيلية في فلسطين يحتلّ سلّم الأولويات، ناهيك بمكافحة مظاهر الاحتيال والظلم. لكنّ احترام حقوق المرأة وتشريعها هما أيضاً من الأولويات. ومن الأولويات كذلك التخلّص من الشوفينية الذكورية التي تتخفّى وراء النضالات البروليتارية وتردّد على مسامعنا أنّ حقوق المرأة العربية (الجنسية منها والقانونية والاجتماعية والسياسية وغيرها) إنما هي ترفٌ. الترف الفعليّ – ذاك الذي لم يعد في مقدورنا تحمّل أثمانه – هو هذا النوع من الخطاب وهذه الفصيلة من الناس. هذا هو الوجه الحقيقي لـ"البورجوازية": وجه الخداع والنفاق والتلاعب.

كتبت كاثرين آن بورتر: "إذا كان هذا العالم للرجال فقط، فلينعموا به". أما أنا، فأخالفها في الرأي وأقول: "لن ينعموا به إلاّ فوق جثّتي"!

~

ضمن الإطار نفسه، دعوني أخبركم أيضاً عن مجلة جديدة، خاصة بالنساء، شرع تنظيم "القاعدة" في إصدارها منذ بضعة أعوام. اسم المجلة هو الشامخة، وينشرها "مركز الفجر للإعلام"، وهو من أكبر المؤسسات الإعلامية التابعة للتنظيم المذكور. قرأنا في عددها الأول لقاء مع زوجة مجاهد تروي فيه "البطلة" فخرها واعتزازها باستشهاد زوجها المزعوم، وتستعرض دور النساء في تحريض أزواجهنّ على الاستشهاد (آه من نظرية "الشهادة" هذه والفظاعات التي ترتكب باسمها!). لمزيدٍ من العبث، رأينا على الغلاف صورة امرأة (أو ما يظنّ أنّها امرأة تحت بقعة السواد التي تمثّلها) محجّبة تماماً، إلى جانب

عنوان مقال يتناول "الخطوات العلاجية لبشرة نقية" (صدِّقوا أو لا تصدِّقوا): البشرة نفسها التي ينبغي ألاّ ترى الشمس وألاّ تتنفس وألاّ يلوح منها سنتيمتر واحد أمام عيون الرجال "المفترسين". على الغلاف أيضاً – وطبعاً – صورة سلاح: إذ ما المرأة من دون كلاشنيكوف تحت إبطها؟

المجلة، كما تصف نفسها، "إسلامية جهادية نسوية"، ولن أتناول هنا التناقضات الفادحة التي يحتوي عليها الوصف في ذاته، ولا دورها المباشر والواضح في عملية غسل أدمغة النساء وتخريج جاهلات جهاديات وانتحاريات. "القاعدة" تعرف تماماً أن ليس أكثر فاعليةً من المرأة "المبرقعة" على هذا المستوى، كونها تتنقل من دون أن تطالَب بهويتها، ما يجعلها قنبلة مفخخة تمشي في الشوارع بلا رقيب (هذا الحافز الأمني وحده ينبغي أن يحثّ المزيد من الدول على أن تحذو حذو فرنسا في حظرها ارتداء البرقع والنقاب). ذكيّة هي "القاعدة"، وتدرك أهمية استثمار النصف الثاني من المجتمع لأهدافها الإرهابية. المجلة خطوة نحو "الحداثة" و"الانفتاح" والقرن الحادي والعشرين، على ما يبدو. برافو وتهانينا.

أذكّركم باسم المجلة: الشامخة.

بربّكم، بربّكنّ، أين الشموخ في هذا كلّه؟

~

حقيقة: وفقاً لإحصاءات الأمم المتّحدة حول العنف ضدّ النساء والفتيات، تتعرّض واحدة من أصل كلّ ثلاث نساء في مختلف أنحاء العالم للضرب أو الاغتصاب أو الاعتداء الجنسي. وتُسجَّل معظم أحداث العنف هذه خلف أسوار العلاقات الحميمة، حيث يكون مرتكبوها غالباً الشريك أو الزوج.

حقيقة: يُرتكب ما يصل إلى ٥٠% من الاعتداءات الجنسية عبر العالم في حقّ فتيات ما دون السادسة عشرة من أعمارهنّ.

حقيقة: خاضت نسبة ٣٠% من النساء تجربتهنّ الجنسية الأولى تحت الإكراه.

حقيقة: تخضع ١٤٠ مليون امرأة وفتاة في العالم لعملية تشويه

الأعضاء التناسلية الأنثوية.

حقيقة: تُزَفّ نحو ٦٠ مليون فتاة في العالم كعروسات قاصرات.

حقيقة: يتمّ الإتجار بـ٤ ملايين امرأة وفتاة سنوياً. وتتعرّض ٦٠% من هؤلاء النسوة للعنف الجسدي و/ أو الجنسي قبل أن يتمّ الإتجار بهنّ.

حقيقة: تتعرّض العديد من عاملات المنازل في لبنان للاستغلال المعنوي والجسدي والجنسي، ولا يتمتّعنَ بأيّ نوع من الحماية القانونية – بمعنى آخر يعشن شكلاً عصرياً من أشكال العبودية. في هذا الإطار، نشر تقرير منظّمة رصد حقوق الإنسان لعام ٢٠٠٨ أنّ نحو خمساً وتسعين عاملة منزل أجنبية على الأقل تُوفّينَ في لبنان ما بين كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ وآب/أغسطس ٢٠٠٨. من هذه الوفيّات، صُنّفت أربعون حالة كحوادث انتحار، بينما أُدرجت أربع وعشرون حالة ضمن إطار حوادث سقوط عاملات من طبقات عليا خلال محاولتهنّ الهرب من أرباب عملهنّ.

حقيقة: يتمّ الإتجار بـ٣ ملايين امرأة وفتاة سنوياً بغرض الاستغلال الجنسي.

حقيقة: تدخل نحو مليون أنثى مجال الدعارة سنوياً.

حقيقة: تتعرّض امرأة من أصل اثنتين لمحاولات تحرّش جنسية، أو ملامسات، أو غيرها من أشكال المضايقات في ميدان العمل.

حقيقة: تشمل ٩٠% من قضايا التحرّش رجالاً تحرّشوا بنساء وليس العكس.

حقيقة: تحصد جرائم الشرف حياة ٢٠ ألف امرأة سنوياً. أما أسباب هذه الجرائم، فتتنوّع بين ممارسة الجنس قبل الزواج (بما في ذلك التعرّض للاغتصاب)، أو الرغبة في الهرب من زواج مدبّر، أو اختيار المرأة زوجها بملء إرادتها، أو ارتدائها الملابس بطريقة لا تراعي الأسرة أو المجتمع.

حقيقة: تؤدي الذكورية إلى العنف – الجنسي وخلافه. أما النساء الأكثر عرضةً للاستغلال على يد شركائهنّ فينتمين إلى المجتمعات التي يكون فيها التفاوت في الحقوق بين الجنسين على أشدّه، وحيث تسود المعايير الثقافية التي تؤيّد حقّ الرجل في الحصول على

الجنس بغضّ النظر عن مشاعر المرأة، هذا كلّه في ظلّ غياب العقوبات المتشدّدة التي تجرّم سلوكاً كهذا. أما بالنسبة إلى الأسباب المحفّزة على العنف، فنذكر عصيان المرأة لأوامر الرجل أو مجادلته، والتشكيك في وفائه، وعدم تجهيز طعامه على المائدة في الوقت المناسب، ورفض ممارسة الجنس معه، إلى جانب اشتباهه في خيانتها له. جدير بالذكر أنّ النساء اللواتي يتزوّجنَ في سنٍّ مبكرة هنّ أكثر عرضةً للضرب أو التهديد، وأكثر ميلاً إلى الاعتقاد بأنّ ضربهنّ ممارسة طبيعية ومبرّرة.

كثرٌ هم الرجال الذين يقتلون زوجاتهم وعشيقاتهم وصديقاتهم وطليقاتهم، بحجة جرعة زائدة من "الحبّ". في ٤٨ في المئة من الحالات، القاتل هو الزوج. في ١٢ في المئة هو الحبيب، وفي ٢٣ في المئة الصديق أو الزوج السابق. عدد لا يحصى من الاغتيالات يحدث كلّ عام، في أنحاء كثيرة من العالم، باسم شعورٍ سامٍ هو الحبّ، غالباً ما يتمّ الخلط بينه وبين التملك والعنف والقمع. الظاهرة تشبه إلى حدّ بعيد ظاهرة جرائم الشرف، حيث في هذه الحال أيضاً يتمّ مسخ شعورٍ سامٍ عن قصد بغية تبرير ارتكاب جرائم فظيعة. هكذا تُردى ألوف النساء قتيلات سنوياً باسم الشرف العربي الرفيع: نساء يتجرّأن على اتخاذ القرارات المتعلقة بأجسادهنّ. نساء يرفضن الزواج القسري برجال لم يلتقين بهم. نساء يتحلّين بشجاعة الانفصال عن زوجٍ مؤذٍ. نساء يقلن لا، بكل بساطة، للظلم والطغيان ولأشكال أخرى حديثة من العبودية.

ما يلفت في القتلة باسم الشرف والحبّ على السواء أنّهم غالباً ما يعتبرون أنفسهم – ويعتبرهم الآخرون – أشخاصاً "صالحين": رجال مؤمنون، يذهبون بانتظام إلى الكنيسة او الجامع. رجال يدّعون حماية القيم والتقاليد والقوانين السماوية. يذكّرونني بأحد جيراننا من أيام الطفولة. هذا كان مقتنعاً هو الآخر بأنّه رجل "صالح". كيف لا، وهو تلقّى سرّ العماد والمناولة الأولى وكان يذهب إلى القداس كلّ أحد ويضع صليباً مذهباً بارزاً حول عنقه؟ لا يهمّ إذا كنّا نسمع كلّ ليلة تقريباً صرخات زوجته وهو ينهال عليها ضرباً لأنّ الطبخة لم تكن على ذوقه. الأخ كان واثقاً بأنّه سيذهب مباشرةً إلى الجنة.

جرائم حبّ وشرف؟ بل جرائم كره ونذالة. الحبّ لا يقتل أيها السادة، بل قلّته. والشرف لا يحضّ على الإجرام، بل عدمه. أما إذا كانت الجنّة المزعومة لأشخاص من أمثالكم، فلا أملك إلاّ أن أتساءل: لِمن الجحيم

إذاً يا ترى؟

~

كم من مرّةٍ سمعنا أو حتى استخدمنا العبارة الآتية: "هكذا هم الصبيان، ما باليد حيلة!"؟ منذ الطفولة، يلقى الفتيان تشجيعاً على الخشونة، ويُثنَون عن التحلّي باللطف والمراعاة والاهتمام بالآخرين، لا بل يتعرّضون للسخرية والتنمّر إن تصرّفوا على هذا الأساس – سواء من جانب رفاقهم أم من أهلهم أنفسهم في بعض الأحيان. هذا يؤدي إلى تكاثر نوع من الذكور العدوانيين الذين يحاولون، مع تقدّمهم في السنّ وتحوّلهم إلى راشدين واعين جنسياً، قمع النساء والاستخفاف بآرائهنّ.

لسوء الحظّ، تؤيّد العديد من النساء هذه المفاهيم السلبية للذكورة، تحديداً من خلال الاحتفاء بشخصية الشاب "الأزعر" أو "القبضاي" الذي يريد بأيّ ثمن (ويظنّ أنّه يستحقّ) أن يكون محور الاهتمام. زد على ذلك أنّ العديد من الرجال يلومون النساء إذا ما تعرّضن للأذى (من تحرّش واعتداء وغير ذلك). أما كيف تفعل النساء ذلك؟ فبمجرّد الانتماء إلى الجنس الأنثوي في أغلب الأحيان. في الواقع، نحن جميعاً "مذنبات" لا لشيء سوى لأنّنا نملك نهدين ومهبلاً: إنّه عيبٌ في تصنيعنا.

بين المتنمّرين في المدارس وزعران الشوارع، بين مَن يضرب النساء ومَن يستغلّهنّ جنسياً، يقع العديد من الرجال في شرك حلقة مفرغة من العنف. أما مردّ ذلك فنظرية مغلوطة عن معنى الرجولة الفعلي: نظرية تفسّر الرجولة على أنّها تترافق حكماً مع القسوة، لا بل حتى الوحشية أحياناً، وتلغي منها جوانبها الإيجابية؛ نظرية تربط التستوسترون بمقدار الغضب والعدوانية اللذين يظهرهما الرجل؛ كما تعزّز نظاماً بطريركياً قائماً على ثنائية الهيمنة/ الخضوع. أضف إلى هذه التربية الملتبسة، الإخصاءَ المعنويّ الذي تفرضه الأنظمة الديكتاتورية ويجلبه الفقر على الرجل، وسترى أنّ الرجال العرب يحتاجون، بكلّ تأكيد، إلى كبش فداء كي ينتقموا لرجولتهم المسروقة: أعني بذلك النساء. صدق من قال إنّ العنف يولّد العنف.

لكن هل تنحصر هذه الحقائق المؤسفة بالعالم العربي؟ وفقاً للمجلس الأوروبي، تقع واحدة من كلّ خمس إناث أوروبيات ضحية

الاعتداء الجنسي في مرحلة ما من حياتهنّ. ويكون المعتدي ذكراً في ٩٨% من الحالات. في الشرق أجيالٌ متتالية من النساء اللواتي يتعرّض للسحق والكبت والإهمال بفعل قوى الظلامية والاستبداد والجهل المطلق. أما في الغرب، فأجيالٌ متتالية من النساء اللواتي يُعامَلنَ كسلعة، فيمسينَ أجساداً تُباع وتشرى لا أكثر. هنا البرقع وأخواته، وهناك اللحم المعروض في المزاد العلني. صدقاً، لا أعرف كيف يمكن امرأة أن تكون على قيد الحياة اليوم، من دون أن تستشيط غضباً في كلّ لحظة حيال الإهانات الهائلة التي تلحق بها، أكانت هذه الإهانات تهدف إلى إلغائها تحت سجن أسود أم إلى استغلال جسدها وتشييئه.

~

الذكورية وباءٌ فتّاك. الحقائق التي تؤكّد ذلك موجودة، وكلّها مزعجة ومحبطة، كأقلّ ما يقال. لكن أين هو العلاج؟ وما هي الحلول لمثل هذه المشكلة العالمية؟

لعلّ إحدى الطرق الناجعة لاستئصال هذا الورم السرطانيّ، ومكافحة السكوت عن الوضع القائم، والاستخفاف بالقضايا المرتبطة بوضع المرأة، تكمن في دفع المزيد من النساء إلى المشاركة في الحياة السياسية لبلادهنّ. فما دامت الهيكليات السياسية والاقتصادية والثقافية تحت سيطرة الرجال، لن تتغيّر العقلية البطريركية. لا يخفى على أحد أنّ عدد الذكور الذين يحتلّون الساحات السياسية اليوم، في العالم العربي كما خارجه، هو الطاغي. تشير إحصاءات الأمم المتحدة إلى أنّ مشاركة النساء في الحياة السياسية في العالم لا تتجاوز ١٠ إلى ٢٠ في المئة في معظم البلدان، ما عدا بعض الاستثناءات. العالم يعيش انفصاماً رهيباً داخل كينونته المجتمعية. هو يزعم أنّه يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة لكنّه لا يترك مناسبةً، أو مجالاً، إلاّ يؤكد فيهما ذكوريته.

أكثر ما يتجلّى ذلك، في مجتمعاتنا العربية. لكنّي أريد أن أتحدث عن لبنان تحديداً وحصراً، حيث "يُقال" إنّ المرأة تعيش المساواة الكاملة مع الرجل. نعم، نظرياً، وعلى شاشات التلفزة بالتأكيد، وفي نوادي السهر بالتأكيد. لكن أين هي هذه المساواة الموهومة في القوانين والإدارات والمراكز العامة، وفي السلطتين التنفيذية والتشريعية؟ بل أين هي هذه المساواة في الشارع "الشعبي" والفقير؟ وأين هي هذه المساواة خصوصاً في المناطق النائية، بل ابتداءً من خارج

العاصمة؟

إذا استثنينا بيروت الكبرى – وهنا لا يجوز التعميم – هل نستطيع أن نعاين هذه المساواة في الشمال وفي الجنوب وفي البقاع وفي الجبل؟ أعتقد جازمةً أن لا.

لا يسجّل لبنان أحد المعدّلات الدنيا على مستوى مشاركة المرأة في الحياة السياسية فحسب، لكنّه يسجل أيضاً وخصوصاً أحد أعلى المستويات في مجال الحطّ من قدر المرأة. حتى أنّ وزارة السياحة اللبنانية لم ترعوِ عن إنتاج فيلمٍ قصير هدفه الترويج للسياحة في لبنان، يرتكز على نوستالجيا السائحين الكرام إلى أجساد النساء اللبنانيات! في بلدٍ بالكاد تتمتّع فيه النساء بحقوقٍ تُذكَر، وحيث يسود النظام البطريركي والطائفي، ترى الحكومة لا تتردّد في تصوير النساء سلعةً بهدف جذب السيّاح الذكور. ما عسى المرء يقول تعليقاً على هذا المستوى من البطريركية، والتمييز، والسطحية، وانعدام اللياقة، والسلوك غير الأخلاقي؟

أجل، عالم السياسة في لبنان ذكوري بامتياز، يسوده التستوستيرون وتُصرَّف أفعاله بناءً على قواعد الضمير المذكّر. أما الضمير المؤنَّث فمغيَّب (طوعاً أو قسراً، لا فرق تقريباً)؛ وإن حضر، فبواسطة صلات القربى مع الذكور: أخت فلان أو زوجته أو ابنته. وهكذا.

هم رجال يُنشَّأون منذ صغرهم على اللعب بالدبّابات والمسدسات، فيكبرون في وهم أنّ الحياة هي هذه؛ وأنّ السياسة هي هذه؛ وأنّ هدف القيادة هو هذا. معظمهم صبيةٌ لا يزالون يلعبون حروباً صغيرة على نطاق أوسع.

نحدّثهم عن الكوتا – وهي مهينة بالنسبة إلى معظمنا – فيتحججون بأنّنا لا نحتاج إليها لأنّ المجال مفتوح أمام النساء على مصراعيه. ولكن إذا كان الواقع هو هذا فعلاً، أفلا يجدر بلوائحهم أن تتألف من نساء بنسبة خمسين في المئة منها؟

لكن الحقّ ليس عليهم. ليس عليهم فقط. الحق أيضا علينا، نحن النساء اللواتي نقبل أن نصوّت للوائح لا تُسمِع أصواتنا، ولا تأخذ في الاعتبار همومنا وحقوقنا. نحن النساء اللواتي نقبل التهميش على حسابهم. نحن النساء اللواتي نتردد في خوض المعارك لأنّنا نعتبر أنفسنا خاسرات سلفاً. نحن النساء اللواتي نكتفي بالنقّ والشكوى،

وعندما يحين موعد الانتخابات نعطي الأولوية لطوائفنا وقبلياتنا على حقوقنا كمواطنات شريكات في هذا البلد.

ما يصحّ على لبنان يصحّ أيضاً على وضع المرأة في البلدان العربية. ولكن لكي أكون منصفةً، لا بدّ من أنّ أشير إلى أن العالم بأسره لا يزال يعاني مشكلة ذات صلة بالفلسفة الذكورية لمنطق الحياة. لا يجوز التعميم، لكن دهوراً من التمييز في حقّ المرأة قد لا يكون ممكناً محوها في قرن أو في قرنين.

~

في الموضوع نفسه، أعترف أنّي شعرتُ بالخجل عندما رحت أتابع في أحد الأيام مقابلة تلفزيونية مع المرشحة الرئاسية الأفغانية فوزية كوفي. كيف لا، وفي بلاد مثل أفغانستان، حيث يمكن أن تتعرض الأنثى للقتل، لا لسبب سوى لكونها أنثى، ثمة امرأة شابة، قديرة وشجاعة، تتجرأ على أن ترفع صوتها، وأن تتحدى القمع والظلم اللذين يمارَسان عليها وعلى مواطنات أرضها، وتصبو إلى منصب الرئاسة. في تلك الأثناء، في لبناننا "المودرن" والمنفتح والليبيرالي، قلة من وسائل الإعلام تخصص اهتمامها للنساء الجديات اللواتي ينوين خوض تجربة الانتخابات المقبلة وإحداث فارق في هذا البلد. معظمنا لا يعرف حتى أسماءهنّ، ولا خلفياتهنّ، ولا أجنداتهنّ السياسية.

أجل، في بلاد مثل أفغانستان، حيث يخاطر المواطنون بحياتهم بهدف الاقتراع، وحيث تُتهَم المرشحات بالعهر، ويُخطف أنصارهنّ ويُقتلون، وتُهدَّد عائلاتهن وتتعرض للابتزاز، لا تسمح النساء للخوف بالحؤول دون تقدمهنّ ووقوفهنّ في وجه المعتدين والمتخلفين. في تلك الأثناء، في لبناننا الديموقراطي، ثمة نساء كثيرات مقتنعات بأنّ السياسة عالم الرجال. وما يكون عالم النساء يا ترى؟ تقنيات شدّ البشرة والشوبينغ؟

أؤمن بأنّ لدينا في لبنان عدداً كبيراً من المرشحات الكفوءات، وآمل أن تمنحهن الانتخابات المقبلة فرصة إثبات قدراتهنّ ومواهبهنّ. لا يمكن دولة أن تكون قوية اقتصادياً من دون انخراط النساء في سوق العمل. لا يمكن دولة أن تدّعي الديموقراطية من دون احترام حقوق النساء. لا يمكن دولة أن تتقدم من دون مشاركة النساء الفاعلة في الميدان السياسي.

وسط أولئك الذين يحاولون تتفيه دور المرأة في السياسة، ووسط

اللامبالاة حيال التمييز ضد المرأة في لبنان، نحن في حاجة ماسة إلى عدد أكبر من النساء في مجلس النواب اللبناني (وسواه).

أقول "نساء"، وأعني اللواتي ترتبط لديهنّ ميزة الكلام بالقدرة على التفكير.

أقول نساء، وأعني اللواتي يخاطبن عقولنا وضمائرنا، لا أعضاء رجالنا التناسلية.

~

من الطرق الفعّالة الأخرى لتجاوز العنف والكبت اللذين تخلّفهما الذكورية، لا بل القضاء عليهما تماماً، وصول المرأة إلى الاستقلالية المالية. ليس هذا فحسب، لا بل أناشدها بأن يصير الاستقلال المالي هوساً لديها. ظهرت الذكورية، في المقام الأول، كأحد نتاجات نموذج "الرجل الصيّاد" الذي يقول: "أنا أطعمكِ إذاً أنا أملكُكِ". وقد تعزّزت الذكورية لاحقاً بفضل نظرية الضلع التي كرّستها الأديان السماوية (حيث قالت إنّ المرأة ليست إلاّ مجرد ضلع من كيان كامل هو الرجل). تالياً، من بالغ الأهمية أن تطيح النساء هذه الفكرة من طريق غزو سوق العمل وتأمين مصدر رزقهنّ بأنفسهنّ. صحيحٌ أنّ العديد منهنّ يفعلنَ ذلك اليوم، إلاّ أنّ نسبة النساء المكتفيات ذاتياً لا تزال متدنية جداً في العالم العربي. قلةٌ يسيرة من النساء العربيات يتعلّمن أهمية الاستقلال المالي. حتى أولئك اللواتي يتقنَ إلى التحرّر و/ أو يملكنَ شهادةً جامعية، تراهنّ يتّكلنَ، مراراً وتكراراً، على الرجال للإيفاء باحتياجاتهنّ الاقتصادية، كشراء فستان جديد أو حلى أو سيارة أو بيت.

بطبيعة الحال، إنّ التفاوت القائم في الأجور بين الرجال والنساء هو أحد الأسباب الرئيسية لذلك، لكنّه ليس بالسبب الوحيد. فالمشكلة لا تنحصر في مدى توافر الفرص، بل هي أسوأ من ذلك بكثير: المشكلة ناتجة من الذهنية السائدة. على سبيل المثال، كثيرٌ من النساء اللواتي أعرفهنّ، لا يرتدنَ الجامعات إلاّ لجذب زوج "أفضل" أي أكثر ثراءً (بالنسبة إليهنّ). يجدر بي القول إنّ هذه الطريقة في التفكير غير محصورة بالأجيال الأكبر سنّاً. فعندما رافقتُ ابني المراهق أخيراً إلى حفلة عيد ميلاد، تناهى إلى مسامعي صوت إحدى زميلاته في الصف وهي تخبر صديقتها: "عندما أكبر وأتزوّج، سأطلب من زوجي أن يشتري لي سيارة بورش". عندئذٍ، توجّهتُ إليها وسألتها: "ألن يكون

من الأفضل لو كبرتِ وبدأتِ بالعمل ثم اشتريتِ لنفسكِ سيارة البورش هذه؟". بطبيعة الحال، كانت هذه المراهقة سجينة مخطّط رسمته لها والدتها. إنّ الاستسلام للأمر الواقع هو أحد أكثر الأمراض الوراثية انتشاراً على وجه الأرض.

يجب أن تتعلّم النساء العربيات كيف يكنّ مسؤولات عن تلبية احتياجاتهنّ الخاصة. فالاستقلالية لا تُنال بثمن بخس، بل بالعمل الشاقّ والجديّ. ويومَ تكفّين عن طلب المال من والدكِ أو شقيقكِ أو زوجكِ لشراء ما ترغبين فيه أو ما تحتاجين إليه، سيكون هو اليوم الذي تستطيعين أن تقولي فيه إنّكِ حرّةٌ فعلاً.

فكّري في الأمر: لا شيء يخيف الرجل الذكوريّ أو ينتقص من شعوره برجولته أكثر من امرأة لا تحتاج إليه لتلبية احتياجاتها. من شأن هذا الأمر أن يضرب جذور الذكورية ويقلب المؤسسة البطريركية رأساً على عقب. هذا من ناحية؛ أما من ناحية أخرى، فيفترض بهذا التحوّل أن يزرع الطمأنينة في نفوس الرجال الحقيقيين، عوض تشكيله مصدر خطر وتهديد: فهل من أمر أكثر إرضاءً للذات من اليقين بأنّ المرأة التي يحبّون تحتاج إليهم لشخصهم، لا بسبب الأمان المادي الذي يمكن أن يوفّروه لها؟

~

من الحلول الشافية الأخرى لهذا المرض القاتل، رفض تصنيف الأمور بيضاء أو سوداء، والاعتراف بطبيعتنا المزدوجة، وتقبُّل أنّ كلاً من الرجال والنساء يُظهرون ويتمتّعون في دواخلهم بسلوك وصفات "أنثوية" و"ذكورية" في آن واحد. تقول غلوريا ستاينم إنّ "أكثر امرأة يخشاها الرجل هي المرأة القابعة في داخله". أما أنا فأضيف أنّ أكثر رجلٍ تتجاهله المرأة هو الرجل القابع في داخلها. لذا، ما إن نبدأ بقبول "الآخَر" الذي نحمله في دواخلنا، حتى لا يعود هذا الآخر هو "العدوّ". في رأيي المتواضع، رغم بعض الاختلافات الضمنية المحدّدة بين الرجل والمرأة، فإنّ أوجه التشابه بينهما تفوق، وبأشواط، أوجه الاختلاف.

بطبيعة الحال، لا أعني بذلك على الإطلاق إلغاء الاختلافات بين الرجال والنساء. في الواقع، قرأتُ أخيراً خبراً عن حضانة تجريبية في السويد تُدعى "إيغاليا" (أي مساواة)، أخذت على عاتقها منح الأولاد تربيةً

"محايدة جنسانياً". على سبيل المثال، قرّر الموظّفون في تلك الحضانة تفادي كلمات مثل "هو" أو "هي" ومخاطبة الأطفال بـ"أيها الأصدقاء" عوض "صبيان" و"بنات". لكن بقدر ما أرفض التنميط الجنساني والمعايير المجتمعية التي تتوقّع من الفتيات التحلي باللطف والطباع "البنّاتية"، ومن الفتيان الخشونة والرجولة، لا يسعني إلاّ التشكيك في قدرة مثل هذه التربية على هندسة مساواة حقيقية بين الجنسين. لا أنكر أنّ هدف المدرسة نبيل، لكنّ طريقتها غير مقنعة البتّة. فجندرنا، على غناه وتنوعه، يشكّل جزءاً لا يتجزّأ من هويّتنا. لذلك ينبغي أن تقوم المساواة على معاملة الجميع بطريقة عادلة ومتساوية، لا إرغامهم على أن يشبه بعضهم بعضاً. ينبغي أن تقوم المساواة على تقبّل التنوّع واحترام أوجه اختلاف كلّ شخص، لا تجاهلها. يسيئني أن يقال لي إنّ الطريقة الوحيدة لأكون "متساوية" مع الرجل هي إنكاري لجنسي. إنّ إنكار جنس الآخر لا يختلف في شيء عن التحيّز ضدّه جنسياً. مع أنّ كلمتَي "ذكر" و"أنثى" تنطويان على فروق، ومع أنّهما لا تكفيان بالتأكيد لوصف مروحة الهويات الجنسية الكثيرة لدى البشر التي تتجاوز تعريفاتهما الضيقة، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ إحداهما أقل قيمةً من الأخرى.

~

أخيراً، من النقاط التي يجب طرحها على طاولة النقاش، ضرورة ألاّ يبقى الدفاع عن قضايا المرأة شعاراً أنثوياً ونسائياً بامتياز. الكلام نفسه ينطبق على النضال ضدّ البطريركية. لهذا السبب، لطالما أقلقني غياب المشاركة الذكورية عن المبادرات الرامية إلى تحقيق العدالة والمساواة بين الجنسين؛ ولهذا السبب أيضاً، لطالما أزعجني الفصل بين الاحتياجات الأنثوية والذكورية، وغيرها من الممارسات التمييزية التي تنشئ أفراداً مجبولين سلفاً بالخوف والكراهية والجهل والامتعاض تجاه الجنس الآخر. الرجال شركاء أساسيون وضروريون في النضال ضدّ الظلم الذي تعانيه المرأة، ذلك الظلم النابع من الأنظمة السياسية والعسكرية والدينية الرجعية التي يعاني منها الرجل أيضاً، وإن بدرجة أقل: هي الأنظمة التي، على غرار تنّين أسطوري، لا تنفكّ تنبت لها رؤوس جديدة كلّما قطعنا رؤوسها القديمة.

الهوّة سحيقة بين النسوية والذكورية، ومن الصعب ردم العمق التراجيدي بينهما من دون أفكار حياتية خلاّقة، من مثل: الرجال والنساء معاً وفي آن واحد ضدّ النسوية وضدّ الذكورية. موقف كهذا

يتطلب قلب الطاولة، "طاولة الرجل هنا والمرأة هناك"، على من حولها. أقلّ من ذلك يُعتبر نشاطاً مجتمعياً مداهِناً، ومجامِلاً، بل يُعتبر استمراراً في اتباع منطق الخبث والتكاذب الذي يتحكم بجوهر العلاقة بين الرجل والمرأة.

لأجل ذلك، نحن في حاجة اليوم وهنا إلى نوع آخر من النساء: أولئك المكافحات، اللواتي يقاتلن بأظفارهن للحصول على مبتغاهنّ من دون أن يحتجن إلى ابتزاز الرجل ولا إلى إلغائه. أولئك اللواتي لا يتطلّعنَ إلى استبدال النظام البطريركي بنظامٍ أمومي، بل يكافحنَ من أجل نسج شراكة حقيقية مع الجنس الذكوري. ونحن بحاجة أيضاً إلى نوع جديد من الرجال: ذلك النوع الذي لا يحتاج إلى إخضاع النساء، ولا إلى السطو على حقوقهنّ، ولا إلى الحطّ من كرامتهنّ ومشاعرهنّ، بغية الشعور بـ"رجولته".

~

للرجولة ثمنٌ غالٍ فعلاً. لكنّ معظم الرجال يجهلون ما هو. معظم الرجال لا يعرفون أنّ الرجولة هي الامتناع عن التصرّف بذكورية والتصدّي لذلك الإغراء الذي يقع فيه المرء بكلّ سهولة. معظمهم لا يعرفون أنّ الرجولة هي، عوض ذلك، العمل على ممارسة قوّتهم بلياقة ونبل وعدل، والاعتراف بنقاط ضعفهم، ما قد يحرّرهم ويشفيهم في آن واحد. معظمهم لا يعرفون أيضاً ما الذي يجعل من الرجل رجلاً فعلاً؛ لا بل إنّ بعضهم وصل إلى حدّ الشعور بالذنب لأنّه رجلٌ، نتيجة كلّ المعطيات التي تربط ما بين الذكورة والسلبية. لذا أصبح من الضروري، لا بل من فائق الأهمية، أن يعيد الرجال تقييم هويتهم، ليدركوا أنّ هذه الهوية لا ترتبط، على وجه التأكيد، بالتصرّف الذكوري والاستبدادي وبالعنف والتملّك تجاه "النصف الآخر من السماء"، كما وصفنا ماو تسي تونغ ذات مرّة.

ما هو مطلوبٌ اليوم، إلى جانب الثورة الأنثوية، لا يقلّ عن ثورة ذكورية بكلّ ما في الكلمة من معنى الكلمة: لا بدّ من ثورة جذرية، بنيوية، غير عنفية، وغير لفظية، وغير شعاراتية، وغير فئوية، تطاول لبّ العقل النسائي والرجالي على السواء، وتنشر أسس علاقة أكثر نضجاً وإرضاءً ما بين الجنسين.

في تلك الأثناء، جلّ ما أطلبه منكم، أيها السادة، أن تتذكّروا الآتي: لا

تضع الذكورية الرجل في مواجهة المرأة، إنّما الصبيّ في مواجهة الرجل.

٧ ـ كارثة اسمها صراع الجنسين

”لم أتمكّن يوماً من تحديد معنى النسوية بشكلٍ دقيق: جلّ ما أعرفه هو أنّ الناس يقولون إنّي نسوية كلّما عبّرتُ عنً مشاعر تميّزني عن ممسحة أرجل أو عاهرة“.

ريبيكا وست

القصيدة

أنا امرأة[3]

[3] نُشِرت هذه القصيدة المرة الأولى في ديوان للشاعرة بعنوان دعوة إلى عشاء سري (منشورات دار النهار، ١٩٩٨).

لا أحد يحزر

ماذا أقول حين أصمت

مَن أرى حين أُغمض عينيَّ

كيف أنساق حين أنساق

عمّا أبحث حين أُطلق يديَّ.

لا أحد لا أحد يعرف

متى أجوع متى أسافر

متى أمشي متى أضيع

أن ذهابي عودة وعودتي إحجام

أنّ ضعفي قناع وقوّتي قناع

والآتي عاصفة.

يظنّون أنّهم يعرفون

وأنا أدعهم يظنّون

وأحدث.

جعلوا لي قفصاً كي تكون حريتي هدية منهم

فأشكر وأطيع

لكنّي حرّة قبلهم بعدهم بهم دونهم

حرّة بقهري بهزيمتي

وسجني ما أريد.

قد يكون مفتاح السجن لسانهم

لكنّ لسانهم ملتفّ على أصابع شهوتي

وشهوتي لا يأمرون.

أنا امرأة

يظنّون حريتي ملكاً لهم

وأنا أدعهم يظنّون

وأحدث.

المرافعة

قال فقالتْ

”هل تستطيعون أن تتخيّلوا عالماً من دون رجال؟ سيكون بلا جرائم، وفيه الكثير الكثير من النساء البدينات السعيدات“.

نيكول هولاندر

هو: على المرأة أن تطبخ.

هي: إذاً، سأسلخ لحمكَ عن عظمكَ وأشويه.

هو: المرأة مخلوقٌ من الجحيم.

هي: جيّد، ها أنتَ قد أخذتَ علماً.

هو: لا يمكن الوثوق بالنساء.

هي: اشكرني لاحقاً على هذا الدرس.

هو: على المرأة أن تطيع الرجل.

هي: اِركع على رجليكَ إذاً، ومُرني أن أتعرّى.

هو: النساء ثرثارات.

هي: اصمتْ ومارِس الحبّ معي.

هو: النساء موجودات لإرضاء عشّاقهنّ.

هي: توسّل إليَّ وسأفكّر في الموضوع.

هو: النساء يُغرَمنَ بسهولة.

هي: ذكِّرني، ما اسمكَ؟

هو: النساء يحلمنَ بالزواج.

هي: لا تعتمد على ذلك.

هو: المرأة لا تجيد القيادة.

هي: تذكّر هذا عندما أدهسكَ تحت دواليب سيارتي.

هو: المرأة لا تبالي بالأحجام.

هي: آمل ألاّ تكون متّكلاً على هذا الأمر.

هو: يجب صفع المرأة على مؤخّرتها عندما تسيء التصرّف.

هي: ماذا تنتظر؟

هو: يجب تقييد المرأة.

هي: أين الحبل؟

هو: لا تتحمّل المرأة ليلة جنس عابرة.

هي: أقنِعْ نفسكَ بذلك بعد رحيلي.

هو: لا تتوقّعي منّي أن أبقى إلى الأبد.

هي: هل هذا وعد؟

السرد

يسمّونه "ربيعاً عربياً"

"المرأة التي تسدّد إيجار بيتها بنفسها غير مضطرة لمسايرة أحد".

كاثرين دان

كان ذلك في أوائل الثمانينات عندما وقعتُ للمرّة الأولى على عبارة "صراع الجنسين". كنتُ قد شاهدتُ لتوّي فيلم "حرب النجوم"، من بطولة هاريسون فورد وكاري فيشر، فحسبتُ أنّ المصطلح المذكور إنّما ينطبق على سيناريو آخر لأحد أفلام الخيال العلمي، تشكّل فيه الأعضاء الجنسية بديلاً من لوك سكاي وولكر والأميرة ليا. كانت العبارة، في الواقع، عنواناً لكتابٍ باللغة الفرنسية (صراع الجنسين)، نُشر في العام ١٩٧٠ بقلم ماريز شوازي، لمحتُه خلال تصفّحي بعض الكتب في إحدى مكتبات بيروت.

بطبيعة الحال أثار العنوان فضولي، فما كان منّي إلاّ أن فتحتُ الكتاب وحاولتُ قراءة بضع صفحات. فإذا بي أكتشف أنّه أقرب إلى سيمون دو بوفوار منه إلى جورج لوكاس. لكنّ أعمال الكاتبات النسويات كانت قراءةً شاقّة لفتاةٍ في الثانية عشرة كانت تجذبها الروايات الفاسقة أكثر من الإيديولوجيات نفسها. أهملتُ الكتاب يومذاك ولم أُعِره انتباهاً.

بعد ذلك، وصل إلى صالات السينما فيلم "غريس" مع جون ترافولتا وأوليفيا نيوتن جون. كنت في الخامسة عشرة عندما شاهدتُه للمرة الأولى، فما ترسّخت منه في ذهني حينذاك إلاّ أفكارٌ من مثل: "اللطف مملّ"، "الطيش محبوب" و"التهوّر مثير". بطبيعة الحال، رغبتُ، بكل ما أوتيتُ من قوة، في أن لا أكون الفتاة اللطيفة المملّة، بل تلك الطائشة المتهوّرة، فأصررتُ على أن تشتري لي أمّي سترةً جلدية. لكنّ خطتي باءت بفشلٍ ذريع: إذ من المحتّم على فتاة تحشر أنفها في الكتب وتميل إلى الجدالات الفكرية أن تخيف الفتيان، حتى وإن ارتدت سترةً جلدية. ذلك كلّه زاد من ارتباكي وحيرتي في شأن تلك الحرب الفرضية بين الذكور والإناث. فعدتُ، لحسن الحظ، إلى الأعمال النيّرة التي فاض بها قلم سيمون دو بوفوار وسواها.

لكنّي كنتُ كلّما طالعتُ أكثر في هذا الموضوع ازددتُ اقتناعاً بأنّ نظرية صراع الجنسين إنّما تتلخّص بما يأتي: هو يشدّها إلى خارج الكهف من شَعرها، وهي تشدّه إلى داخل كهفها من قضيبه؛ بمعنى أنّ الرجل غير الواثق من نفسه (سوبرمان) يحتاج إلى بسط سيطرته (الجسدية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو الدينية، أو ما إلى هنالك) من أجل التحكّم بالمرأة. في المقابل، تحتاج المرأة غير الواثقة من نفسها (شهرزاد) إلى استعمال الإغراء (أي تحقيق تسويات بواسطة "سرد القصص"، أو الخدمات الجنسية، أو المسايرات الاجتماعية، أو ما إلى هنالك) من أجل رشوة الرجل وإقناعه بمنحها ما يحقّ لها.

كنتُ كلّما حلّلتُ ما ورد أعلاه اقتنعتُ بأنّه مضجرٌ للغاية! فالرجل ليس بحاجة إلى التحكّم بالمرأة على الإطلاق، والمرأة غير مضطرة إلى رشوة الرجل، لا من قريب ولا من بعيد. هذه اللعبة الأبدية التي تقوم على المواجهة بين سلطة الأنثى (شخصية "باربي" المغوية) وسلطة الرجل (شخصية "كين" الذكورية) باتت لعبة طفولية أكل الدهر عليها وشرب. بتنا بحاجة إلى الانتقال، وقريباً، نحو لعبة تقوم على مواجهة بين العقول، بغضّ النظر عن جنس أصحابها.

تلك كانت تحديداً اللحظة التي اجتاحت فيها فلسفة الموجة النسوية الثالثة حياتي، وأنقذتْني!

~

غالباً ما أُسأل عن معنى فلسفة "ما بعد النسوية" (أو الجيل الثالث من النسوية، كما تُعرَف في الغرب)، التي أعتبر أنّي انتمي إليها، فألجأ عادةً إلى تبسيط إجابتي على النحو الآتي: بعض النساء يفعلنَ المستحيل لإرضاء للرجل. بعضهنّ الآخر مستحيلٌ أن يمنحنَ الرجل مكانةً في حياتهنّ. أما نساء الموجة النسوية الثالثة فيجتزنَ، مع الرجل، المستحيل.

خطت الموجة النسوية الثالثة خطواتها الأولى في أوائل التسعينات ولا تزال مستمرّة حتى يومنا هذا (من أبرز نصيرات هذا الجيل الجديد إيل غرين وناوومي وولف وإليزابيث بادنتر). وهي فلسفة تقنعني لأنّها تولي المركز الأول لتنوّع النساء في العالم وفردياتهنّ (أي في ما يتعدّى التعريفات الجاهزة والثنائيات النمطية)، وتعمل على اجتناب فخاخ الحركة النسوية الأساسية (خصوصاً حركة الستينات

والسبعينات)، ومنها الخطاب الراديكالي الضيّق والرافض للآخر، والثنائية التخاصمية والصدامية واللاتوافقية بين الجنسين.

فضلاً عن ذلك، اعتنقت هذه الفلسفة مفهومَي التنوّع والتغيير، وأعادت تعريف المرأة كمخلوق قويّ، واثق من نفسه، وقادر على التحكّم بحياته الخاصة. ليس هذا فحسب، بل كافحت أيضاً الصور النمطية التي رسمها الإعلام عن النسويات، والمصطلحات المستخدمة لتصنيفهنّ ضمن خانة معيّنة. أمّا الأهمّ من هذا كلّه، فهو أنّ هذه النظرية اعترفت بحقّ التيار النسوي في التبدّل مع كلّ جيل وإنسان – لا بل بحاجته إلى ذلك. بالفعل، في معرض تناولهما فكرة الموجة النسوية الثالثة، أعلنت جينيفر بومغاردنر وآيمي ريتشاردز في مقدّمة كتابهما مانيفيستا: "التحرّر لا يعني استنساخ المرء لما جاء من قبله، بل اكتشاف طريقه الخاص – أي الطريق التي تعكس، وبكلّ صدق، هموم جيله". فضلاً عن ذلك، تعترف الموجة النسوية الثالثة ببعض المفاهيم المهمّة التي أؤمن بها، كسياسة اللانمطية والمرونة الجنسية، متفاديةً الثغرة التي وقعت فيها الموجة النسوية الثانية عندما رفضت تيارات الجنسانية الجديدة محاوِلةً ترويضها وتكييفها.

جديرٌ بالتذكير هنا أنّ الموجة النسوية الثانية، المعروفة أيضاً بحركة تحرير المرأة (التي ازدهرت في الستينات والسبعينات، في حين تشير الموجة النسوية الأولى إلى العمل النسوي الناشط خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين)، عزّزت، على أهميتها، الصراع الجدلي الدائم بين الجنسين، فصوّرت جميع النساء من دون استثناء كضحايا لا حول لهنّ ولا قوّة، في حين قولبت الرجال ضمن إطار الجلاّد الذي لا يرحم. لكنّ إلصاق صورة الضحية بالنساء والشيطان بالرجال (نتيجة الكبت أو التعميم أو جنون الارتياب أو الضغينة والكراهية بكلّ بساطة) هو حلقة مفرغة، ومن الخطأ إدانة الهيمنة الذكورية دون غيرها بذلك: فكيف يسعنا أن نتجاهل على هذا المستوى امتناع بعض النساء أنفسهنّ عن فرض استقلاليتهنّ و/أو هجر "معذّبهنّ" قبل أن يسحق هذا ما تبقّى لهنّ من ثقةٍ بالنفس؟ زد على ذلك أنّ المرأة أثبتت، في غير مناسبة، أنّ عدوّها اللدود إنّما هو المرأة نفسها للأسف.

إن لم يكن الأمر على هذه الحال، فكيف عسانا نبرّر، مثلاً، إقدام العديد من النساء في الغرب اليوم، المنتميات إلى التيار النسويّ "الكلاسيكي"، على الدفاع عن الحجاب الإسلامي بمختلف أشكاله،

بما فيها النقاب والبرقع مثلاً، فضلاً عن ممارسات إسلامية قمعية أخرى؟ ما يزيد الطين بلّةً، زعم هؤلاء أنّهنّ يفعلن ذلك باسم احترام "التقاليد والنسبية الثقافية"، في حين أنّ الأجدى بهنّ التركيز على الطبيعة العالمية لحقوق الإنسان، التي تتجاوز مفهومَي الشرق والغرب. إنّهنّ بذلك يدافعن عن التمييز ضدّ المرأة، وانتهاكات مرعبة لحقوق الإنسان، على غرار زواج القاصرات وتعدّد الزوجات وتشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية.

هذه الحجّة (حجة احترام الاختلاف) هي نفسها ما يدفع بالعديد من النسويات اللبنانيات والعربيات إلى التهجّم عليَّ وانتقاد آرائي ووجهات نظري بلا هوادة. هن يرينَ فيَّ "الخصم" لأنّني أدين الحجاب مثلاً بصفته "تمييزياً ضدّ المرأة" و"واجباً قمعياً مفروضاً عليها أو متوقعاً منها"، إلى جانب خلافات أخرى في وجهات النظر: بالنسبة إليهنّ، ما أنا إلاّ "غربية الميول"، وهذه أسهل تهمة (وأكثرها عبثيةً) يمكن أن توجَّه في بلداننا إلى مَن ينادي بالحرية. فكلّما سعى أحدنا في سبيل الانفتاح على الآخر والمختلف، وكلّما طالب أحدنا بالديموقراطية، وكلّما اجتهد أحدنا في أن يكون شخصاً مدنياً، وكلّما كسر أحدنا محرّمات الجنس والدين، وكلّما آمن أحدنا بأنّ العلمانية يمكنها أن تخلّص مجتمعاتنا من التزمت المجتمعي والأخلاقي والديني والعصبي، وكلّما رغب أحدنا في العدالة والمساواة، وكلّما كافح أحدنا من أجل إرساء قواعد الأنسنة، وكلّما حارب أحدنا الرقابة أو التمييز ضد المرأة، "يعيَّب" من جانب جماعات التخوين بالتغريب والاقتلاع والتماهي والتقليد والالتحاق بالغرب.

لكنّ السؤال العقلاني الأساسي الذي يطرأ على البال هو الآتي: من يحقّ له أن يقرّر أن القيم والمعايير المجتمعية والثقافية والسياسية، المذكورة أعلاه، هي حكرٌ على الغرب ووقفٌ عليه؟ من قال إنّها ليست عالمية – أعني إنسانية وإنسانوية – ينبغي لنا جميعاً "إعلان الحرب" دفاعاً عنها، وسعياً لإحقاقها وترسيخها؟ من المعيب والمهين حقاً لنا، كشعوب وحضارات وبلدان شرقية، أن نعتبر هذه القيم "ملكاً" للغرب. بل من المعيب والمهين أن "نتنازل" له عنها، وكأنّ امتلاكنا لها خطيئة مشينة تنتقص من إنسانيتنا وكرامتنا. لا بل لكأنّنا نقول إنّ قيمنا نحن هي القمع والتخلف والظلامية والرقابة والفساد والتمييز والإقطاعية والتعصب الديني.

لأجل ما سبق، قلّما اهتمّ "أنصار التقاليد ونصيراتها" بما إذا كنت أدافع

عن ضرورة تمتّع المرأة بحرية الإرادة وحرية الاختيار، أو أنّي أعرّض نفسي للخطر كلّما عبّرتُ عمّا يخشى أشخاص كثيرون المجاهرة به؛ قلّما اهتمّوا بما إذا كنت قد دفعتُ، وما زلت أدفع، ثمناً غالياً جزاء معتقداتي ومواقفي في الحياة. بالنسبة إلى هؤلاء، إمّا أن يناضل المرء وفقاً لطريقتهم وإمّا لا. لسوء الحظ، تنصّ طريقتهم، في الغالب، على الدفاع عن حقّ المرأة في التعرّض للاضطهاد والتمييز باسم مقتضيات الدين والمجتمع والعائلة والإرث الذكوري.

النسوية الحقيقية تعني السعي إلى تكريس المساواة بين المرأة والرجل. أكرّر: المساواة، لا المحاكاة أو التماهي أو التشبّه، أي المساواة في الحقوق والأدوار والواجبات. في هذا الإطار، لا بدّ لي من الإشارة إلى نقطتين لا يمكنني قبولهما لدى التيار النسوي المتشدّد: أعني تحويل الرجل إلى العدوّ (هنا، أصرّ: لا مجال لتحقيق أيّ تغيير في النظام البطريركي من دون مشاركة الرجل ومن غير نسج شراكة حقيقية معه)، ورفض الأنوثة باعتبارها علامة ضعف. أمّا أنا، فلا أشعر بكامل قوّتي إلاّ عندما أتقبّل هويّتي الخاصة ومميّزاتها، دونما الحاجة إلى اعتناق المعايير والمسلكيّات والمواقف الذكورية كي أثبت أنّي قوية فعلاً (فهذا بدوره فخٌّ بطريركي واستسلام للازدواجيات السطحية التبسيطية). ونحن بحاجة إلى إنقاذ الرجال من هذا الفخّ بقدر النساء. لذا حريٌّ بكلّ من النساء والرجال، كما شرحتُ في الفصل السابق، أن يبذلوا جهداً لتفادي الطرق المسدودة والإقصاء الكامل من قبل الجنس الآخر.

~

لنسلّم بما يأتي: النسوية الكلاسيكية أمام جدار مسدود. الذكورية الكلاسيكية أمام جدار مسدود. هاتان حقيقتان بديهيتان لا يمكن التغاضي عنهما والقفز عليهما لبناء أيّ شيء عقلاني في المجتمع.

لقد بلغ الأمر بالعلاقة المأزومة بين الرجل والمرأة، وبالقدر نفسه بين الرجل وذاته، والمرأة وذاتها، حدّاً بات فيه التمترس وراء الحصون الذاتية والموقف الهجومي والنظرة المسبقة إلى الآخر ضرباً من الفصام والهذيان.

لم يعد مسموحاً بأن تتحكم بحياتنا أفكارٌ وممارسات من النوع النسوي والذكوري المتطرف، لما تنطوي عليه هذه من إهانات جوهرية

وإعاقات، تنعكس بشكل مأسوي على العلاقات البشرية وحياة المجتمع كلاًّ.

عندما تتحصّن المرأة بالأفكار النسوية الراديكالية، فإنّها تكون لا ضدّ الرجل فحسب، وإنّما خصوصاً ضد ذاتها. الشيء نفسه يقال عن الرجل عندما يمعن في ذكوريته. هذان موقفان يذهبان، كلٌّ في طريق أفقي، ولا يمكن أن يلتقيا في مكان ما. فهما سيظلاّن يتقدمان أفقياً، آخذَين في طريقهما كلّ التجارب والأحلام والطاقات والديناميات التي يمكن أن تنجم عن اللقاء غير المحكوم بمسبقات بين الرجل والمرأة.

موقفان محكومان بالجنون، بالفصام، بانفلات المنطق، بالحقد، باليأس، بالمرارة، بالخيبة، وبالألم.

على رغم الاختلافات الأكيدة الكامنة بين الرجل والمرأة، فإنّ نقاط تشابههما تفوق بأشواط نقاط اختلافهما، لا بل إن الاختلافات بين الأفراد هي أكثر حدة من الاختلافات بين أبناء الجنسين.

ولأنّي امرأة، أشدّد على الأخطار المتأتية من استمرار الشعارات والممارسات النسائية المرتبطة بالنسوية المتطرفة، وبهذا النوع من "الكفاح" الإيديولوجي، الحزبي، الميليشيوي، الشوفيني، العصبي، الضيق.

إليكم مثالاً معبّراً عن هذه النظرة الضيقة إلى النسوية: في أحد الأيام، هاجمتني سيدة بشراسة وشككت في ولائي لقضايا النساء، لا لسبب سوى لأنّي كنتُ أنتعل يوم لقائنا حذاءً ذا كعب عال. موقف كان بالنسبة إليَّ مضحكياً مبكياً، لأنّ بعض المناضلات النسويات لا يزلن عالقات في زمن "الشنبات برهان القبضايات": أي معاذ الله أن تُظهر امرأةٌ ميلاً إلى الأنوثة، فذلك اعتراف بالضعف. بمعزل عن اقتناعي بأنّ الأنوثة لا تُختصَر بالكعب العالي، أليس التنصل من تلك الأنوثة يشكّل في ذاته اعترافاً بدعم المزاعم البطريركية القائلة إنّ الذكورة هي القوة؟ هل يعقل أنّنا في ٢٠١٣ لا نزال نقرر حجم الأدمغة بناءً على الشكل، والكفاءة بناءً على المظهر، والنسوية بناءً على ... "السكربينة"؟

إنّ النسوية المهجوسة برهاب الأنوثة هي نسوية "إرهابية"، متطرفة، كارهة لذاتها أولاً، تنتج عكس أهدافها المرجوّة ثانياً، وعقيمة ثالثاً. لذا حان لنا أن نتجاوز القشور ونصل إلى الجوهر. حان لنا أن نحتفي بقوة

الأنوثة، المختلفة في بعض نواحيها ومنابعها وطاقاتها عن قوة الذكورة، ولكن التي لا تقلّ عن الثانية غنىً وفاعلية.

لستُ مع التنميط الجنسي، لا بل إنّني أحترم حقّ كل إنسان في الانتماء إلى الجنس الذي يشاء واعتماد مظاهره الخارجية، كما أنّني مقتنعة بأنّ الجندر لا تحدّده الأعضاء التناسلية فحسب، وبأنّ ما بين الذكورة والأنوثة تقع ظلال تتحرك فيها هويات جنسية كثيرة لا يُقبض عليها بتسمية أو تصنيف. ثم مَن يستطيع أن يقرر ما الذكورة وما الأنوثة وسط التكييف الهائل الذي نتعرض له منذ الصغر؟ لست مع التنميط، ولكن أنا نسوية بالطبع، أكنتُ حافية القدمين أم أنتعل حذاءً رياضياً أم كعباً عالياً.

تلك هي النسوية التي أؤمن بها. تلك هي النسوية التي نحتاجها ونستحقّها.

~

في مقابل النظرة "الميليشيوية" التي ذكرتُها أعلاه، ثمة نظرة تسطيحية إلى النسوية لا تقلّ عن الأولى خطورةً. إذ تطالعنا في المكتبات وأكشاك الصحف كميات هائلة من المجلات المسمّاة "نسائية" أو نسوية: منشورات برّاقة تناقش آخر صرعات الموضة، ومحاسن البوتوكس، ومعجزات الماكياج، وروائع الجراحة التجميلية، وطرق صبغ الشعر، وفوائد الريجيم، وأسرار اللانجيري، وكيف يمكن حشو الكوسا والباذنجان بطريقة ترضي بطن الزوج – بما أنّ بطنه طريق المرأة إلى قلبه كما يقال لنا منذ الصغر – إلى ما هناك من هموم وشجون غالباً ما يتمّ ربطها بعالم النساء المزعوم.

فهل تنتمي هذه المجلات إلى الإعلام النسوي؟ قطعاً لا.

في بلاد لا تزال تعتبر المرأة زينةً وديكوراً، وتُستخدَم فيها صورتها وجسدها لبيع كل شيء، من التلفزيونات والبرّادات وصولاً إلى مفكّات البراغي، لا نزال نفتقر إلى إعلام نسوي حقيقي.

ولأوضح، لمن يخاف من صفة "النسوية" ولمن يجهل معناها على السواء:

لا يعني الإعلام النسوي الدعوة إلى إلغاء الرجال لكي تحلّ النساء

مكانهم في مجالات الحياة الخاصة والعامة.

لا يعني الإعلام النسوي التبشير بفوائد إخصاء الذكور وتأنيثهم لكي تنعدم الفوارق الخلاّقة والضرورية بين الجنسين.

ولا يعني الإعلام النسوي، أيضاً وخصوصاً، تتفيه المرأة وتحويلها مجرّد جسدٍ ينبغي له إرضاء العين الذكورية بكل السبل المتاحة له في عالمنا الحديث.

الإعلام النسوي يعني، أولاً، أن يُخلق لدى المتلقي والمتلقية على السواء، وعيٌ بأنّ المرأة كائن حرّ مستقلّ قائم بذاته، وليس ملحقاً بأحد.

الإعلام النسوي يعني تحفيز النساء على الإيمان بقدراتهنّ وأصواتهنّ ومواهبهنّ، واستثمارها في سبيل مجتمع يقوم على العدل والمساواة.

الإعلام النسوي يعني إنقاذ المرأة من صورة الضحية التي تُلصَق بها على الدوام، والتي تُلصِقها هي بنفسها غالباً بسبب غسيل الأدمغة الذي تتعرض له منذ الصغر. الإعلام النسوي يعني زعزعة الهيكليات السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية التي تقع في شكل شبه حصري تحت سيطرة الرجال.

الإعلام النسوي يعني محاربة اللامبالاة حيال التمييز الفظيع ضدّ المرأة في لبنان، من عنف وكره وتغييب وإسكات وتهميش وقمع وظلم ولامساواة في الحقوق.

لماذا أقول هذا؟ لأنّي كلما اعترضتُ وكتبتُ وأبديتُ غضبي حيال الوضع القائم، أجابني كثر: أنتِ تبالغين. المرأة اللبنانية بألف خير. انظري إلى المرأة السعودية. أين نحن من معاناتها؟

المرأة اللبنانية بألف خير إذاً؟ كيف؟ وأين؟

هذا هو السؤال الذي ينبغي للإعلام إثارته بإصرار وإلحاح و"مبالغة".

أما طرق حشو الكوسا والباذنجان – بالإذن من بطون رجالنا وقلوبهم – فهذه مسألة تستطيع الانتظار.

~

فضلاً عمّا سبق، إنّ الدفاع عن قضايا المرأة يجب ألاّ يكون شعاراً محض نسوي، أو محض نسائي. كذا يقال عن مناهضة الذكورية التي يجب ألاّ تكون قضية ترفعها النساء فحسب. ناهيكم بأنّ مكافحة الظلم والقمع غالباً ما تقع هي نفسها في فخّ التمييز الإيجابي. لعلّ أفضل مثال على ذلك هو وجود يوم عالمي للمرأة: يمثّل هذا اليوم في ذاته اعترافاً بالذنب، إذا ما فكّرنا مليّاً في معنى المناسبة. كأنّي بالعالم البطريركي يقول: "نعرف أنّ معظمنا يسيء معاملة معظمكنّ. نعرف أنّنا لا نكترث بالعنف والكره والقمع والظلم واللامساواة التي تعانينها. فقررنا تخصيص يوم كامل للاحتفاء بكنّ". يا نساء العالم ابتهجنَ!

ليست المناسبة اعترافاً بالذنب فحسب، بل هي أيضاً مهينة. إنّها تقوم في الجوهر على مكافحة التمييز بالتمييز الإيجابي بدلاً من إرساء العدل والمساواة. الأنوثة إعاقة على ما يبدو. هذا لا يختلف عن واقع أنّ ثمّة أنطولوجيات للكاتبات ولكن ليس للكتّاب الذكور؛ أنّ ثمّة معارض مخصصة للفنانات ولكن ليس للفنانين كجماعة في ذاتها؛ أنّ هناك نظام "كوتا" للنساء ولكن ليس للرجال: تربيتة ناعمة على أكتافنا النسائية الهشّة، بما أنّنا نحتاج على الدوام إلى التشجيع والحماية والمساعدة والتهييص وهلمّ جرّا.

الثامن من آذار يومنا إذاً، وينبغي لنا أن نحتفي به شئنا أم أبينا. الزعماء السياسيون في جميع أنحاء العالم يوردون سطرين أو ثلاثة حول "قيمة" المرأة في خطبهم المجيدة؛ التلفزيونات تخصّص وقتاً ثميناً للتغني بفضائلنا؛ القادة الروحيون يعظون الرعايا حول أهمية تكريم "الضلع" المطيعة. هكذا ينام الجميع بضمائر مرتاحة.

ولكن مهلكم، بمَ نحتفي بالضبط؟

هل بواقع أنّ ملايين النساء في العالم أجمع محرومات من حقوقهنّ البديهية لا لسبب سوى لكونهنّ إناثاً؟ هل بواقع أنّ معظم النساء العربيات، بمن فيهنّ اللبنانيات، يُعتبرنَ مواطنات من الدرجة الثانية؟

احتفاء؟ عيد؟ ابتهاج؟ أعيدوا النظر يا جماعة. ليس هناك من مبرّر لتقديم التهاني.

ولعلها لن تصير مبرّرة قبل أن نشرع في الاحتفاء بيوم عالمي للرجل

أيضاً.

~

الهوة سحيقة اليوم بين الأنوثة والذكورة، ومن الصعب ردم العمق التراجيدي بينهما من دون أفكار حياتية خلاّقة، من مثل: الرجال والنساء معاً، وفي آن واحد، ضدّ التطرف والاعتداء على الكرامات. هذا هو بعض ما تدعو إليه فلسفة "ما بعد النسوية".

موقفٌ كهذا يتطلّب قلب الطاولة، "طاولة الرجل هنا والمرأة هناك"، على مَن حولها. أقلّ من ذلك يُعتبر نشاطاً مجتمعياً مداهِناً ومجامِلاً، بل يُعتبر استمراراً في اتباع منطق الخبث والتكاذب الذي يتحكم بجوهر العلاقة بين الرجل والمرأة.

لا بدّ والحال هذه من "ثورة" جذرية، بنيوية، غير عنفية، وغير لفظية، وغير شعاراتية، وغير فئوية، تطاول لبّ العقل النسائي والرجالي على السواء وتعيد اختراع مفاهيم الأنوثة والذكورة على السواء.

تغيير ذهنية الرجل وسلوكه لا يتمّ من طريق القضاء عليه بل من طريق الصبر والانتظار والعمل الدؤوب والاحترام المتبادل: تحويل الرجل "شيطاناً" لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة، بل جلّ ما سيؤدي إليه هو توسيع الهوّة بين المرأة والرجل وزيادة أعراض الفصل بينهما.

لأجل ذلك، نحن في حاجة اليوم، وهنا، إلى نوع آخر من النساء: أولئك المكافحات، اللواتي يقاتلنَ بأظفارهنّ للحصول على مبتغاهنّ من دون أن يحتجنَ إلى ابتزاز الرجل ولا إلى إلغائه.

~

بطبيعة الحال، لا أريد أن أنكر البتّة أهمية المكاسب التي انتزعتها التيارات النسوية في الستينات. فأنا امرأة تدين بالكثير للحركة النسوية. من دون أولئك المناضلات الشجاعات، من دون كفاحهنّ وأفكارهنّ وكتاباتهنّ، ما كنت لأكون الإنسانة التي أنا عليها اليوم. من دونهنّ لكانت هذه الأرض مكاناً أكثر تعاسةً وظلماً وتفاهةً. كما إنّني لا أطلق في شأنهنّ التعميمات، ولا سيّما أنّني أعلم علم اليقين أنّه لا يمكن اختصار الموجة النسوية الثانية بكليشيه "كره الرجال". جلّ ما أقوله هو: "نحن ممتنّون وممتنّات لأنّكنّ مهّدتنّ لنا الطريق. لكن من

حقّنا أن نتابع الكفاح على نحو مختلف".

السؤال هو: ترى هل من الممكن، في العالم العربي، تجاوز ورطة النسوية "القديمة" والانتقال فوراً إلى مرحلة النسوية الجديدة، من دون أن يكون ذلك مرادفاً بالضرورة لحرق المراحل؟

أقول: نعم. يكفي في سبيل ذلك أن نتعلّم من "كيس" سابقاتنا، وأن نجتنب الأخطاء التي وقعنَ فيها، والتي نحن في غنىً عنها.

لنبدأ من النقطة الصفر: ضدّ النسوية وضدّ الذكورية على حدّ سواء، بمعنييهما المتطرفين، الرافضين للآخر، المنغلقين على نفسيهما. على أن يجتمع تحت سقف هذا الضدّ الرجال والنساء، معاً وفي آن واحد.

~

غالباً ما أشعر بأنّ تجلّيات "الصراع" المزعوم بين المرأة والرجل، إنما يمكن اختصارها بكلمة واحدة: حبّ السيطرة. الرجل يحاول أن يفرض سيطرته بقوّة عضلاته تارةً (والعضلات هنا ليست بالمعنى الجسدي فحسب)، وطوراً بقدرته على تأمين المستلزمات المادية ضمن العلاقة؛ في حين تحاول المرأة أن تسيطر من خلال غواية الفعل الجنسي والإحاطة العاطفية، أي أنّها تبتزّ الرجل بقدرتها على رفض منحه الراحة الجنسية والشعورية التي يحتاج إليها. عندما تتجسّد هذه المواجهة على شاكلة رقصة تانغو خلاّبة، أو ممارسة جنسية خاطفة للأنفاس، تكون لعبة التحدي المتبادل تجربة رائعة ومثيرة للغاية. ولكن عندما يؤدي شدّ الحبال إلى أن يضرب رجلٌ امرأة، أو إلى أن تعنّف امرأةٌ رجلاً، كلامياً وعاطفياً (بمعنى أنّ تجرّده من رجولته)، فالأمر مدمّر للروح والجسد على السواء، ولا خلاص من الحلقة المفرغة. تقولون إنّه صراع الجنسين؟ ألم يحن الوقت بعد لنعلن التعادل، ونبدأ بتحدّي أنفسنا عوض الآخر؟

نظرية صراع الجنسين هي أيضاً نتيجة مباشرة لما تكيّفنا عليه، رجالاً ونساءً، من ممارسات تنميطية متنوّعة طبعت تصوّرنا لنوعنا الجنسي منذ نعومة أظافرنا، وهي ممارسات تظلّ تُفرَض علينا حتى بعد بلوغنا سنّ الرشد، من خلال رسائل "خفيّة" ليس من السهل إدراكها بالوعي. ليت الأمر كان مقتصراً على إحاطة البنات بالدمى وإلباسهنّ اللون الزهري، مقابل إحاطة الصبيان بالمسدّسات وإلباسهم الأزرق!

الحقيقة أنّ الثنائيات المصطنعة التي تسحق المرونة الجنسية هي، لسوء الحظ، لا تُعدّ ولا تُحصى.

ولكن، أبعد من التصنيف الكارثي للأفراد حصراً، كمتغايرين أو مثليين جنسياً (المتغاير الجنسي المسيطر يمثّل النمط الشرعي والطبيعي، بينما المثليّ جنسياً المهمّش يعتبر هو "المنحرف")، وكلّ العلامات والتسميات التافهة التي ترافق مثل هذا التصنيف المحدود والمُحِّد، لا بدّ أيضاً من ذكر بعض الأمثلة على الثنائيات الخطيرة التي تغسل أدمغتنا، كمثل صيغة الذكر المعيل /الأنثى المتلقية. بالفعل، بدءاً من اليوم الذي اكتشف فيه الرجل النار وشرع يصطاد الطرائد، وبدأت المرأة تطهو ما يحمله إليها من لحوم، نحن واقعون في شرك فكرة مفادها: "هو يؤمّن، وهي تستهلك".

من الأمثلة الأخرى على هذه النظرة النمطية الخاطئة إلى "الأنوثة" و"الذكورة"، صيغة الذكر المُفترِس/ الأنثى الفريسة: أعني الطريقة التي لا تزال العديد من النساء يصوّرنَ بها أنفسهنّ كـ"مانحات" جنسياً، بينما الرجال هم "الآخذون". أمّا الحقيقة فهي أنّ العلاقة الجنسية لا تنطوي لا على مانح ولا على متلقٍّ، بل إنّ كلا الطرفين مانحٌ ومتلقّ في الوقت عينه. هنا ألفت إلى إحدى العبارات الشهيرة المستخدمةً في اللغة العربية لوصف امرأة تمارس الجنس مع رجل، وهي: "استسلمت له". لكن، ألم يقم هو "بتسليمها نفسه" أيضاً؟ أليست "المكاسب" التي تجنيها هي، من العملية، مساوية لما يحصل عليه بدوره؟

يردّنا هذا الأمر طبعاً إلى قضية عدم امتلاك المرأة جسدها (فوق ذلك، عدم إيمانها بأنّها تملك جسدها). بات من الضروري أن ننبذ المخطّط الذي يصوّر أجسادنا النسائية كجائزة ليس إلاّ. حريّ بنا أيضاً ألاّ نمارس الألاعيب سعياً لجذب انتباه رجل معيّن. إذا لم نتمكّن من جذب انتباهه من خلال التصرّف على طبيعتنا، فما جدوى الأمر إذاً؟ إذا كان الرجل بحاجة إلى امرأة "تنسج الحبائل والمكائد" كي تنجح في إغوائه، فهو إذاً ضعيفٌ، وسطحيّ، ومثير للشفقة، وغير جدير بها. والعكس بالعكس.

كفى تخطيطاً ومفاوضةً على أنفسنا مع الرجال من أجل حملهم، بالحيلة والمراوغة، على الوقوع في غرامنا. يجب ألاّ نكتفي بأن يحملنا النهر، بل ينبغي أن نسبح في مياهه أيضاً. آن الأوان لكي تفكر كلّ

واحدة منا على الشكل الآتي: "إنّني أمثّل تحدّياً لأنّني أتصرّف على طبيعتي، لا لأنّني بحاجة إلى "إقناع" الآخر بأهميتي بواسطة لعبة سخيفة. إنّني أمثّل تحدياً لأنّني بحاجة إلى مَن يقهر عقباتي المتعددة، لا عقبة جسدي فحسب. إنّني أمثّل تحدّياً لأنّه إذا كان الحصول عليَّ أمراً صعباً، فالمحافظة عليَّ أصعب بكثير".

أكرّر: ليس الأمر إلاّ مكيدة من صنع النظام البطريركي، يموضع بموجبها المرأة كـ"مادة رغبة" بينما يكون الرجل هو "المعاين" أو "الزبون" أو "الشاري". لذا يجب عليها أن تكون ماهرة في تسويق محاسنها أو الترويج لها (هنا، نرى مجدّداً متلازمة شهرزاد)... وبهذا تُرضي حاجته المَرَضية إلى الغزو و"الفتح"، وتنال بدورها ما تريد. فتضرب عصفورين بحجر واحد.

لكن أن يرغب المرء في شيء ما ويشتهيه ويتمنّاه، من دون السعي إلى نيله بنفسه، ما هو إلاّ شكل آخر من أشكال الاستسلام. زد على ذلك أنّ الصيادين الحقيقيين ليسوا بحاجة إلى رماح (أعني بها القوّة الجسدية). حسبهم الوقوف في وجه فريستهم والتحديق في عينيها. التصيّد هو مواجهة خوفكَ مما تريد الحصول عليه، إلى أن يشيح خوفكَ بوجهه أولاً أو يسدل نظراته بعيداً عنك.

بناءً عليه أقول: الرجل والمرأة كلاهما صيّاد، وكلاهما أيضاً طريدة. كلاهما مفترِس وفريسة. إذا أعجبنا شخصٌ ما فعلاً، فحريّ بنا أن نتحلّى بما يَكفي من الشجاعة والثقة بالنفس لإظهار ذلك على الملأ. أما إذا لم يقدّر ذلك الشخص مشاعرنا، بل سلّمَ جدلاً بوجودنا، واتّضح أنّه مجرّد إنسان سطحيّ يحتاج إلى أن يعيش وهم "المرأة التي ترفضه ظاهراً لكنّها تريده ضمناً"، فليذهب إلى الجحيم.

لسوء الحظ، في معظم الحالات، ما إن تقول لشخصٍ كهذا (رجلاً أكان أم امرأة) أن يذهب إلى الجحيم، حتى يدرك كم أنّه يريدكَ، ويبدأ بلعبة مطاردتكَ. لكن، حينذاك، يكون الأوان قد فات.

~

من الأمثلة المهمّة الأخرى على هذه النظرة المبرمجة إلى الرجل والمرأة، من جانب الرجل والمرأة نفسيهما، هي صيغة الرجل الفاعل/ المرأة المفعول بها، التي تتجسّد أكثر ما تتجسّد في انبهار معظم النساء عبر التاريخ بأن يكنّ "ملهمات" لهذا المبدع أو ذاك.

بالنسبة إليَّ، صفة "الملهمة" ليست إلاّ طريقة أخرى للنظر إلى المرأة بصفتها "مادّة" عوض كونها "لاعبة أساسية". لكأنّها ما وُجدت إلاّ لتلهم الآخرين، بدل أن تعبّر عن آرائها الخاصة. إنّها عملية سطو على إمكاناتها الإبداعية الخاصة: وهي جريمة خطيرة جداً (في بعض الأحيان انتحارٌ واضحٌ وصريح تُقدم عليه المرأة، متنكّرةً وراء تمجيد دور المرأة "كالريح التي تحرّك جناحَي الرجل"). لكن كفى لعباً لدور الريح. آن الأوان كي نكون نحن الأجنحة.

لا تسيئوا فهمي: أنا لا أمانع أن أساهم في تحفيز الآخرين، بل على العكس. أحبّ أن أجدني متغلغلةً في قصيدة أو لوحة أو لحن موسيقي. لكن ليس هذا ما يحدّدني. فأنا، أولاً وأخيراً، خلاّقة قبل أن أكون ملهمة خلق.

هيا إذاً أيّها السادة. لقد حان دوركم لتكونوا "المادة"، لتكونوا منظوراً إليكم ومفعولاً بكم: فانهضوا وألهِمونا.

~

آن الأوان هنا للحديث عن "الربيع العربي" وعمّا إذا كان يشكّل، فعلاً، "ربيعاً" بالنسبة إلى النساء العربيات.

في بداية عهد الثورات، التي اجتاحت العالم العربي في أوائل العام ٢٠١١، أذكر أنّ الأمين العام للأمم المتّحدة، بان كي مون، دعا النساء العربيّات إلى الإفادة من رياح التغيير التي كانت تهبّ على منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من أجل تعزيز حقوقهنّ. وصرّح، في بيان صدر عن مركز الأمم المتّحدة للإعلام، بأنّ الثورتين في تونس ومصر تشكّلان فرصةً ثمينة لتعزيز الديموقراطية وحقوق الإنسان، وبأنّ هاتين الثورتين ستشكّلان، إذا تمّ التعاطي معهما على نحوٍ مناسب، خير نموذجٍ للتغيير في العالم العربي وما يتعدّاه. فضلاً عن ذلك، دعا بان كي مون السلطات الدولية إلى تقديم دعمها المتين للنساء في هاتين الدولتين.

لعلّ الأمين العام لم يدرس الواقع على الأرض آنذاك قبل أن يعبّر عن تفاؤله برياح التغيير التي هبّت على العالم العربي، وهو تغيير طال انتظاره في حياة النساء العربيات اللواتي يتقن إلى استعادة حياتهنّ المسلوبة. فلنلقِ إذاً نظرةً على بعض الأرقام:

حقّق حزب "النهضة" الإسلامي في تونس فوزاً ساحقاً، منتزعاً ٨٩ مقعداً من أصل ٢١٧ مقعداً في المجلس الوطني التأسيسي، خلال أول انتخابات ديموقراطية شهدتها البلاد إثر الانتفاضة الشعبية التي نجحت في طرد الديكتاتور زين العابدين بن علي. أما في مصر فقد حققت الأحزاب الإسلامية نجاحاً ساحقاً ما بعد عهد مبارك، إذ فاز "حزب الحرية والعدالة" التابع لجماعة "الإخوان المسلمين" بأكبر عدد من المقاعد البرلمانية، تلاه في المرتبة الثانية "حزب النور" السلفيّ المتشدّد. هل انحصرت هذه الظاهرة بالبلاد التي اندلعت فيها الثورات؟ كلاّ، على الإطلاق. فقد فاز الإسلاميون بدورهم في دول مثل المغرب والكويت، ومن المؤكّد أن تحذو دولٌ أخرى حذوهما، مثل ليبيا واليمن وغيرهما.

لم يخطئ صديقي الكاتب التونسي، الناشط في المجتمع المدني، في وصفه لوضع بلاده عندما قال لي: "حالنا كمن صام أربعين سنة وفطر على بصلة". البصلة طبعاً هي حكم "النهضة" الحالي، وما يستتبعه من تضييق على الحريات، وتراجع في دور النساء التونسيات اللواتي لطالما كنّ رائدات في العالم العربي على مستوى تحصيل الحقوق وأداء دور فاعل سياسياً وأكاديمياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً. لا بل قد تكون التونسيات سبقنَ بعض نظيراتهنّ الأوروبيات في هذا المجال. كل هذا يجعل "الفَكرة" الإسلامية التي جاءت بعد "السكرة" الثورية أشدّ إيلاماً لغالبيتهنّ في الأقل.

رغم هذا كلّه، لا تستحقّ تونس الخذلان، ولا اليأس. نادراً ما لمستُ في بلد عربي آخر هذا القدر من الطاقة الشبابية والإيمان بالتغيير والرغبة في حياة أكثر كرامةً والإصرار على متابعة الكفاح. قد يكون أبلغ دليل على ذلك، الحديث الذي دار بيني وبين سيدة تونسية مجهولة في مطار قرطاج، بينما كنا نتشارك جلسة تدخين في القاعة المخصصة لهذا الغرض. أمام مشهد امرأة منقّبة عبرت أمامنا، التفتت السيدة إليّ وقالت: "هل ترين هذه المرأة؟ إنّها تشعرني بالغثيان. تخفي نفسها كمَن يخفي عاهة أو مرضاً مشوّهاً. إنّها امرأة تمتثل بدلاً من أن تفكّر. تمتثل لضغوط زوجها أو عائلتها أو بيئتها. لكن لا تظنّي أن هؤلاء النساء يمثلننا. لن نسمح لهنّ بذلك. عيبٌ على ثقافتنا وأرضنا وتاريخنا أن نسمح لهنّ بذلك".

لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هنا هو الآتي: لِمَ صوّت العرب بكثافة لمصلحة الإسلاميين في مراحل ما بعد الثورة؟ الجواب واضح:

لأنّ هؤلاء قد تمكّنوا، بكلّ بساطة، من إقناع الجماهير المقهورة، الباحثة عن أيّ مصدر للراحة أو العزاء خلال حكم الديكتاتوريات الفاسد، بأنّهم المجموعة السياسية الأكثر أهلاً للثقة في المجتمع. تستند هذه الثقة الموهومة إلى تصوّر عام يوحي بأنّ الإسلاميين يتمتّعون بالصدق والعدل، وبأنّهم جديرون بالثقة وغير فاسدين، ومن شأنهم أن يديروا الحياة العامة بما يراعي القيم الإسلامية الجوهرية. ولكن عن أيّ نوع من التغيير الإيجابي نتكلم إذا كانت الدول ستخضع لنظام حكم يستند إلى القوانين الدينية؟

لا تسيئوا فهمي: كلماتي هذه لا ترمي، لا من قريب ولا من بعيد، إلى الإشادة بالديكتاتوريين والأنظمة الديكتاتورية. على رغم ذلك، لا يمكنني إلاّ أن أقلق حيال التأثير المتزايد للإسلام المتطرّف (بجناحيه السنّي والشيعي على السواء) في الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة. ناهيكم بأنّ هذا الإسلام الراديكالي المنغلق على نفسه إنّما يخدم قضية اليمين المتطرّف في الغرب؛ غرب يصدر قوانين قامعة ضدّ الإسلاميين، من دون أن يكمّلها بعمل ميداني قائم على التنوير الثقافي والعصرنة – وهي نقيصة لا يمكن أن تُنتج إلاّ المزيد من المتطرّفين من كلتا الجهتين، وتعزّز الحلقة المفرغة، خصوصاً في ظلّ الظروف الاقتصادية الصعبة التي غالباً ما يرزح تحتها المهاجرون المسلمون في الغرب. لا أستطيع إلاّ أن أشمئز من طريقة الترويج للتقدّميين الزائفين في الغرب، أمثال طارق رمضان، على حساب أعمال مفكّرين مسلمين متحرّرين فعلاً، مثل محمد أركون أو الراحل نصر حامد أبو زيد، اللذين دافعا عن إنشاء أنظمة ديموقراطية علمانية حديثة، وفصل الدين عن الدولة. لا يمكنني إلاّ أن أقلق على مصير المنطقة، تحديداً نساء المنطقة، إذا كان الذي يخلف الديكتاتور حاكماً لا يقلّ عنه سوءاً: أي نظام أصولي رجعيّ، يستند إلى قدر أكبر من كراهية النساء، والعنف، والبطريركية، والتمييز الجنسي، والتعصّب، إلى جانب ممارسات لا إنسانية أخرى.

المؤسف أنّنا غالباً ما نضطرّ، نحن العرب، إلى الاختيار ما بين وحشين. وبقدر سعادتي بسقوط وحش الديكتاتورية، فأنا قلقة أيضاً حيال انبثاق هذا الوحش الجديد وتسلّمه زمام السلطة. لا شكّ في أنّ التخلّص من الديكتاتوريين أمرٌ أساسي. ولا شكّ في أنّ مكافحة الجوع والظلم خطوة ضرورية. كما أنّ وضع حدٍّ للفساد والتصنيف الطبقي حاجة ملحّة أيضاً. لكنّ مكافحة إغراء التطرّف الديني أساسيّ كذلك، واحترام حقوق المرأة وكرامتها وتشريع هذه الحقوق ضروريّ أيضاً

وخصوصاً: أعني التخلّص من الأدوات والأنظمة البطريركية التي تدّعي "حماية" المرأة وتستغلّ هذه الحماية المزعومة لتبرّر قمعها لها واستبدادها بها.

~

في بداية آذار/مارس ٢٠١١، عندما كان العالم بأجمعه – لا سيّما الغرب – غارقاً في الابتهاج والاحتفاء بـ"رياح التغيير" في العالم العربي، أذكر أنّي نشرتُ مقالاتٍ في صحف مثل كوريري ديلا سيرا (إيطاليا) ودي فيلت (ألمانيا) أعبّر فيها عن قلقي وشكوكي، بسبب الأخطار الكبيرة التي كانت تحدق بالنساء خلف ستار الأحداث الظاهرة. انتقدني الكثيرون حينذاك معتبرين أنّني "نذير شؤم". لكنّ الوقت أثبت، لسوء الحظ، أنّني كنت على حق. ولكم وددتُ لو كنتُ مخطئة في تقييمي وقراءتي.

اسمحوا لي بأن أجسّد خيبتي هذه بأمثلة ملموسة: أصدرت منظّمة العفو الدولية تقريراً مفاده أنّ العديد من النساء اللواتي تظاهرنَ في القاهرة وشاركنَ في ثورة ٢٥ يناير قد تعرّضنَ للضرب والتعذيب والإهانة، لا بل أُرغمنَ على الخضوع لفحوص عذرية. لعلّ إحدى القضايا التي تصدّرت العناوين في هذا المجال هي قضية الناشطة المصرية سميرة إبراهيم التي كانت أولى من أعلن أنّها تعرّضت لهذا النوع من الانتهاك، إلى جانب ستّ نساء غيرها، في سجن عسكريّ زُجّ بها فيه طوال الليل، بعد توقيفها في ميدان التحرير. من الأمثلة الأخرى قضيّة الصحافية المصرية الأميركية المقيمة في نيويورك، منى الطحاوي، التي تعرّضت للضرب والاحتجاز في وزارة الداخلية في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١ في خضمّ تجدّد التظاهرات في ميدان التحرير. هناك، تمّ احتجازها لاثنتي عشرة ساعة، تعرّضت فيها للاعتداء الجسدي، من مثل كسر في ذراعها اليسرى ويدها اليمنى.

عندما سمعتُ بالأخبار التي أوردتُها أعلاه، شجبتُ بنبرةٍ شديدة اللهجة كلّ الفظائع التي تعرّضت لها هؤلاء النساء وغيرهنّ، وشعرتُ بالاشمئزاز. لكنّي شاهدتُ في الآن نفسه تقريراً تلفزيونياً تناول، في أحد مشاهده، محاميةً مصرية تشرح لحشد من النساء المنقّبات أنّ "الإناث لم يُخلقنَ للمشاركة في الحياة السياسية". أجهل كيف لامرأة تملك أدنى درجة من الاحترام لنفسها أن تدلي بمثل هذه التصريحات الرهيبة، لا سيّما إذا كانت تتقلّد منصباً نافذاً ويتخذها الناس مثالاً

يُحتذى به. كما أجهل أيضاً كيف لامرأة أن ترشّح نفسها للانتخابات النيابية، طابعةً صورة زهرة عوض صورتها الشخصية على ملصقات حملتها الانتخابية – وهذا بالضبط ما جرى مع العديد من مرشّحات "حزب النور" السلفي في مصر – بينما فضّلت مرشّحات أخريات وضع صور أزواجهن على الملصقات. لا تعليق.

اسمحوا لي بأن أضرب لكم مثالاً آخر يفسّر ما أتحدّث عنه: قيل لنا أخيراً إنّ السعوديات قد اكتسبَن "حقوقاً سياسية" جديدة بعد طول نضال. لكن هل سيحسّن هذا الأمر من وضع النساء في دولة تنتمي إلى العصر الحجري، ولا تزال، على سبيل المثال لا الحصر، تمنع على نسائها قيادة السيارات، وتعاقبهنّ بالجلد إن فعلنَ ذلك أو إن غادرنَ بيوتهنّ من دون تغطية وجوههنّ؟ وهل سيُحدث هذا الأمر فارقاً في دولةٍ تقف فيها العديد من نسائها ضدّ نيل حقوقهنّ الخاصة؟ بالفعل، هذا ما رأيناه عندما أقدمت مجموعة من الناشطات السعوديات على توجيه انتقاد شديد اللهجة إلى الانتهاك "المثير للاشمئزاز" الذي تشكّله قيادة المرأة للسيارة، زاعمات أنّ أيّ امرأة تُقدم على مثل هذا العمل "تستحقّ أن يُبصَق عليها وتُعاقَب من غير رحمة"؟ هل يمكن أن يؤدي هذا الأمر إلى تحسين نوعية حياة المرأة، في وقتٍ لا تزال معرّضةً للجلد في حالات الزنى، ولا تقدر على التحرّك أو السفر من دون إذن وصيّ عليها؟

لا أملك إلاّ أن أشكّك كلّ التشكيك في هذا الأمر.

~

عندما صدر كتابي هكذا قتلتُ شهرزاد: اعترافات امرأة عربية غاضبة، سألني الكثير من الأشخاص، قرّاءً وصحافيين: "ما أكثر ما يغضبكِ؟"، وكنت أجيب دائماً: "أكثر ما يغضبني أن ليس في العالم ما يكفي من الأشخاص الغاضبين". نعم، هذا العالم بحاجة إلى المزيد من الرجال والنساء الذين يثورون غضباً وحنقاً: رجال ونساء يؤمنون إيماناً راسخاً بأنّ حقوقهم المدنية لا تحتلّ مرتبة ثالثة أو رابعة على لائحة الأولويات.

تعاني النساء في هذه البقعة من العالم تمييزاً شديداً وصارماً يمثّل انتهاكاً فاضحاً لحقوق الإنسان. تتنوّع هذه الانتهاكات ما بين تزويج القاصرات، وحرمان المرأة من التعليم، والحدّ من حريّتها في التنقّل، وقمع حقّها في امتلاك قرارها وفكرها وجسدها، ووضعها في مركز

اجتماعي واقتصادي وتربوي وعملي متدنٍّ، إلى ما هنالك من الأمثلة التي لا تُعدّ ولا تُحصى. فهل الثورات التي اندلعت وتندلع في العالم العربي تشمل بين عناوينها نصرة قضايا المرأة وإيجاد حلول لهذه الانتهاكات؟ من المؤكّد أنّ الدلالات ليست واعدة في أقلّ تقدير، وأننا ما زلنا بعيدين عن التخلّص من الاحتكار البطريركي لمظاهر الحياة الخاصة والعامة والسياسية وسواها.

في ظلّ الأنظمة العربية (الساقطة منها وتلك التي لا مفرّ ستسقط) القائمة في معظمها على تجاهل حقوق النساء وانتهاك كرامتهنّ، متى تنتقل المرأة في العالم العربي من لازمة "أعطوني حقوقي" إلى صرخة "سآخذها بيديَّ، حقوقي"؟ متى تؤمن بأنّ حقوقها هذه ليست ترفاً، بل أولوية؟ متى تصدّق أنّها لم تولد فقط لتتزوّج وتنجب وتطيع وتختبئ وتباع وتخدم ذكور عائلتها؟ متى تعي أنّ الحديث عن الديموقراطية هراء، من دون استتباب مساواتها مع الرجل في إطار علماني؟ وأنّ الحديث عن الحرية هراء، من دون احترام حرياتها؟ وأنّ الحديث عن التغيير والتحديث هراء، من دون النظر في وضعها وموقعها؟ متى تستشيط حيال الإهانات الهائلة التي تلحق بها وتهدف إلى إلغائها يومياً، وفي المجالات كلّها؟ متى تقفز من شرنقتها وتتحوّل فراشةً شرسة تحفر طريقها بأظفارها الناعمة والحادة في آن واحد؟ متى تستخدم فكرها وصوتها ولسانها، بدلاً من أذنيها فحسب؟ ومتى تكفّ، خصوصاً، عن المساهمة في ترسيخ النظام البطريركي وقيمه البالية وأسلاكه الشائكة؟ في اختصار: متى تنفجر "قنبلة" المرأة العربية؟ أعني قنبلة قدراتها وطموحاتها وحريتها ومكانتها وحقوقها؟ قنبلة غضبها على ما يُفرَض عليها فرضاً وتقبله غالباً كقَدَر من دون مساءلات؟

يسمّونه "ربيعاً"! بالنسبة إليَّ، ما هو إلاّ شتاء آخر، أو على الأقل مجرّد ربيع "تجميليّ". ولكن، في مطلق الأحوال، لا بدّ من أن ينطلق المرء من بداية معيّنة، حتى وإن كانت هذه البداية ناقصة أو مخيّبة. هذا لأقول إنّ الإسلاميين الذين انتُخبوا للحكم اليوم سيسقطون في الانتخابات المقبلة إذا قدّموا أداءً متردّياً (وسيقدّمونه من دون شك)؛ في حين أنّ هذا "الترف" الديموقراطي لم يكن متاحاً مع الديكتاتوريين الذين شهدنا على سقوطهم، أولئك الذين كانوا يزعمون أنّهم "انتُخبوا" بنسبة ٩٩.٩٩%. لعلّ إسقاط حاكم ديكتاتوريّ يمثّل خطوةً خجولة أولى نحو إيجاد بديلٍ وافٍ، وإن لم يكن البديل يمثّل الخيار المثاليّ منذ المحاولة الأولى. لا يزال على الشعوب التي اختارت الأحزاب

الإسلامية، كممثّلٍ لها في سدّة الحكم في مرحلة ما بعد الثورات، أن تختبر أهوال هذه الأنظمة وفظائعها، وتعيش مشقّات شتاءٍ آخر – عساه يكون الأخير – قبل أن تدرك أنّها أخطأت في حكمها، فتبدأ بالانتقال نحو تغيير إيجابي حقيقي. إنّ الانتقال من الأوتوقراطية إلى الديموقراطية، ومن الديكتاتورية إلى التعددية في العالم العربي كان يجب أن يمرّ، حتماً، بمرحلة حكم إسلامي. فلنعتبرها شرّاً لا بدّ منه. ولنفعل ما في وسعنا لكي نهزم العاصفة قبل أن تقتلعنا.

٨ ـ كارثةٌ اسمها العفّة

"أفضّل الرذيلة الصامتة على الفضيلة المتفاخرة بنفسها".

ألبرت آينشتاين

القصيدة

وليمة امرأةٍ نهمة

بدايةً سأسلخ

تلك البقعة الرقيقة من الجِلد

عند الجانب الأيسر من عنقكَ

حيث دموعي

وقطرات عرقكَ

تهرع للاختباء.

ثمّ أجنح صوب شفتيكَ

الفاصلتَيْن بين جوعي وبينكَ

وسألعقهما على مهل

بنار شفتيَّ

ثمّ أمصّ لسانكَ

هذا القوس السائل

الذي ينادي باسمي كسهمٍ

ثمّ أمضغ عينيكَ

هاتين النافذتين الحادّتين

المفتوحتين على مصراعيهما

أمام آهاتي الناضجة

ثمّ أقضم أصابعكَ

هذه الشعلات الحارقة

الهائمة فوق جسدي

ثمّ أشرب ثلاث قطرات من حليبكَ السامّ

لأُغرق ظمئي

في ظمئك.

وسوف في النهاية

أشقّ صدركَ

وأنتزع من ضلوعكَ السبع

رجلاً ثامناً يشبهكَ

ثمّ أبدأ بالتهامكَ

حتى لا يبقى منكَ شيء

إلاّ

طعم جوعي.

المرافعة

القضيب: إرشادات الاستعمال

"ما الجنتلمان سوى ذئب صبور"

وينستون تشرشل

عزيزي الرجل،

لا داعي للقلق: لن أردّد على مسامعكَ تلك اللائحة الاعتيادية من الكليشيهات التي تصبّ في خانة "لذّة المرأة تأتي قبل لذّتك". لا شكّ أنّهم أمطروكَ بهذه العبارة مراراً وتكراراً إلى درجة أنّكَ تعلّمتَ درسكَ بحلول اليوم، حدّ أنّ هذه الفكرة باتت تستحوذ عليكَ كلّما أقدمتَ على فتح زمام سروالكَ. وبما أنّ روحي رياضية، سوف أقرّ أنّكَ لا بدّ تعيش، في العلاقة الجنسية، رعب ألاّ تكون أداتكَ منتصبة وجاهزة للعمل، لأنّ هذا ما هو متوقّع منكَ. المصطلحات التي تحطّ من شأن الذكر وتستصغر قيمته كلّما عجز عن بلوغ الانتصاب المنشود عند الطلب لا تُعدّ ولا تُحصى: لا ريب في أنّ كلّ هذه الضغوط لا تسهّل عليكَ حياتكَ.

فضلاً عن ذلك، لن أستعرض هنا التكتيكات المؤسفة التي لُقِّنتُها للتمهيد للعلاقة الجنسية: أعني بها تلك الجمل الكارثية، والمعلوكة، التي يستخدمها الرجال للظفر بامرأة (نعم، لا يزال بعضهم يصرّ، حتى يومنا هذا، على استعمال العبارة الآتية: "وجهكِ ليس بغريب. هل سبق وتقابلنا؟")، أو اعتماد استراتيجيا "أنا عريس لقطة"، أو "تصرّف بلامبالاة معها تجدكَ جذّاباً" (هذا التصرّف مرضٌ مُعدٍ يجب إدراجه على لائحة الأمراض المنقولة جنسياً)، أو اتّباع مقاربة "تذبيل العينين". لن أفعل هذا كلّه، بل سأفترض أنّ الصفقة قد تمّت، وأنّكما، الآن، في وضع "مشبوه".

لأوضح: أنا لست معالِـجة جنسية. ليس في مقدوري أن أشفي العجز الجنسي أو القذف المبكر، كما لا أدّعي، في أيّ حال من الأحوال، أنّ الإرشادات التي أقدّمها لكَ ها هنا فعّالة مع النساء جميعهنّ. فالعلاقة الجنسية أشبه بحقل ألغام، وهي، بطبيعة الحال، تجربة فريدة تختلف من شخص إلى آخر. لكن انطلاقاً من تجربتي الخاصة، وتجارب العديد

من الصديقات اللواتي أطلعنني، على امتداد السنوات، على أخيلتهنّ الجنسية، وشكاواهنّ، ورغباتهنّ السرية/ المكبوتة، أعرف أنّ هذا الدليل يمكن أن ينطبق على العديد منهنّ، إن لم نقل معظمهنّ. لذا، إن كنتما على وشك أن يلتهم أحدكما الآخر، فلعلّ من المفيد تذكّر بعض النصائح الآتية:

١– التباهي بقدراتكَ ليس بالتقنيّة الملائمة لاستثارة المرأة جنسياً. إذا كنتَ فحلاً كما تزعم، فما من داعٍ للإفاضة في الموضوع: في الواقع، التباهي بقدراتكَ يجعلكَ تبدو كأنّكَ تفتقر إلى الثقة بالنفس. ولا شكّ في أنّها تفضّل أن تفاجئها بأفعالكَ – مفاجأةً سارّةً طبعاً – على أن تسترسل في الكلام عن مواهبكَ بينما تفكّ حمّالة صدرها (ناهيك بأنّه يمكنكَ أن توظّف لسانكَ خدمةً لهدفٍ أسمى).

٢– إذا كنتَ تشعر بالحاجة إلى ترتيب ملابسكَ قبل ممارسة الحبّ معها فأنتَ من دون شكّ "ولدٌ مؤدّب"، لكنّكَ عاشق سيئ للغاية. الجنس يتطلّب مساحة معركة لا غرفة عمليّات معقّمة.

٣– لم تعد طفلاً في العاشرة من العمر: لا تطلب إذنها، لا تغسل يديكَ سبع مرّات، لا تهرّج، والأهمّ من هذا كلّه، لا تغدق عليها عبارات الشكر والامتنان – فهي ليست على وشك تسليمكَ مفاتيح أرض الميعاد. بل من واجبكَ أن تتأكّد من أنّها لا تقدّم إليك "معروفاً": أشبِعْ رغباتها حدّ الثمالة وستكون هي من يشكركَ.

٤– لا يغرّنكَ ذلك الباب المفتوح الذي يبدو كأنّه يدعوك إلى الدخول. لا تزال تحتاج إلى اقتحامه بحنكة وإلاّ أُغلِق في وجهكَ بعنف. اضربْ ضربتكَ حتى وإن بدت لكَ عزلاء، مجرّدة من أيّ سلاح. ولا تنسَ أنّكَ تملك "سيفاً صالعاً" هناك في الأسفل: كن سخياً في طعناتكَ السفلية. لن تؤنّبكَ على ذلك.

٥– بدِّلْ تكتيكاتكَ ما بين عضّاتٍ تارة وقبلاتٍ طوراً، وما بين مداعباتٍ حيناً وخرمشاتٍ حيناً آخر: أيقِظ الحيوان الكامن فيكَ. ارسمْ حدود أرضكَ بوضوح، واستفزّها كي تقوم بالمثل. اقرصْها، تحدّاها، اصفعْها على مؤخّرتها، مُرْها، داعبْها، التهمْها... اطلبْ من ذلك السيّد المهذّب القابع في رأسكَ أن يغور إلى الجحيم، وتهتّكْ.

٦– لا تكتفِ بأخذها كما هي. خذها كما يُحتمَل أن تكون. انظر إلى طاقاتها الإيروتيكية الكامنة خلف أقنعة الخجل، والخفر، والتابوهات،

والخوف، والتحفظ، والاعتبارات الاجتماعية/ الدينية.

٧- قل لها ما الذي يعجبكَ، وكن مراعياً رغباتها أيضاً. لكن لا تبالغا في تلقين أحدكما الآخر كلّ ما يعشقه الثاني. فعندما تُحدَّد الاحتياجات والتوقّعات، وعندما يُرسَم طريقها مسبقاً، تندرج العلاقة الجنسية في خانة الحركات الآلية. استبِقْ ما تريده شريكتكَ واهزمْها في ملعبها.

٨- إنّ موضة فارس الأحلام أصبحت قديمة. لا تخطفها فوق حصانكَ الأبيض، فأنتَ تملك وسيلة "ركوب" أكثر متعةً وإثارة.

٩- لا تطفئ ظمأها في الحال: دعها تحترق.

١٠- خذها كلّ مرة كما لو كانت المرة الأولى: فالبدايات لا تنضب إذا كانت مخيّلتكَ واسعة.

١١- خذها كلّ مرة كما لو كانت المرة الأخيرة: مَن يدري، قد تكون كذلك فعلاً.

١٢- لا تكتفِ باحتضانها: اعصرْها بين ذراعيكَ.

١٣- إذا لم تكن تشعر أنّ علاقتكما محتومة، وإذا لم يكن الانجذاب بينكما قويّاً كمغنطيس لا يمكن مقاومته، فلا تُقدم على الأمر (إلاّ إذا كنت تحبّ الحساء البارد). فالجنس لا يمكن أن يكون "فاتراً" ولامبالياً، بل يجب أن يكون انفعالياً، حادّاً وحافلاً بالشغف، حتى وإن كان مجرّد علاقة عابرة.

١٤- لا تضاجعْ امرأة وأنتَ ترتدي قفّازاً من الجوخ وربطة عنق. لا تمارس الجنس بالشوكة والسكّين، متباهياً بتسريحة شعركَ المصفّفة. أو تسأل عن آداب السلوك في السرير، وعن الأخلاق الحسنة. ما هذه إلاّ وصفات للبرودة الجنسية. أطلِق العنان لشياطينكَ بكلّ نزواتها الغريبة، ودعها تسرح وتمرح بمجون في تلك المساحة الممتدّة ما بينكما.

١٥- أتذكر تلك الكلمات التي قيل لك إنّها معيبة وبذيئة؟ تلك الكلمات الفاحشة التي لا تجرؤ حتى على الهمس بها؟ قلها لها بأعلى الصوت!

١٦- نعم، في وسعها هي أيضاً أن تمارس الجنس لا لشيء إلاّ بغرض الاستمتاع به، مثلكَ تماماً. فكفّ عن الاستسلام لنوبات الذعر كلّما وصلتْ إلى النشوة، متوهّماً أنّها تريد حبسكَ بخاتم.

١٧- ليست ترضعك! العقْ حلمتيها عوض مصّهما مراراً وتكراراً كرضيع يشرب حليب أمّه.

١٨- تأنَّ في خطواتك. السرعة تقتل العطش، كما إنّ الفارق كبير بين ذوّاقة وآكِل شرِه. تسلّلْ بدلاً من أن تجتاح.

١٩- عذِّبها، وعذِّبها. ثمّ عذِّبها قليلاً بعد: الإثارة فنٌّ يتطلّب قدراً هائلاً من التصعيد بمزيجٍ من المكر والتلاعب. لا أتحدّث هنا عن المداعبات التمهيدية العديمة الجدوى التي غالباً ما تكون مملّة (لا يؤدّيها الرجال إلاّ كفرض واجب لأنّهم تعرّضوا لغسل دماغٍ حفظوا فيه أهمية "إعداد" المرأة قبل الجماع)، بل أتحدّث عن تلك التقنيات الممتعة والرائعة للتعذيب النفسي.

٢٠- الإيلاج ليس مرادفاً للحفر: "الحفرة" موجودة أصلاً، أنسيت؟ لذا، عوض أداء هذه المهمّة كفريضة، والاندفاع إلى الأمام وإلى الخلف كإنسانٍ آليّ، خذْها على مراحل: تقدّمْ بعمق، ثمّ ابقَ ثابتاً في داخلها لبضع ثوانٍ، قبل أن تنسحب بشكلٍ كامل، رويداً رويداً. مرّةً تلو الأخرى، حتى تُضطرّ إلى التوسّل إليكَ كي تبقى في داخلها.

٢١- الوضعيّات غير المألوفة لا بأس بها شرط ألاّ تتسبّب لها بتشنّجٍ في رجلها، وتتحوّل إلى مجرّد عرض مبرمج ومملّ لمهاراتكَ. لا تحتاج لتكون خبيراً في فنّ الكاماسوترا حتى ترضيها.

٢٢- لمَ الكذب؟ نعم، الحجم مهمّ. لكن ما يهمّ أكثر هو كيفية استخدامكَ لجهازكَ. من الممكن أن تكون الطبيعة قد أنعمت عليكَ بكرمها من دون حساب، لكنّكَ لا تملك، في الوقت عينه، أدنى فكرة عن كيفية إرضاء امرأة. ومن الممكن أن يكون قضيبكَ متواضع الحجم، لكنّكَ قادرٌ، في الوقت نفسه، على إرضائها إلى أبعد حدود.

٢٣- مشهد المرأة الراغبة في التواصل والحنان بعد الجنس والرجل الراغب في أخذ قيلولة هو أكثر الكليشيهات المتداولة كارثيةً. لعلّ العكس هو الصحيح. فلا تشعر بالارتباك (أو الإهانة) إذا غفت هي قبل أن تقوم حتى بالتخلّص من الواقي الذكري.

٢٤- لا تقم بأيّ شيء من أجلها لأنّكَ مجبرٌ على ذلك. فستشعر هي بالأمر، مما يقتل شعورها باللذة. أنتَ شريكها، لا جنديّ في مهمّة جنسية. كلّما زاد استمتاعكَ بها، بكلّ ما يتضمّن ذلك من أعمالٍ مخلّةٍ

بالآداب، عوض مجرّد التركيز عليها بطريقة آلية، شعرتْ هي أنّها أكثر إثارةً وأطلقت العنان لنفسها بسهولة أكبر.

٢٥– لعلمكَ، إنّ الكلام على دوري أوروبا لكرة القدم، أو على عظمة والدتكَ، أو على معاناتكَ من إسهال مزمن، أو على محرّكات السيارات الإيطالية، لا يندرج ضمن لائحة الأحاديث المحبّذة في مرحلة ما بعد الجنس.

٢٦– إنّ التحلّي بحسّ الفكاهة أمرٌ مثير لأنّه علامة ذكاء ولأنّه يخفّف أيض من التوتّر (شرط أن تكون الدعابة ذكية لا من النوع السمج). لذا، يُنصح لكَ بالتحلي بحسّ الفكاهة في كلّ مكان، ما خلا السرير: هذا هو المكان الوحيد الذي يجدر بالتوتّر أن يبقى فيه مشتعلاً. لا بأس بأن تكون مضحكاً قبل العلاقة الجنسية أو ما بعدها. أما أن تكون كذلك "خلالها"، فخطوة قاتلة: هذه هي المرحلة التي يجب أن تتصرّف فيها "بلؤم"، قدر ما تستطيع من اللؤم!

٢٧– إذا كانت تُصدر تلك الآهات الآلية الرتيبة والتافهة التي غالباً ما تفتعلها النساء، فهذا يعني أنّها تمثّل ولا تستمتع بممارسة الجنس فعلاً، بل لعلّها أكثر اهتماماً بلذّتكَ من لذّتها. ذكِّرْها بأنّها هي أيضاً تلتهمكَ وتأكّدْ من أنّكَ لا تثير لديها أيّ رغبة في التظاهر بالنشوة.

٢٨– اعفِها من الحديث عن "قدسية" العلاقة الجنسية. اسلكْ درب الفحش والمجون، وترفّعْ عن النظريات الدينية المزعجة التي تميّز ما بين الفاجرة والقدّيسة. حتى وإن كانت، أو ستكون، أمّ أولادك، فلن تشعرها بالإهانة إذا أذقتَها مضاجعة (تجديفية) لا تُنسى.

٢٩– أخيراً وليس آخراً: تذكّرْ أنّكَ لا تركع لتصلّي. أنتَ تركع لتتصيّد!

السرد

أيّها الداخل هذا المكان، تخلّ عن كلّ براءة

"العفّة هي أكثر الانحرافات الجنسية انحرافاً"

ألدوس هاكسلي

كان مصرياً. وكان متزوّجاً. لكنّ كلا الأمرين لم يحولا دون أن يكون عاشقاً من الطراز الأول، بل على العكس تماماً. كانت تنبض في شراييننه دماء الفراعنة الحامية، وتلك المكبوتات المتّقدة التي عادةً ما يولّدها الجنس في العلاقة الزوجية: قل إنّه كوكتيل متفجّر حقاً.

لكنّ هذا الرجل، المتحدّر مباشرةً من سلالة خوفو، كان غريب الأطوار. وهذا أقلّ ما يقال. فكلّما كنا نذهب إلى فندق لـ"إتمام" مراسم رابطنا غير الشرعي، كان أوّل ما يفعله، بعد أن يعرّيني، هو البحث عن السهم المشير إلى الكعبة في سقف الغرفة: أعني به تلك الإشارة التي تحدّد موقع مكّة، وتدلّ المسلمين الذين يخشون ربّهم على اتّجاه القبلة، كي يكونوا في الاتجاه المناسب عندما يصلّون.

وكم كان يصلّي، فرعوني هذا! كلّما أذّن المؤذّن كان ينهض بسرعةٍ من سريرنا الحافل بالخطايا، وهو لمّا يزل عارياً، فيخلّف بضع قطرات من المني وراءه، ويتوجّه للوضوء. بعد ذلك كان يغطّي المنطقة ما بين السرّة والساقين بواسطة منشفة "الشيراتون"، ويواجه القبلة، مستغرقاً في قراءة الفاتحة. ثمّ، ما إن يفرغ من الصلاة، حتى يرتشف قليلاً من الشمبانيا، ثمّ يواصل "مهمّته" الفانية معي بحماسة روحيّة متجدّدة.

أجهل إن كان يدعو الله كي يغفر له الذنوب التي كان يقترفها معي، أو إن كان يطلب منه منحه القوّة اللازمة لكي يحافظ على انتصاب عضوه على هذا النحو المذهل. لكنّه كان في كلّ حال شديد الحماسة (للصلاة، وربما للانتصاب أيضاً)، إلى درجة أنّه كان يعود إليَّ وثمة نتوء أحمر صغير على جبينه من كثرة السجود. ذات مرّة، وكنا قد أمضينا معاً أربعاً وعشرين ساعةً كاملةً، رأيته يصلّي الصلوات الخمس المفروضة كلها.

في بادئ الأمر، كنت أنظر إليه بمزيج من الذهول والحيرة، وأجد المشهد بأكمله مثيراً للضحك، بطريقة غريبة تنطوي على شيء من الانحراف. شكراً دكتور فرويد! فها رجلٌ مسلم، متزوّج، يرتكب الزنى ويشرب الكحول، لكنّه يصرّ على تأدية الصلوات الخمس التي نصحه رسوله بأدائها كشرط من شروط دخوله الجنّة. لم أكن قلقة البتّة حيال سلوكه هذا: بل على العكس، كنت على يقين من أنّ "شياطيني" ستنجح في السيطرة عليه في نهاية الأمر، وأنّه سرعان ما سيخرّ ساجداً لفينوس عند قدميَّ فقط. ولكن للأسف، كان صاحبنا مثابراً أكثر مما تخيّلتُ؛ فبعد ثلاثة أشهر على بدء علاقتنا، لم يكن ورعه وتقواه قد تزحزحا قيد أنملة. ولـمّا كان ردّ فعلي قد انحدر من التسلية إلى الغضب، بدأتُ أبحث عن طريقة للتملّص من العلاقة قبل أن يربّي لحية سلفية، إلى أن أقبل يومٌ جاء فيه "خلاصي" على يديه: إذ انسحب منّي على حين غرّة بينما كنت على وشك بلوغ النشوة، لا لشيء إلاّ لأنّ موعد صلاة المغرب كان قد حان. كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير وفجّرت غضبي. اكتفيتُ من اعتراض ربّه طريق لذّتي، وقلت لخوفو "باي باي".

تفصيلٌ أخير بسيط ولكن لا يستهان به: كان الرجل مقتنعاً بأنه "تقيّ طاهر".

~

بالرغم من أنّ القصة التي رويتُها أعلاه جرت في العشرينات من عمري، فقد شعرتُ وكأنّني عشتُها سابقاً. في الواقع، ذكّرني خوفو برجلٍ "طاهرٍ" آخر كنت قد التقيته قبل سنواتٍ عدة، يومَ كنتُ لمّا أزل في المدرسة. كان يُدعى أبونا حنّا، وكان رجلاً كاثوليكياً استثنائياً بالفعل: كيف لا وقد أتقن فنّ المزج بين الإرشاد الديني والتحرّش بالفتيات المراهقات؟ كان يرافقنا في خلواتنا الروحية الإلزامية، ويجمعنا ليعظنا عن الشكّ، والإيمان، والطريق الشائكة الممتدّة ما بينهما. كان أبونا حنّا محلّ ثقة الجميع: الأهل، والمعلّمين، والراهبات، وما كنت لأفاجأ لو كان محلّ ثقة الغيوم والشمس والمجرّة بأكملها أيضاً. بالفعل، كان يملك ملامح طفولية ربّانية، ويتكلّم بنبرة رقيقة باعثة على الاطمئنان، في مقدورها أن تسحر إبليس نفسه. لم تكن تنقصه إلاّ هالةٌ قدسية تشعّ من فوق رأسه لكي تكتمل صورة القديس.

ذات يوم، استدعاني الأبونا الآدمي إلى جلسةٍ خاصة، كوني كنتُ

”النعجة السوداء“ في القطيع. وأمام صليب خشبيٍّ ضخمٍ مسمَّر على الحائط استهلّ استراتيجية هدايتي بعظة بليغة عن ضعف البشر، مختتماً كلامه بوضع يده اللزجة المباركة على فخذيّ. فما كان منّي إلاّ أن خرجتُ من الغرفة وقد تملّكني غضبٌ شديد. تلك كانت نهاية إيماني، المتزعزع أصلاً، بنذر العفّة المزعوم والخرافات الكاثوليكية الأخرى.

طبعاً، لا يمكن تعميم المثالَين الواردَين أعلاه: أدرك ذلك كلّ الإدراك، تماماً مثلما أدرك أنّ الملايين من المسلمين والكاثوليك حول العالم لا علاقة لهم بخوفو ولا بأبونا حنا. لكن هل يجعل هذا الأديان المنظّمة أكثر أهلاً للثقة وقابلية للتطبيق؟ أكثر تكيّفاً مع الطبيعة البشرية؟ هل يمنحها القدرة على تحسين حياتنا؟ هل تجعلنا المحظورات والقواعد الدينية أكثر تمدّناً وإنسانية؟ اسمحوا لي بأن أسجّل تحفّظي عن هذا الأمر، كأقلّ ما يقال.

~

سأتعمّق أكثر في موضوع المتزمّتين الزائفين: عندما قرأتُ عن أسامة بن لادن وإدمانه المزعوم لأفلام البورنو في بعض الصحافة الأميركية، فكّرتُ: هناك احتمال في أن يكون الخبر ملفّقاً، بالطبع. لكن ما همّ إذا كان ابن لادن يهوى حقاً البورنو أم لا؟ هذا لا ينفي واقع أنّ ”نموذجه“ منتشر ومزدهر ورائج، وبازدياد، في مجتمعاتنا وثقافاتنا العربية: أعني بالنموذج، ذلك الإنسان المصاب بفصام فتّاك: ذاك الذي ينهى عن المنكر بيد، ويمارس الدعارة الفكرية باليد الثانية. ذاك الذي يهجس بالجنس، لكنّه لا يجرؤ أن يتحدث عنه. ذاك الذي يخطب في العفّة، والعفّة بعيدة عنه كلّ البعد. ذاك الذي يدعو إلى التطهر من الآثام والتكفير عن الذنوب، ثم يروح ينفّس عن مكبوتاته وعقده حيث لا تراه عين ولا تسمعه أذن. ترى كم من هذه النماذج الفصامية في العالم العربي اليوم؟ سؤال بلاغيّ آخر، لا تتكلّفوا عناء الإجابة. حسبي القول إنّ إحدى الكلمات الأكثر ظهوراً في محرّكات ”غوغل“ باللغة العربية هي ”جنس“. على ما كتب كريستوفر هيتشنز يوماً: ”غالباً ما يكون أولئك الذين يشجبون عملاً ما ويحظرونه ويفرضون على ممارسته عقوبة صارمة، يشعرون برغبة مكبوتة في المشاركة فيه“.

الجنس، ثمّ الدين، ثمّ السلطة. السلطة، ثمّ الجنس، ثمّ الدين. كيفما قلّبتها، من أيّ جهة نظرتها، الثالوث هو هو، وحول الثالوث محرّماتٌ

تنغل كوكر دبابير. أما هالة الثالوث فالازدواجية طبعاً، أضيفوا إليها الخبث، والكذب، والتخلف، والجهل، والخوف من المجاهرة، وهلّم.

~

هاكم ما تنصّ عليه "القاعدة":

تحديد المرأة: كائن بشري ذو طبيعة ملائكية يبحث عن المشاعر الجيّاشة والأحلام الوردية والغروب الرومنطيقي والسكّر الزائد وهوس الزواج المخلّص (ممّ؟) والضجر والروتين إلى أبد الآبدين.

تحديد الرجل: كائن بشري ذو طبيعة حيوانية يبحث عن الجنس والمتعة والمغامرة واللذة والصيد. وهلمّ.

أدقّق في التحديدَين، أقارن بين الكليشيه الأول وذاك الذي يليه، ولا يسعني سوى أن أنحاز إلى الثاني، على رغم كلّ أعضائي الأنثوية الأكيدة (نهدان وفرج وتوابعها)، أعضاء ذات وظيفة "قدرية"، كان من المفترض بها أن تحميني من "الضلال" الحيواني الذي أنا فيه، وأن ترشدني إلى درب التمنّع والعفة المستقيم.

أصغي إلى تلك الأصوات المستنكرة لهذا الخطاب، من بيروت إلى الرياض، ومن دمشق إلى الدوحة. أصغي إليها، وأتأملها، وأحلّلها، فلا أملك إلاّ أن أشفق عليها: هنّ نساءٌ تعرّضن لغسل دماغ نتيجة قرونٍ طويلة من تلاعب النظام البطريركي بعقولهنّ، وإنكار للواقع وللطبيعة البشرية فرضنه على أنفسهنّ؛ نساء جافات، وحيدات، عالقات في فخاخ الصورة النمطية للمرأة (الشرقية) التي لا ينبغي لها أن "تمنح" جسدها للرجل. أمّا إذا "غلّطت" وقرّرت منحه، ذلك الجسد العظيم، فينبغي أن يتمّ ذلك بعد جلجلة طويلة، جلجلة لها، ولسعيد الحظ خصوصاً: "نعم لا ربما نعم ربما لا ربما لا لا نعم"، كي يشعر الرجل كم هو محظوظ حقاً، لأنّ الآنسة، أو السيدة، وافقت أخيراً على إعطائه مفتاح الجنّة الموعودة... نساء يعزفنَ المنظومة إيّاها التي تدرّبنَ عليها كالقطعان منذ الصغر على أيدي المجتمع العربي والبيئة العربية والدين العربي والأمّ العربية والأب العربي...إلخ. نساء سُلبتْ منهنّ القدرة على التفكير أو العاطفة، ووقعنَ في شرك فكرة بطريركية تستند إلى أنّ الأنثى يجب ألاّ تشرّع فخذيها لرجل إلاّ إن قدّم لها خاتم الزواج أولاً. المصيبة أنّ الرجال أصبحوا مقتنعين بأنّه السلوك الصحيح، "اللائق"، المحترم، وبأنّ التردد واللعب على الحبال علامتا نزق جذابة،

وبرهان "أخلاق" أكيدة.

اللغة نفسها ليست بريئة على هذا المستوى: فالنساء اللواتي يستمتعنَ بالجنس في ثقافتنا يوصفنَ بالـ"نيمفومان": وصفٌ كلينيكي بسيكولوجي دقيق لعارض الشهوة المستعرة لدى النساء، كما لو أنّ شبقهنّ مرض. أمّا الرجال الذين يتصرّفون بالطريقة نفسها، فهم طبعاً "فحولٌ". "نيمفومان"، يقولون، بتعاطف متعالٍ، لكي يتمكنوا من استيعاب رعب فرجٍ لا يشبع، تماماً كقضيبهم. فرج يبحث ويطلب ويأخذ و"يستهلك".

النساء أنفسهنّ يساهمنَ في هذا التمييز، باحتجاجهنّ وارتباكهنّ واستنكارهنّ الحق في الحرية: "كيف يسعكِ فعل ذلك؟ أنسيتِ أنّكِ امرأة؟ استيقظي أيّتها الطائشة المستهترة. استيقظي وعودي إلى رشدكِ. عودي إلى طبيعتكِ. النساء الشرقيات لا يفعلنَ ما تفعلين. نحن النساء في حاجة إلى علاقة حقيقية وثابتة كي نستمتع بالجنس. نحن النساء في حاجة إلى المشاعر والارتباط والحنان والحب بين ذراعَي رجل. كيف تدعينهم يستغلّونكِ بهذه الطريقة؟".

ساعِدوني يا جماعة: نوّروني. أريد أن أعرف ما علاقة الأخلاق بتواتر استخدامي لفرجي من أجل متعتي الخاصة! أريد أن أعرف مَن ذا الذي قال إنّ حرية جسدي تتنافى مع قيم هذه الحياة وأخلاقياتها! ثم، لماذا كلّ هذا اللف والدوران؟ ولماذا الربط بين العلاقة الجنسية والارتباط اللانهائي؟ كيف يعقل أن تشكّل حرية الاختيار التي أتمتّع بها إهانةً لهويّتي الأنثوية؟ لعلّ الإهانة الحقيقية ها هنا هي أنّ العديد من النساء قد استُدرِجنَ للتفكير في أجسادهنّ كهبة أو منّة أو شيء أو هديّة؛ فحسبنَ أنّ الوظيفة الوحيدة لهذا الجسد هي إرضاء الرجل ليس إلاّ، عوض منح أنفسهنّ اللذّة المنشودة. الإهانة الحقيقية ها هنا هي اقتناع المرأة بأنّها غير مقدّر لها التصرّف بذلك الجسد على هواها، أو إعطاء نفسها الحقّ في أن تفعل به ما تريد، فتُشبع جوعه وتروي عطشه.

ستحتجّ أحداهنّ: "لكني إذا تصرفتُ هكذا مع الرجل فسيعتبرني ساقطة وسهلة، وسينصرف إلى غيري". كليشيه آخر. وهذا الكليشيه تحديداً هو مؤامرة ضدّكِ. ضدّ متعتكِ. ضدّ جسدكِ. ضدّ الحياة في حياتكِ. مَن كان جائعاً إلى امرأة بعينها لا يشبع منها لأنّه أكلها مرّةً أو مرتين، بل إنّ حدّة جوعه ستزداد كلما التهمها أكثر.

ثمّ، أين المشكلة إذا انصرف إلى غيركِ؟ هل يكون جديراً باهتمامكِ وبالاستثمار العاطفي الذي وظّفته فيه إذا اتّضح أنّه مجرّد وغد ذكوريّ؟ انصرفي إلى غيره أنتِ أيضاً. ألا يقول المثل الشهير: "هناك أسماك كثيرة في البحر"؟ فلِمَ الاكتفاء بسمكةٍ واحدة؟ ألأجل الحبّ، تقولين؟ هناك أنواع كثيرة من ذاك الذي يسمّونه حبّاً. الرغبة حبّ أيضاً، والحنان حبّ، والتواطؤ الفكري حبّ، والرابط العائلي حبّ... إلخ. لا تجعلي الحبّ مطلقاً مستحيلاً. تخلّصي من عقدة "فارس الأحلام". هي ضخٌّ سموم في رأسكِ ليس إلاّ. لا ترتبط الرغبة بحلم الزواج وبتأسيس عائلة. قد يكون هدفها إحساساً بالرضا والاكتفاء فحسب. تحليق في نعيم اللحظة العابرة.

~

في موضوع العلاقة مع الجسد، وتحديداً علاقة المرأة العربية مع جسدها، ثمّة خبرٌ تصدّر وسائل الإعلام العربية والغربية على السواء، هو خبر نشر الفتاة التونسية أمينة تيلر صورة عارية لها على مواقع التواصل الاجتماعي، تظهر فيها وقد كتبت على صدرها المكشوف الكلمات الآتية: "جسدي ملكي وليس شرفَ أحد". قالت أمينة إنّ تصرّفها هذا كان حركة احتجاجية ضدّ القمع اللاحق بالمرأة في العالم العربي، بالتزامن مع إعلان إنشاء فرع لحركة "فيمن" في تونس، وهي حركة نسوية أوكرانية شهيرة تتخذ من العري وسيلة لاستقطاب الإعلام والرأي العام إلى قضايا المرأة في مختلف دول العالم. أثارت خطوة أمينة هذه جدالاً كبيراً في الشارع التونسي، على غرار خطوة سابقتها المصرية علياء المهدي، وأشيع أنّ الداعية الإسلامي عادل العلمي أصدر فتوى بجلد الفتاة ورجمها حتى الموت لكي تكون عبرةً لمن اعتبر.

بمعزل عن موقفي الرافض تماماً لعقوبةٍ وحشية كهذه – ولعقوبةٍ من أيّ نوع حيال مبادرةٍ مماثلة – وعن مساندتي العنيدة لحرية التعبير مهما تكن أشكالها، عليَّ أن أعترف، للنزاهة الفكرية، أنّ أسلوب حركة "فيمن" في الاحتجاج استناداً إلى عري الجسد النسائي يربكني ويحيّرني: فمن جهة، لطالما دافعتُ عن ضرورة استعادة النساء ملكية أجسادهنّ وعن حرية تصرفهنّ بها في مجتمع وثقافة يعتبران تلك الأجساد أكسسوارت وملكيات بين أيدي الذكور على مستويات مختلفة، بدءاً من الاحتفاء بالعذرية وصولاً إلى جرائم الشرف. لكنّي، من جهة ثانية، لطالما وجدتُ أيضاً في القطبية المفتعلة، بين بَرْقَعة

الجسد وعرضه كسلعة، انقساماً عبثياً وغير مقنع. كأنّي بالسلطة البطريركية تسألنا: "ما خياركنّ أيّتها النساء؟ أهو الحجاب أم العري؟ عليكنّ اختيار جانب من الاثنين". كأن لا خيار ثالثاً بينهما.

شخصياً، أختار ألاّ أختار. شخصياً، أرى أن النموذجين مهينان، ميزوجينيان، تمييزيان ضدّ المرأة، ويؤديان إلى عكس النتيجة المرجوة، ألا وهي تحرير المرأة من نمط العقلية الذكورية وقيودها. إنّهما، ببساطة، وجهان لعملة واحدة، هي عملة القمع والإلغاء المهينة لكينونة المرأة: الوجه الأول يتعامل معها كأداة إغراء وإغواء ينبغي طمسها وإلغاؤها؛ والوجه الثاني يتعامل معها كأداة إغراء وإغواء ينبغي استغلالها واستثمارها: ما الفرق؟ هل هناك فرق حقاً؟ لأجل ذلك، وعلى رغم احترامي لحركة "فيمن" ونضالها، وعلى رغم مواقفي الليبيرالية للغاية من الجنس، ومن جنسانية المرأة تحديداً، أقول إنّ استخدام "فيمن" لعري المرأة بغية لفت الأنظار إلى قضاياها وحقوقها المنتهكة والعنف الممارَس عليها، وبغية مكافحة الرجعية الفكرية والظلامية الدينية، يربكني في أقلّ تقدير. أولاً لأنّه تطرّفٌ من شأنه أن يغذّي التطرف المضادّ ويقوّيه ويدعم أسباب وجوده؛ وثانياً لأنّ "الفاعلة" المرجوّة فيه ومنه، أي المرأة، ما هي إلاّ فاعلة موهومة تتحوّل رغماً عنها إلى محض أداة لجذب الانتباه (هل الغاية حقاً تبرر الوسيلة؟)؛ ما يعيدنا إلى نقطة الصفر.

انتبهوا: تقول ذلك امرأةٌ أسست أول مجلة من نوعها عن الجسد والإيروتيكا في العالم العربي. تقول ذلك امرأةٌ ترفض أن تساوم على حريتها باستخدام جسدها كما تشاء. تقول ذلك امرأةٌ دأبت على فضح المعايير المزدوجة في العالم العربي، على صعيد الجنس وسواه. لهذا السبب قد يعجب بعض القرّاء من موقفي التشكيكي حيال فاعلية حركة "فيمن"، ويعتبرونه تناقضاً. لا. الأمر أبعد من ذلك. ليس هنالك تناقض إلاّ على السطح. إذ ثمّة هوّة هائلة بين التعاطي مع الجنسانية بطبيعية وعمق وبدون تابوهات سخيفة، وبين تسطيح جنسانية المرأة بحجة الدفاع عن حريتها. ثمّة فرقٌ هائل بين محاربة التمييز الجنسي ضدّ النساء، وبين استغلال عري المرأة للفت الأنظار إلى قضاياها. ثمّة فرقٌ هائل بين طرح الجسد كفاعل، وبين طرحه كمفعول به. ثمّة فرقٌ هائل بين تثقيف الناس جنسياً وإحداث صدمات لغوية وفنية واجتماعية خلاّقة وإيجابية يمكن أن تفضي إلى قلب المعادلة البطريركية، وبين القيام بخطوة تقول: "أصغوا إليّ لأني عارية". ذلك هو، أصلاً، أحد الأسباب الرئيسية التي كانت تدفعني في جسد إلى نشر أعمال فنية

تعرّي جسد الرجل بقدر ما تعرّي جسد المرأة: كي يكفّ جسد المرأة عن أن يكون هو "الموضوع"، فيصير الجسد في ذاته هو الموضوع. كي تزول هالة القدسية عن الجسد الأنثوي ونكفّ عن مناقشة عري المرأة حصراً، وننتقل إلى دراسة أبعاد العري في ذاته. أصدقكم القول عندما أعترف بأنّ المحافظة على هذا التوازن بين عرض الجسدين، الأنثوي والذكوري على السواء، في مجلة جسد، لم تكن بالمهمة السهلة: التمييز البطريركي الأعمى منتشر في عالم الفن بقدر ما هو منتشر في مجالات الحياة الأخرى، وغالباً ما نسمع هذا الفنان أو ذاك يقول، إذا ما سألناه عن أسباب تركيزه على جسد المرأة، إنّ جسدها "أكثر جماليةً من الجسد الذكوري". لكن مهلكم: بحسب مَن؟ وبناءً على أيّ معايير؟ إنّها، مجدداً، معايير الذكورة التي أتيح لها، نتيجة قمع قوة المرأة الخلاقة وتعبيراتها طوال عصور، أن تستأثر بميادين الفن والتجريب فيه.

لأجل الأسباب المذكورة أعلاه، تدفعني أساليب "فيمن" إلى طرح الأسئلة الآتية: ماذا لو كان رجلٌ يفعل ذلك؟ ماذا لو كان العري الذكوري هو أداة الاحتجاج؟ هل كان لينال القسط نفسه من الانتباه أو الغضب أو التغطية الإعلامية؟ لماذا يجب على المرأة أن تستخدم جسدها دائما كـ"طُعم"، حتى لو كان الهدف الدعوة إلى الحرية والديموقراطية؟

أكرّر: ارتباكي حيال أساليب "فيمن" في الاحتجاج لا يعني في كلّ حال من الأحوال عدم دعمي لنضالهنّ، وعدم استنكاري لما قد يحصل لأمينة وسواها من النساء العربيات اللواتي يقمنَ بخطوات مماثلة. ارتباكي لا يعني في كلّ حال من الأحوال عدم شعوري بالحنق العارم حيال خطابٍ ذكوري يعتبر لباس المرأة، أكان فاضحاً أم محتشماً، دليلاً على ما تريده من الرجل، أكان ذلك التحرش بها في الحال الأولى، أم "احترامها" في الحال الثانية. ينبغي أن نكفّ عن اعتبار الحجاب أداةً للدفاع عن النفس في وجه المتحرشين والمغتصبين، مثلما يريد كثرٌ في العالم العربي إقناع المرأة. الدليل أن محجّبات كثيرات يتعرّضنَ للتحرش الجنسي بقدر أعداد غير المحجّبات. فلماذا يجب على المرأة أن تدفع ثمن وجود أنذال في المجتمع؟ أيّ طريقة ملتوية للحماية الذاتية هي هذه التي تجعل الضحية مسؤولة عن أفعال المعتدي عليها؟

في اختصار، نحن في نفق مظلم: كيف لا، وفي الشرق أجيالٌ وأجيال

من النساء تحت نير التغييب والتكميم والإلغاء والظلامية والقمع والجهل القسري. وفي الغرب أجيال وأجيال من النساء تحت نير التسليع والتسطيح وتحويلهنّ محض أجساد معروضة. هنا البرقع وإخوته وأخواته، وهناك لحمٌ على هوى المزاد (وإن لست أعمّم).

أما كرامة الأنوثة وقوّتها فهما حتماً في مكان آخر.

~

تسألون عن مفهوم "العفّة" إذاً؟ إنْ هو سوى مصنع للعقد النفسية والجسدية. هنا لا بدّ من أن أتساءل: ترى مَن أكثر أخلاقيةً: امرأة عارية تنتشي بين ذراعَي رجل ترغب فيه أو تحبّه، أم الرجل الذي يتلمظ مشاهدتها سراً ويدينها علناً؟

الأدهى: أيّهما الأكثر "فساداً وانحلالاً"؟

٩ ـ كارثةٌ اسمها الزواج

"في الحياة متّسعٌ من الوقت لكلّ شيء يا عزيزتي – إلاّ للزواج".

طوماس تشاترتون

القصيدة

سراح

ضُمَّـني إليكَ

كي إذا خسرتُ شدّة قلبي تزوّدني شدة قلبكَ

كي إذا ذهبتْ جذوري عميقاً أكون في عهدة هاويتكَ

كي إذا أهدرتُ عمري أزداد بكَ أعماراً ولغات.

ضُمّـني إليك

كي أصيرَ عشـبةً تؤرّق الصخر

كي تصير صخرةً ليّـنةً في ظلّ عشبة

كي يولد نهرٌ بيني وبينكَ فتـفيض كلّ الأنهار

كي أترجّل من جبالي لألاقيكَ

كي أكتـشف كم أنّكَ الصعود

كي تكتـشف كم أنّي الغرق

كي إذا سرتُ إليك أرفع جسراً بين ضوءٍ وتهلكة.

ضُمَّـني إليك

كي تطلبني كتـفّاحةٍ تشتاق قطافها

كي أهرقكَ كتـفّاحةٍ بعد قطافها

كي أغمركَ بما لا تستطيع

كي أصنع من أجلكَ ليلاً وغيمةً فوق ليل

كي أنسّـيكَ أنّي شجرةٌ لأغصانكَ

كي أنسّـيكَ أنّكَ أغصانٌ لشجرة

كي إذا غلبتْـني الحياة أربح معكَ حياتي.

ضُمَّـني إليكَ

ثمّ أطلِق سراح يديَّ

كي كلّما كدنا نصير واحداً

ظللنا اثـنين عاطلَين عن القدر.

المرافعة

مراحل "الغلطة"

"الزواج بامرأتين يعني وجود شريك زائد على اللزوم في حياتكَ. الزواج بامرأة واحدة يعني الشيء نفسه".

أوسكار وايلد

المرحلة رقم ١:

من شخصين مجهولين، تنتقلان إلى حالٍ من الفضول. تومض بينكما تلك الشرارة فتشتعل النار. لعلّها محض مصادفة، لكن قوانين الرياضيات تنصّ في كلّ حال على أنّ من المرجّح أن "يتقاطع خطّان غير متوازيين في مرحلة ما". تومض الشرارة إذاً: "نداء المجهول الحافل صوته بالإغراء"، مثلما يصفه الشعر والشعراء. القطّ اللعوب موجودٌ داخل كلٍّ منكما. وهو لا يملك إلاّ أن يختلس النظر من خلف الستار، فيقع فيّ الشرك بملء إرادته.

المرحلة رقم ٢:

من الفضول، تنتقلان إلى حالٍ من الشغف. كلّ عناصر الإنكار المثالية موجودة: الهوس الذاتي، الانغماس الذاتي، التعاطف مع الذات، وخداع الذات... الطرف الآخر لا يتحمّل أيّ لوم: ما هو إلاّ أداة أوجدتها جهةٌ مجهولة (لعلّها الظروف، أو الأقدار، أو الله، أيّاً يكن الاسم) في المكان والزمان المناسبَين. أينشتاين وضع أسرار اللعبة كلّها في نظريته حول النسبية الخاصة. تقرّران إذاً أن تتزوّجا، وتتناسلا، وتعيشا في سعادةٍ وهناء. هذا ما علّموكما فعله عندما تجدان الشخص المناسب. كان رجل الكهف ليصرخ: "النجدة!"، لكنه ما كان يجيد الكلام في ذلك الوقت بعد.

المرحلة رقم ٣:

من الشغف، تنتقلان إلى الكراهية. الزواج يعيد حاسة النظر، لحسن الحظ. لا بأس إن كان الأوان قد فات: فعبارة "أن تعرف متأخّراً خيرٌ من ألاّ تعرف أبداً" لن تسقط بمرور الزمن. أما عبارة "كلّما أبكرتَ كان

أحسن" فبديلٌ أفضل بكلّ تأكيد. الزواج يعيد حاسة النظر، فيبدو المشهد منفّراً كأقلّ ما يقال: تريان العيوب، وخيبات الأمل، والإحباطات، ومصادر الإزعاج، والروتين، والجدالات، ونقاط الضعف، والجوارب القذرة... بعبارة أخرى، تريان الحقيقة بأمّ العين. الحقيقة المجرّدة، الصريحة، غير المشذّبة ولا المجمّلة. هي القصّة نفسها عن البديهيات التي يتجاهلها المرء بملء إرادته؛ تصفعه فجأةً تلك البديهيات التي نجح، بطريقة أو بأخرى، في عدم رؤيتها قبلاً. لكنّ أوان الشفقة على النفس قد مضى منذ وقتٍ طويل.

المرحلة رقم ٤:

من الكراهية، تنتقلان إلى اللامبالاة. عندها فقط تتحرّران حقاً: فالكراهية أسطورةٌ مبالَغٌ في تقديرها. هي اللامبالاة، واللامبالاة وحدها ما يمنحكما الخلاص المطلق من السراب. عندئذٍ تقرّران إما البقاء (كرمى للأولاد، كما تقنعان نفسيكما، أو مراعاةً للمعايير الاجتماعية)، وإمّا التحرّر من الأسر. في كلتا الحالتين ينكسر قيد الالتزام، وتتلاشى معه أشباح سندريللا وفارس الأحلام.

... ويعود القطّ في داخلكما إلى حياته الاعتيادية، هائماً من دون هدف، عازماً كلّ العزم على عدم اختلاس النظر من وراء الستار ثانيةً. حسناً، دعونا لا نبالغ: لن يختلس النظر لمدّةٍ محدودة في الأقلّ. ففي أغلب الأحيان، الضحية، لا القاتل، هي التي تساورها نفسها العودة إلى مسرح "الجريمة" ثانيةً.

السرد

أتّخذكَ حبّاً موقتاً

”تقدير السعادة الزوجية يتطلّب طول أناة؛ النفوس غير الصبورة مثلي تفضّل التعاسة“.

جورج سانتايانا

لم أتوقّف عن البكاء طوال الاحتفال بمراسم زواجي. كنتُ بعد فتاةً لم تتجاوز العشرين من عمرها، وكانت الدموع الحارقة تنهمر غزيرةً على خديَّ كشلالات نياغارا، من دون أيّ طريقة لأكفكفها.

كانت أمّي على يقين من أنّني أذرف الدموع لأنّني كنت سأفتقدها، فراحت تهنّئ نفسها على تربية ابنة رقيقة ومُحبّة مثلي. خشي أبي، الذي كان ضدّ فكرة زواجي في المقام الأول، (أو بالأحرى، أملَ) ألاّ أكون مقتنعةً بقراري، فبدأ يفكّر في الطرق المناسبة لتسهيل فراري من الكنيسة. في المقابل، كان زوجي العتيد يعزو، بكلّ فخر واعتزاز، بكائي هذا إلى انفعالي وسعادتي باقترابنا أخيراً. أما حمواياَ فكانا يعتقدان أنّ السبب هو فرحي بحصولي على عريس ”لقطة“ (لا تعليق).

من جهته، كان المطران الذي زوّجنا موهوماً بأنّ كلمات بولس الرسول، ”الرجل رأس المرأة“، قد خلّفت فيَّ تأثيراً إيجابياً بالغاً (كم كنت أمقت هذا الرسول الكاره للنساء، ولا أزال)، فيما حسبت إشبينتي أنّ الثوب الذي انتقته لنفسها لم يعجبني (هو لم يعجبني فعلاً). أما عمّتي الخمسينية التي لم تتزوّج، فقد خالت أنّني أخشى ليلة الزفاف، وما يترافق معها من فقداني الحتمي ”عذريّتي“ (بصراحة، لعلّ التخلّص من هذا العبء كان الشيء الوحيد الذي كنت أتطلّع إليه في ذلك اليوم ”المقدّس“).

اليوم، بعد مرور أكثر من عشرين سنة، حان الوقت لأعترف بالسبب الذي دفعني إلى البكاء بمرارة خلال مراسم زواجي الكاثوليكي الأول: كان الدافع أكثر إيلاماً وتعذيباً من سائر الأسباب المنطقية الواردة أعلاه، وهو أنّ حذائي الأبيض الجديد ذا الكعب العالي كان يؤذي

قدميَّ الناعمتين، بأظفارهما المقلّمة المرتّبة. لعلّ هذه هي أفضل استعارة لوصف الزواج: خيار مؤلم، ندفع ثمنه غالياً، لكن في بعض الأحيان لا بدّ منه.

~

يُقال إنّ الحاجة أمّ الاختراع. غالباً ما أتساءل عن مدى صحّة هذا الافتراض، لا سيّما عندما أفكّر في بعض الاختراعات العجيبة مثل جوارب القطط، والقبّعات التي توزّع ورق التواليت، والعطر المنكّه برائحة لحم الخنزير... والزواج. لا بدّ من الإشارة إلى أربع شوائب – على الأقل – في الزواج، إذا ما تناولناه من حيث مفهومه وممارساته حتى اليوم في لبنان والعالم العربي تحديداً. اسمحوا لي بأن أستعرض عليكم هذه الشوائب المتأصّلة فيه بإيجاز:

المشكلة الأولى التي تشوب الزواج في العالم العربي هي خضوعه شبه المطلق لسيطرة الدين: فمعظم الدول العربية لا تطبّق مراسم الزواج المدني، بما فيها لبنان المشهور بـ"حداثته" وبثقافة "الرقص حتى انبلاج الفجر". بالفعل، كلّ مراسم الزواج تشرف عليها السلطات الدينية، ولا تقوم الدوائر الحكومية بتسجيل الزواج إلاّ بعد أن تكون شخصيات المجتمع الديني المتّفق عليها قد سجّلته بنفسها. بالرغم من ذلك، يعترف النظام اللبناني الريائي بعقود الزواج المدني المبرمة في الخارج، لا بل أمست قبرص المقصد الأول للبنانيين الذين يريدون تفادي عقد قرانهم دينياً.

لعلّ العقدة الأساسية للزواج الديني – باستثناء كونه دينياً طبعاً – هي صعوبة الحصول على الطلاق، فضلاً عن النظام المتحيّز الذي يقوم عليه (ضد النساء بطبيعة الحال). ذات مرّة اعترفت لي صديقة أنّها قصدت المحكمة الدينية للحصول على الطلاق؛ ولمّا سألها الكاهن الكاثوليكي عن سبب رغبتها في الطلاق، ردّت أنّها ضبطت زوجها يمارس الجنس مع شقيقته نفسها، فأجابها الكاهن بكلّ هدوء وتروٍّ: "عليكِ بمزيد من الصبر يا ابنتي العزيزة". عندما سمعتُ تلك القصّة شعرتُ برغبة في التقيّؤ. فضلاً عن ذلك، أخبرتني صديقاتٌ أخريات عن حالات طُلب منهنّ فيها تقديم خدمات جنسية لقاء تسريع معاملات طلاقهنّ. هذا، ولم آتِ بعد على مسألة وصاية الأولاد التي غالباً ما يخسرنها لمصلحة الآباء. بالإضافة إلى ذلك، إذا طالبت الزوجة بالحصول على الطلاق، متسلّحةً بحجة ارتكاب زوجها الزنى، تُقابَلُ

غالباً بتربيتةٍ خفيفة على الظهر وتُرسَل إلى بيتها خائبة. أما إذا فعل الزوج ذلك، فإنّ أبواب الجحيم تنفتح وتحرم تلك الساحرة الشريرة/ الساقطة كلّ حقوقها. هل يقدم زوجك على ضربكِ؟ اهدئي ولا تضخّمي الأمور. في ثقافتنا أيضاً مثلٌ شعبيّ يشرِّع مثل هذا الصنيع، لا بل يحوّله إلى فعلٍ جذّاب ومرغوب فيه؛ فيقول العرب: "ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب". كم أودّ حشو أكبر قدر ممكن من الزبيب في معدة هؤلاء المتنمّرين!

لكن متى أصبح الزواج ممارسةً دينيةً فعلاً؟ في معظم الثقافات القديمة أوجد الرجل هذا الرباط في الأساس كطريقة للتأكّد من أبوّته لأولاده. لكنّ المسألة بقيت محافظةً على طابع خصوصي ودنيوي، فلم تنطوِ على أيّ تعهد ملزم أو احتفال خاص: بل كانت مجرّد اتفاق متبادل بين رجل وامرأة يمكّنهما من اعتبار نفسيهما "شريكين". ثمّ حلّ عصر الأديان السماوية، فأصبح الزفاف اتّحاداً لا بدّ من أن "يكرّسه الله": يا لها من طريقة عبقرية أخرى للسيطرة على الناس وتنظيم الحياة الجنسية، والعلاقات بين الذكور والإناث، وحقوق الأشخاص السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

في اليهودية والمسيحية والإسلام يُعتبر الزواج سرّاً قدسياً أو رباطاً مقدّساً يخضع لمشيئة الله، ويكون فيه الربّ شريكاً شراكةً مباشرة. لا بل إنّ الله إياه يراقب أيضاً عمليات التناسل فضلاً عن أيّ نشاطات جنسية ذات صلة. حتى يومنا هذا، لا يزال الأطفال العرب، المولودون خارج نطاق الزواج الديني، يُعرَفون بـ"اللقطاء"، فيتعرّضون لخسائر قانونية جسيمة ويحملون وصمة عار اجتماعية نتيجة وضعهم غير الشرعي هذا. وقد بقي هذا المصطلح مستخدَماً حتى وقت قريب جداً في لبنان، إلى أن تمكّن وزير الداخلية اللبناني السابق، زياد بارود، من شطبه عن هويات الأطفال المولودين خارج نطاق الزواج. لكنّ الطريق لا يزال طويلاً، ولا يزال أمامنا الكثير حتى نتمكّن من ترسيخ شرعية هؤلاء وحقوقهم القانونية والاجتماعية. ثمّ حدِّث ولا حرج عن الوضع في البلدان العربية الأخرى، مثل الأردن أو المملكة العربية السعودية مثلاً: حيث تُقدم العديد من النساء، ممّن لا يتمكنَّ من الإجهاض، على الانتحار، في حال وقوعهنّ في هذه "المصيبة"، لأنّ الموت أهون لهنّ من العيش مع عار الحمْل من دون زواج (حتى وإن كان الحمل، في العديد من الحالات، نتيجة حادثة اغتصاب على يد أحد أفراد الأسرة).

أذكر يوم كنتُ مشارِكةً في مؤتمر في ميلانو حول التمييز ضدّ المرأة،

فإذا بسيّدةٍ بين الحضور تسألني عن وضع الأمّهات العازبات في لبنان. شعرتُ برغبةٍ في الضحك، من فرط الإحباط طبعاً، لا السعادة. تقولون "أمّهات عازبات"؟ على حدّ علمي، لا وجود لهنّ. ففي لبنان والعالم العربي بشكلٍ عام، ثمّة نوعان من الأمّهات فقط لا غير: المتزوّجات و"السافقطات"، أي النساء اللواتي لوّثنَ سمعة العائلة عندما حملنَ قبل الزواج. ولا تقع "العين" على النوع الأخير. فهنّ، بكلّ بساطة، غير مرئيات، تتناقل الألسنة أخبارهنّ، همساً في أفضل الأحوال، وغالباً ما يتخلّينَ عن أطفالهنّ لدور الأيتام أو الأديرة.

أعرف نساء لبنانيات ناجحات كثيرات، منهنّ صديقات مقرّبات، يحلمنَ بأن يكنّ أمهات عازبات. أسمعهنّ يتحدّثن، مراراً وتكراراً، عن مدى رغبتهنّ في إنجاب طفل، دونما الاضطرار إلى التزام الزواج. لكنّ حلماً كهذا يُعدّ بعيد المنال بكلّ تأكيد، تماماً كاحتمال المساكنة من دون زواج. وإنّني لأراهن بأنّ السفر عبر الزمن سيصبح متاحاً قبل أن تصبح ظاهرة الأمّهات العازبات واقعاً محترماً في العالم العربيّ.

فضلاً عن النفوذ المعنوي الذي يمنحه الزواج لمن يتحكّم بمفاعيله، أثبت أيضاً، على مرّ الزمن، أنّه نشاطٌ مربحٌ للمؤسسات والشخصيات الدينية. كيف لا، وهو عملية تدرّ مبالغ ضخمة من المال على الكهنة والشيوخ، وليس فقط على متعهدي الطعام ومحال بيع الزهور. فضلاً عن ذلك، لا تزال "دوطة" العروس (أو المهر في الإسلام) شرطاً أساسياً في بعض الأوساط؛ حيث تُعقد هذه التدابير المالية عادةً بين العريس (أو عائلته) من جهة وعائلة العروس من جهة أخرى. أما التبرير الذي تقوم عليه هذه الصفقات – التي تشبه إلى حدّ كبير صفقات الإتجار بالرقيق – فهو أنّها "طريقة تصعّب على الرجل تطليق زوجته". لكن الاستمرار في الزواج لا لسبب سوى لعدم القدرة على تكبّد تكاليف الطلاق هو منطق مريض: إذ كيف يمكن العائق الماليّ أن يحسّن نوعية العلاقة بين شخصين؟ كيف يفترض به تعزيز رابط الحبّ والحميمية؟

~

أما عيب الزواج الثاني في العالم العربي فهو أنّه مؤسسة بطريركية بامتياز، تشجّع على فوقية الذكور وتنامي سلطتهم على النساء. في الواقع، لا تكتسب المرأة العربية "مكانةً" مهمّة في نظر المجتمع إلاّ عندما تتزوّج، فتصبح زوجة فلان (لاحظوا معي أنّ المرأة غير المتزوّجة

تُخَصّ بلقبٍ، تماماً كما في معظم اللغات الأخرى، – أعني به لقب الآنسة – الذي لا معادل له للرجال غير المتزوّجين). "العوانس" يُعامَلنَ بمزيجٍ من الشفقة والاحتقار. أما الزوجات فلا يزال يُتوقّع منهنّ أن يقمنَ بالجزء الأكبر من الأعمال المنزلية، حتى وإن كنّ يشغلنَ وظائف أخرى. بطبيعة الحال، تؤدي الأديان السماوية دوراً مباشراً في ترسيخ بطريركية هذا الاتّحاد، وجعله مؤسسةً تقوم على حكم الرجل وامتيازاته التي تفترض خضوع المرأة له: "أيّها النساء إخضعن لأزواجكنّ كما للربّ". الزوجة الصالحة هي تالياً تلك التي تطيع زوجها "على العمياني" وتخضع لسلطته. الزوجة الصالحة تتحمّل أيّ قمع يمارَس ضدّها على أساس جنسها (وهو قمع يتراوح ما بين الاستغلال العاطفي والاعتداء الجسدي) كأنّه أمر "طبيعي"، بسبب هيمنة الزوج الثقافية والاقتصادية والسياسية والقانونية عليها. الزوجة الصالحة تعتنق اسم زوجها بكلّ فخرٍ واعتزاز (بعد أن تكون قد حملت اسم أبيها خلال العقدين الأولين أو العقود الثلاثة من حياتها). الزوجة الصالحة يُتوقّع منها حصراً رعاية بيتها وأولادها: بينما يحتلّ الرجل الدوائر العامة، تعمل المرأة ضمن الدائرة الخاصة (هي مصدر الرعاية وهي "اليد التي تهزّ المهد").

لكن هل يقع اللوم على الرجال فقط؟ بالطبع لا. لعلّ أحد أبرز الأمثلة على ذلك، العديد من الزوجات اللبنانيات اللواتي يفوّضنَ مهمّة رعاية أطفالهنّ وإنجاز المهام المنزلية إلى العاملات الأجنبيات (حيث يعتمدنَ على الأثيوبيات، والسري لانكيات، والفيليبينات، وغيرهنّ)، لكنهنّ يرفضنَ في الوقت نفسه المشاركة في عملية جني المدخول. تراهنّ يطالبنَ بأن يلقينَ معاملةً متساوية، لكنهنّ لا يرغبنَ إلاّ بفوائد هذه المساواة. الأهمّ من هذا كله، ما زلن يربّينَ أولادهنّ بطريقةٍ تشجّع، حتمياً، على الهيمنة، والعدائية، والنرجسية لدى الفتيان، والضعف والاتكالية لدى الفتيات، عوض تشجيعهنّ على اعتماد نظرةٍ متساوية إلى الجنسين.

بالعودة إلى الرابط ما بين الزواج والبطريركية في العالم العربي، هل من داعٍ لتذكيركم بأنّه يحقّ للرجال في الإسلام اتّخاذ أربع زوجات؟ حاولوا أن تخبروا هؤلاء الرجال أنّكم تودّون، على سبيل التغيير، رؤية امرأة مسلمة لها أربعة أزواج: سيصبّ كلامٌ مماثل في خانة الزندقة المطلقة. ثمّ يروحون يحدّثونكم لساعات وساعات عن الإسلام ومدى احترامه حقوق المرأة وكرامتها، وكيف أنّه يتمحور كلياً حول "الحقّ" و"العدل". دعكم من أنّ زمن الحريم لم ينتهِ بعد.

ثم ماذا عن القانون الذي يسمح بإطلاق سراح المغتصب إذا تزوّج ضحيّته؟ في هذا السياق، دعوني أخبركم حكاية أمينة فلالي، الفتاة المغربية ذات الستة عشر ربيعاً التي انتحرت في آذار/ مارس ٢٠١٢ بعدما أجبروها على الزواج من مغتصبها. في الواقع، تتيح المادة ٤٧٥ من قانون العقوبات المغربي لمغتصب القاصرة أن يتزوّج ضحيّته كي يتملّص من العقاب، إذ يصون بذلك شرف عائلتها. كانت أمينة قد اشتكت لوالدتها من الضرب المبرح الذي كان زوجها ينهال به عليها خلال الأشهر الخمسة الأولى من الزواج، لكنّ والدتها أشارت عليها "بالصبر". فما كان من الفتاة إلاّ أن انتحرت من طريق ابتلاع سمّ الفئران. جديرٌ بالذكر أنّ القانون المريض المذكور أعلاه لا يقتصر على المغرب: ففي مناطق عدة في الشرق الأوسط، بما فيها لبنان (المادة ٥٢٢ من قانون العقوبات في بلدنا هي نفسها، لا بل تجيز أيضاً التحرّش بالأطفال واستغلال الأشخاص المصابين بإعاقة ذهنية جنسياً)، ثمّة قوانين تتيح للمغتصب/ المعتدي التملّص من الملاحقة القضائية في حال ردّ الاعتبار إلى ضحيّته من طريق الزواج بها. هكذا "يفلت" المجرم من العقاب، بينما "تُعاقَب" الضحية مرّتين وتدفع الثمن طوال حياتها.

ثم ماذا عن زواج المتعة أو نكاح المتعة لدى الشيعة في الإسلام؟ هو زواج تعاقدي محصور بمدّة معيّنة تُحدَّد سلفاً، ينحلّ تلقائياً عند انقضاء أجله القصير، دونما الحاجة إلى طلاق. ما على الأنثى إلاّ أن تقول: "زوّجتك نفسي على المهر المعلوم [تذكر قيمة المبلغ] والمدّة المعلومة [تذكر المدّة الزمنية]". ثم يقول الرجل: "أقبل". هكذا بكلّ بساطة. أخبرني صديق لي ذات مرّة أنّ قريباً له أراد عقد زواج متعة مع مومس روسية، فما كان منه إلاّ أن جعلها تردّد كالببغاء الكلمات العربية المطلوبة حتى يصبح الزواج قانونياً و"شرعياً" بحسب الدين. بطبيعة الحال، يشكّل هذا الأمر، للإنسان العاقل، نوعاً من الدعارة المشروعة، بما أنّ الزواج المزعوم قد يدوم نصف ساعة لا أكثر، وهدفه المضاجعة لا أكثر، وبما أنّ المرأة تتلقى تعويضاً مالياً لقاء "خدماتها". أما بالنسبة إلى المسلمين الشيعة، فهو زواجٌ "حقيقي": يكفي ذكر اسم الله وبعض الآيات القرآنية حتى يتحوّل المشهد، فلا يعود الإثم إثماً ولا يكون الرجل على وشك مضاجعة عاهرة ما، بل يعقد زواجاً شرعياً حلّله الله. تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ الزوجات في هذه الحالة غير محصورات بأربع كحدٍّ أقصى، بما أنّ الزوج غير ملزم إعالة زوجته. تالياً، يمكن الرجل أن يتّخذ قدر ما يشاء (ويتحمّل) من "زوجات المتعة": أكرّر، تفوح من هذا الزواج رائحة كريهة تُذكّر بزمن الحريم.

دعونا لا ننسى أيضاً زواج المسيار أو نكاح المسيار (زواج السفر) الذي يمارسه السنّة بشكلٍ غالب، وبموجبه يجوز للرجل أن يتّخذ زوجةً موقّتة إذا كان على سفر. في مجتمعات محافظة تعاقب على الزنى والعلاقات الجنسية الأخرى التي يمارسها المرء بعيداً من عقد الزواج، لا حرج في قبول هذه الممارسة. الشبه ما بين زواج المتعة وزواج المسيار كبير، ما خلا استثناءين: أولاً تاريخ انتهاء الصلاحية المحدّد سلفاً في زواج المتعة، وثانياً اشتراط زواج المسيار السنّي وجود شاهدَين راشدَين من الذكور، بينما يكتفي زواج المتعة الشيعي بحضور الزوجين، معتبراً أنّ الشاهدين هما الله والقرآن.

ثم ماذا عن زواج القاصرات؟ تصبح الفتاة بالغةً في الإسلام ما إن تأتيها الدورة الشهرية (كأنّ أوّل الحيض يعادل النضج)، وتكون تالياً جاهزةً للزواج. تفيدنا المصادر الإسلامية أنّ محمّد عرض الزواج على عائشة عندما كانت في السادسة من عمرها، وقد افترض أنّ سكوتها علامة الرضى. بعد سنتين أو ثلاث أتمّ زواجه عليها. كان في الاثنين والخمسين في العمر، وهي لما تزل في التاسعة. لكن هل اقتصرت تلك الممارسة الرهيبة على عهد محمد؟ يا ليت! فالعدد المروّع للطفلات اللواتي يُزوَّجن في العالم اليوم وهنّ بعد لا يتجاوزن الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، وأولئك اللواتي يشكّلنَ سلعةً في صفقات زواج تتمّ من اليمن إلى إيران ومن السعودية إلى أفغانستان، يثبت أنّ المشكلة أبعد ما تكون عن الحلّ. في هذا الإطار، تقدّر المنظّمة الإنسانية "Care" أنّ أكثر من ٦٠ مليون فتاة ما دون الثامنة عشرة متزوّجات، وأنّ العديد منهنّ زُوِّجن لرجال أكبر منهنّ سناً بضعفين أو أكثر. بطبيعة الحال، ليستَ كلّ الفتيات اللواتي يُزوّجنَ في سنّ الطفولة مسلمات، ولا أقول إنّ الإسلام هو السبب الوحيد وراء ظاهرة زواج القاصرات في العالم. إذ ثمّة أيضاً دوافع اقتصادية وثقافية واجتماعية أخرى. لكن يكفي أنّ الإسلام يجيز هذه الممارسة، لا بل يشجّعها، بما أنّ النبي محمّد هو "القدوة الحسنة". فضلاً عن ذلك، تشير التقارير إلى أنّ عدد الطفلات المسلمات اللواتي يُزوَّجنَ يشهد ارتفاعاً في أوساط المهاجرين المسلمين في الدول الغربية، مثل المملكة المتّحدة وكندا.

من الحالات المأسوية، بشكل خاص، قصة الطفلة اليمينة إلهام مهدي العاصي، التي زُوِّجت في الثالثة عشرة من عمرها وتُوفيت عام ٢٠١٠ بعد ثلاثة أيام على زفافها. كان زوجها "المحبّ" قد أقدم على تقييدها، ثم اغتصابها بشكلٍ متكرّر، قبل أن يتركها تنزف حتى الموت. ثمّ لا

ننسى قصة الفتاة السعودية ذات الأعوام العشرة، هالة اليوسف، التي ردّها أبوها في آب/ أغسطس ٢٠٠٩ إلى زوجها المسنّ رغماً عنها. كانت الفتاة مختبئة في بيت خالتها لفترة تجاوزت الأسبوع عندما افتضح أمرها. في بادئ الأمر، كانت شقيقتها الكبرى معدّة لخطبة الرجل الثمانيني، لكن عندما فضّلت هذه الأخيرة متابعة تعليمها، أقدم الوالد على منحه أختها الصغيرة كعروس بديلة، بما يتوافق مع أحكام الشريعة.

إذا لم تكن هذه الشريعة الفذّة تشريعاً وتسهيلاً للبيدوفيليا أو الدعارة أو الإتجار بالرقيق، فما عساها تكون إذاً؟

~

أما الشائبة الثالثة التي تشوب الزواج فهي فرضه على البشر توقّعات مستحيلة. من الأمثلة على ذلك مقاربة الزواج كأنّه عقد أبدي: فالرابط بين الرجل والمرأة لا يحمل تاريخاً لانتهاء الصلاحية، ولا مجالاً مقبولاً للهرب من السقف الواحد الذي فُرض عليهما العيش تحته، ما يؤدي إلى شعور بالاختناق ويقضي على أيّ فرصةٍ بالخصوصية وأيّ مجالٍ للتنفّس. يبقى طبعاً احتمال العيش في بيتين منفصلين (هذا ما آثرته في زواجي الثاني)، لكن من الصعب لكثيرين تحمّل الأعباء الاقتصادية الناجمة عن ذلك.

على رغم معدّلات الطلاق المرتفعة والمتزايدة في مختلف أنحاء العالم، لا يزال الزواج مؤسسة تقوم على شعار "حتى يفرّقنا الموت". لكن ألا يقضي هذا على مشاعر الإثارة بين الزوجين؟ أليس من الأفضل التفكير فيه وكأنّه قد ينتهي في أيّ لحظة؟ ألن تشعرا بحماسة أكبر لو اعتبرتما أنّه تأشيرة دخول موقتة وقابلة للتجديد، عوض تصريح إقامة دائمة؟ السائح أكثر تمتعاً بالأرض من سكّانها. زد على ذلك أنّ الشعور بالقلق (من كلا الطرفين) شكلٌ من أشكال الفن؛ فما من شيء يحثّنا على معرفة قيمة شخصٍ ما أكثر من شعورنا بأنّنا قد نخسره في أيّ لحظة: من شأن هذا أن يدفعنا إلى تقديره بشكلٍ أفضل.

وفقاً للإحصاءات الأخيرة، باتت النساء يبادرنَ إلى طلب الانفصال أكثر مما يفعل الرجال. يقاوم الرجال، على ما يبدو، إغراء الطلاق بدرجة أكبر، ويمكنني أن أزعم أنّني أعرف السبب. ذلك، في رأيي المتواضع،

أنّ الرجال المتزوّجين قادرون، في معظم الأحيان، على "الخروج عن الصراط الزوجي" بسهولة أكبر من النساء، وهم أكثر قدرةً على "الإفلات من العقاب". فلِمَ يطلّقون وثمّة "زوجة وفيّة" تنتظرهم في البيت عندما يحتاجون إلى ذلك، وتربّي أطفالهم، وتمنحهم الاستقرار الناتج من العلاقة العاطفية الثابتة، وتضمن لهم الإطار الاجتماعي التقليدي المطلوب؛ هذا كلّه بينما في وسعهم فعل ما يشاؤون خارج نطاق البيت الأسري، إذا سوّلت لهم أنفسهم ذلك. في الواقع، تشير بعض الإحصاءات إلى أنّ الرجال، في مختلف أنحاء العالم، أكثر ممارسةً للخيانة من النساء (رغم أنّ عدد النساء الخائنات لشركائهنّ إلى ارتفاع). أما السبب فليس أنّ النساء "أقل عرضةً للإغراء من الرجال" أو "أكثر قدرةً على مقاومة الجاذبية الجنسية"، كما يُردَّد على مسامعهنّ منذ الطفولة: بل لأنّ الأمر أسهل عملياً على الرجال في أغلب الأحيان (فهم يتمتّعون عادةً بحرية أكبر في التنقّل وتقديم الحجج والأعذار)، ولأنّ مجتمعاتنا البطريركية لا تدين خيانة الرجل مثلما تدين خيانة المرأة. فالرجل الذي يقيم علاقات غرامية معذور، بينما المرأة التي تقيم علاقة من هذا النوع ساقطة في نظر الناس. بمعنى آخر، عندما يمارس الرجل الجنس خارج إطار الزواج، غالباً ما يُصنَّف الأمر كزلّة أو "خطأ عابر"، بينما يحمل الفعل نفسه سمة "الخيانة الخطيرة" عندما تمارسه المرأة. هذا فضلاً عن مشاعر الذنب التي تلقي بثقلها، تاريخياً، على النساء، أكثر بكثير مما تفعل على الرجال.

إذاً، يتمتّع الرجال، باختصار، بترف فعل كلّ ما يحلو لهم، من دون أن يضطروا فعلياً إلى اتخاذ قرار الانفصال. ليس هذا فحسب، لا بل إنّ بعضهم يمنح زوجته "الضوء الأخضر" لتخوض مغامراتها الخاصة بين الحين والآخر، طالما أنّها "متكتّمة" وتحافظ على الواجهة المقدّسة للزواج. هكذا، يتمتّع كلاهما بأفضل ما في العالمين، فلِمَ المشاحنة والمشكلات إذاً؟

بطبيعة الحال، ليست العلاقات الغرامية السبب الرئيسي الذي يدفع بالنساء إلى طلب الانفصال بدرجة أكبر من الرجال. فاتخاذ النساء قرار هجر شركائهنّ لا يتعلق بالخيانة بقدر ما يتعلق بعدم رغبتهنّ في قبول الأمر الواقع. بالنسبة إلى معظم الرجال، المظاهر تحتلّ مكانةً أساسية. و"زواج لا بأس به" أكثر من كافٍ إذا كان يحفظ تلك المظاهر. لكنّ معظم النساء يُردنَ أكثر من مجرّد "زواج لا بأس به". يُردنَ الشعور بالشغف والحميمية مع الشريك. مردّ ذلك، بشكل رئيسي، إلى أنّ الأهل لا يزالون يربّون أولادهم وبناتهم على اتّخاذ موقف مختلف كلّ

الاختلاف تجاه الزواج. بالفعل، تفرض الثقافة البطريركية صورةً رومنطيقية مثالية عن الزواج على الفتيات الصغيرات، بينما ينمو الفتيان، في المقابل، في ثقافة صبيانية ترى في الزواج نهايةً للحرية. باختصار، يُلقَّن الصبيان أنّ الزواج يقوم على الاستقرار والروتين، بينما تُلقَّن الفتيات أنّه يتمثّل في إيجاد السعادة الدائمة. من الواضح، إذاً، أيّ طرف في العلاقة يرسم توقّعات أكبر، وأيّهما تالياً سيصاب، على الأرجح، بالخيبة والإحباط.

لهذا السبب أدافع عن فكرة الزواج المتعدد (لا تعدد الزوجات أو الأزواج!)، أي الزواج مرّتين أو ثلاثاً أو أربعاً، وفق ما تقتضيه رغباتنا واقتناعاتنا واحتياجاتنا في مراحل مختلفة من حياتنا، حتى وإن كان ذلك على حساب إنهاء علاقةٍ حافلة بالذكريات، وزرع البلبلة في حياة أولادنا. في رأيي، ستكون حياة أولادنا أسوأ بكثير إذا لطّخها شجارنا المستمرّ، وغلب عليها نزاعنا المرير، وتسرّبت إليها خيبات أملنا، من حياة شهدت انفصالاً حضارياً بين الأهل.

يختلط الأمر على بعض الأشخاص، فيخالون أنّ الوفاء يعني الاستمرار في الزواج "مهما كلّف الأمر". يعتقد الكثر منا أنّ الإنسان صاحب المبادئ يفي بوعوده، حتى وإن كانت هذه الوعود تتسبّب بتعاسته. إنّ العلاقة الناجحة والمرضية تحتاج إلى أكثر من التزامٍ مؤسف بعدم هجر الشريك مهما ساءت الأحوال؛ تستحقّ أكثر من حجّة "البقاء من أجل الأولاد"؛ وتتطلّب أكثر من التظاهر، بكلّ جبن، بأنّ كلّ شيء يسير على ما يرام. إنّها تحتاج، وتستحقّ، وتتطلّب، في المقام الأول، رغبةً عميقة في مشاركة حياتكَ مع شخص آخر.

~

من العيوب الأخرى التي تشوب الزواج اشتراطه الاكتفاء بشريك واحد طوال العمر. فالقوانين التي تطبّقها الأديان لا تسمح لأيّ شخص حتى باشتهاء رجل آخر/ امرأة أخرى، فما بالك إن تعلّق الأمر بمضاجعته (من جديد، أكرّر أنّ المرأة تعتبر ملكاً لزوجها، وأنّ العقوبة تكون دائماً أكثر تشدّداً عليها إذا أقدمت على الزنى). أعرف أنّني أسير في حقلٍ محفوفٍ بالألغام ها هنا، لكنّني لا أريد رجلاً "يرغم" نفسه على عدم مضاجعة امرأة أخرى، بينما هو معي. إذا كان رجل ما "وفياً" لي جنسياً، فأريد أن يكون قراره هذا أقوى من عقله، كنارٍ تحرق غابة، لا أن يُتّخَذ بناءً على تفكير منطقي وعاقل و"أخلاقي" فحسب. أريده أن

يفعل ذلك لأنّه لا يقوى على مضاجعة أخريات، لا لأنّه يخشى أن "يجرحني"، أو لأنّه يموت رعباً من افتضاح أمره، وبالتأكيد لا بسبب واجب أخلاقي أو عهود زواج أو ضغوط تمارسها لعبة الذنب.

إنّ الإخلاص كخيارٍ محض أخلاقي، لا كغريزة طبيعية وعفوية، يولّد الكبت. وأنا لا أرغب في رجل مكبوت في حياتي. فالكبت يتطلّب من الآخر الشعور بالامتنان. والامتنان يشترط السكوت على العلل. والسكوت على العلل يؤدي إلى النفاق. والنفاق يولّد الأكاذيب. والأكاذيب تنتج خيبة الأمل. وخيبة الأمل تفضي إلى النفور: هي حلقة مفرغة لا متناهية من المواقف غير الطبيعية.

إنّ الخلط بين الأخلاق من جهة، والتزام شريك واحد من جهة أخرى، هو أحد الكليشيهات التبسيطية. لكأنّ ما يمنع الإنسان من التصرّف كحيوان هو قرار الإخلاص جنسياً لشريك واحد ليس إلاّ. حبّذا لو كان ذلك صحيحاً! في الواقع، يعكس الاكتفاء بشريك واحد في الحياة، في أغلب الأحيان، عقيدة شخصية نتبنّاها بفعل عبءٍ لا مفرّ منه تلقي به الأديان علينا؛ وهي عقيدة تلقّن الجميع بأن يتصرّفوا كآلات، متّبعين سلوكيات مفروضة عليهم فرضاً. لكن أن تكون إنساناً يعني أن تشكّك في كلّ شيء، بطريقة مكشوفة وشفّافة. أن تكون إنساناً يعني أن تعرف مَن تكون، وأن تختار طريقكَ في الحياة، لا لأنّكَ مجبرٌ على ذلك، بل لأنّكَ شققتَ هذا الطريق بنفسكَ. أن تكون إنساناً يعني أيضاً أن تتقبّل عواقب أعمالكَ وخياراتكَ، لا أن تنظر إلى ما حولكَ بحثاً عن كبش فداء.

غالباً ما يكون الزواج بشخص واحد أشبه بصكّ ملكية، لا بل قلْ سجناً جنسياً يفرضه المجتمع ويمكن أن يفضي إلى مشاعر من الإحباط والغضب والازدراء. فضلاً عن ذلك، ليس هذا النوع من الارتباط الطريقة الوحيدة لنسج علاقة بين شخصين، وقد آن الأوان ليكتشف المجتمع أشكالاً أخرى من العلاقات المتوافق عليها: لعلّ أحدها الزواج المفتوح.

لا أعتقد أنّ "الخيانة" هي العامل الوحيد الذي يؤدي إلى انفصال زوجين، بل غالباً هي التوقّعات غير المنطقية التي تنتج منه. ليس الجنس مع طرف ثالث، بل الحميمية العاطفية التي قد تنشأ مع هذا الطرف الثالث، ما يشكّل خطراً حقيقياً على الزواج؛ فمعظم الأشخاص يُقدمون على الخيانة لا لأنّهم كفّوا عن حبّ شريكهم، بل، بكل بساطة، لأنّهم يريدون الانغماس في ملذّات جنسية مع أشخاص آخرين. تالياً،

في إمكان المرء أن يكون متعلّقاً بشريك واحد عاطفياً، بينما يكون، في الوقت نفسه، متعدّد الشركاء جنسياً. فتراه يلازم شريكه الطويل الأمد بسبب ما يكنّه له من روابط اجتماعية وعاطفية، بينما يشتهي الترويح عن نفسه من خلال ممارسة الجنس مع أشخاص آخرين بين الحين والآخر.

لا أدافع عن الخيانة ها هنا، بل عن إقامة علاقات مفتوحة عادلة، تتجاوز الأنماط التقليدية للغيرة والتحكم والتدقيق في كلّ شاردة وواردة، وهي أنماط يمكن أن تلحق ضرراً بالغاً بالزواج، وتضفي على العلاقة شعوراً أشبه برهاب الاحتجاز. لهذا السبب تدعو الحاجة إلى التحلي بالشفافية والصدق بين الطرفين عند إقامة علاقة مفتوحة، للحؤول دون تحوّل هذا المفهوم إلى أداة لخداع الطرف الآخر؛ زد على ذلك أنّ الشفافية والصدق أكثر منطقيةً من الغشّ والكذب، بكلّ بساطة. أما الشرط الأساسيّ الثاني لتطبيق هذا النوع من العلاقة فهو ضرورة موافقة كلا الشريكين عليها. أقول ذلك لأنّ معظم الرجال يريدون أن يمارسوا الجنس خارج إطار الزواج التقليدي، لكنّهم يحظّرون ذلك على زوجاتهم ولا يتحمّلونه. وهذا أمرٌ مجحف، غير مقبول على الإطلاق، ويدلّ على الأنانية والتمييز: مجرّد قالب آخر من القوالب التي تُصَبُّ فيها التربة البطريركية.

~

هل يصدمكم كلامي هذا؟ تمهّلوا قليلاً واسألوا أنفسكم عن السبب. هل لأنّه تمّ تكييفكم على الشعور بذلك؟ هل لأنّكم تؤمنون بأنّ الحرية تؤخذ ولا تُعطى؟ هل لأنّكم تعوّدتم على المزج بين الحبّ والتملّك؟ هل لأنّكم خائفون من "المنافسة"؟ اسمعوا إذاً: سريركم لا يخلو أبداً من أشباح الآخرين. الزوجان اللذان يمارسان الجنس لا يكادان يكونان، إطلاقاً، وحدهما.

نشرتُ ذات يومٍ قصّةً قصيرة عن امرأة متزوّجة تحضّر لائحة التسوّق في ذهنها بينما كانت تمارس الجنس مع زوجها. أثارت القصّة موجةً من الغضب لدى بعض القرّاء، وكأنّني دنّستُ مقدّسات معيّنة. إذا كنتم ترغبون في جرعة من الرفض والإنكار، فثقافتنا وتربيتنا هما المكان المناسب للحصول عليها. لكن حذارِ: احتمال التعرّض لجرعة زائدة كبيرٌ جداً.

كم من امرأةٍ متزوّجة "تخضع" لتجربة الجنس مع زوجها وكأنّها إحدى المهام الروتينية؟ كم منهنّ تتمنى لو تستطيع التملص من طقوس مساء السبت التي تقوم على إقحام القضيب فيها وإخراجه لمدة ثلاث دقائق بطريقة أوتوماتيكية؟ لا بل إنّ بعضهنّ يخبرنني عن مدى ارتياحهنّ لانشغال أزواجهنّ في علاقات غرامية: هكذا، تتخلّص الزوجة من ضغوط ممارسة الجنس مع زوجها، وتتلقى في المقابل عدداً أكبر من الهدايا النفيسة من الزوج الخائن. نعم، الزنى نفسه سوق مالية أيضاً. لكن من هو الأكثر فساداً؟ الراشي أم المرتشي؟ لا هذا ولا ذاك: إنها مجرّد مسألةٍ تقوم على العرض والطلب.

لا أقول إنّ الأشخاص الذين يكتفون بشريك واحد غير موجودين، بل على العكس. أضف إلى ذلك أنّ الارتباط بشريكٍ واحد أمرٌ رائع، ولكن فقط عندما يكون متبادلاً وصادقاً: للمفارقة، ليس ثمّة حرية أكبر وأعظم في الحياة من تلك التي يمنحها عدم الرغبة في أيّ إنسان آخر باستثناء ذلك الذي تحبّ، وعدم اشتهائك إلاّ إياه، وحاجتك إلاّ له، وعدم رغبته هو في أيّ إنسان آخر سواكِ، وعدم اشتهائه إلاّكِ، وحاجته إلاّ إليكِ. لقد اختبرتُ ذلك الشعور بنفسي، تالياً فإنّ وصفه بالساحر والمذهل لا يكفي. لكن يجدر بهذا الشعور أن يكون متبادلاً وغريزياً، كي يكون مسكِراً ومتألقاً حقاً. فكم من شخصٍ يرتبط بشريك واحد فقط بدافع الواجب، أو الخوف، أو الشعور بالذنب، أو انعدام الفرص المتاحة أمامه؛ وكم منهم يفعل ذلك لأنّه يكنّ حبّاً حقيقياً للشريك؟ أنحني احتراماً لهذه الفئة الأخيرة، وأحسدها كلّ الحسد.

لا أدّعي أنّ ما أقترحه ها هنا أمرٌ سهل. سمّوني متطرّفةً إذا شئتم، لكنّني لا أحترم إلاّ نوعاً واحداً من الإخلاص، ولا أقبل وأؤمن إلاّ به. أعني به النوع الذي يقول: "أنا وفيّ لكِ لأنني لا أملك إلاّ أن أكون كذلك". كل ما دونه إهانة.

~

إنّ تعداد عيوب الزواج كلّها عملية مضنية بطبيعة الحال: من الروتين، إلى انعدام أيّ فسحة شخصية، فالشجار على التفاصيل التافهة، فالملل، إلخ. لكنّكم جميعاً على علم بهذه العيوب، وأنا على يقين من أنّني لست أوّل من يكتشف أنّ هذه المؤسسة باتت مترهلة وفي حاجة إلى إعادة اختراع. عوض ذلك، اسمحوا لي بأن أختتم هذا الفصل باقتراح نسخة منقّحة، أكثر واقعيةً وأقلّ طوباوية، عن عهود

الزواج:

العهود القديمة: أتخذَك زوجاً (أو زوجة) مؤبّدة، وأعدكَ بأن أظلّ معك في السرّاء والضرّاء، في الصحة والمرض، وبأن أحبّكَ حتى يفرّق بيننا الموت.

العهود الجديدة: أتخذكَ حبّاً موقتاً. لا يمكنني أن أعدكَ بشيء، لكنّي أفضّل أن نعيش في السرّاء على الضرّاء، وفي الصحة على المرض. سأحبّكَ طالما أستطيع، ليس يوماً واحداً أكثر من ذلك. لن يكون الموت ما يفرّقنا: سيكون على الأرجح حبّاً آخر. فهل تريد "العيش بالرفاه والبنين" مع غيري أم تريد المجازفة معي؟

١٠ ـ كارثةٌ اسمها الشيخوخة

"من يجرؤ على التصرّف بحماقة يخطو خطوة أولى في اتجاه الحكمة".

جيمس هونيكي

القصيدة

نظرية الخرشوف

الأوراق قاسيةٌ جداً. تلمسينها وتشعرين أنّها منيعة، كحصنٍ لا يُدمَّر. تبتسمين للخرشوف، لكنّه لا يبادلكِ الابتسامة: يا له مخلوقاً مخيفاً! كأنّه يرسل إليكِ تحذيراً، كأنّه يقول: "ارحلي. أنا قاسٍ جداً بالنسبة إليكِ. لن تستطيعي أن تتحمّليني".

كان حرياً بكِ أن تعرفي ذلك منذ البدء.

تبدئين إذاً بنزع الأوراق عنه. يوماً تلو يوم، سنةً بعد سنة. تنزعين ورقةً واحدة كلّ مرة. تدكّين حصناً وراء حصن. وكلّما خلتِ أنّكِ قد وصلتِ أخيراً إلى اللبّ، طالعتكِ المزيد من الأوراق المتوعّدة، كأنّها تقول: "لا جدوى منّي. أنا كما أنا. انجي بنفسكِ واهربي بعيداً".

كان حريّاً بكِ أن تعرفي ذلك منذ البدء.

لكنّكِ تصرينّ، وتستمرّين في نزع تلك الطبقات الصلبة من الخوف، والألم، والشك، والخيبة التي كسا بها الخرشوف نفسه على مرّ الزمن احتماءً من القاسين، من المدّعين ومتحجّري القلوب. تؤلمكِ أصابعكِ، يكاد صبركِ ينفد، لكنّكِ من العناد والشغف ما يمنعكِ من الاستسلام، لأنّكِ تعلمين أنّ هذا الألم هو الطريقة الوحيدة لكي تستحقّي ما هو آتٍ.

وأخيراً... أخيراً، يركن لبّ الخرشوف عارياً بين يديكِ. تنظرين إليه منهكةً، غير مصدِّقة. لقد اختفت الأشواك. اختفت الأوراق المدبّبة: لم يعد ثمّة شيء سوى قلبٍ رقيق ناعم، يسألكِ أن تأكليه. يرجوكِ: "خذيني. لم أعد أريد المقاومة. تعبت. إيمانكِ بي جعلكِ أهلاً لاستسلامي لكِ، وجعلني أستحقّ خلاصي".

هكذا، تأكلينه. تأكلين القلب الناضج. قلبكِ الناضج. ويزهر القلب شجاعةً في داخلكِ. فتشعرين بالزهو، لأنَّكِ، على رغم كلّ المعلّبات الموجودة على رفوف المتاجر، المقشّرة والمعدّة لكِ كي تأكليها، اخترتِ أن تبذلي جهداً كي تأكلي خرشوفكِ. تجتاحكِ سعادةٌ بالغة لأنّ رحلة حياتكِ، على رغم كونها طويلة وصعبة، كانت تستحقّ ذلك كلّه.

وتفهمين أنّ الخرشوف إنما هو استعارةٌ عن نضجكِ، استعارةٌ عن وجودكِ الخاص...

تفهمين أنّ الخرشوف إنما هو... أنتِ.

المرافعة

وإن يكن؟

"نضج الإنسان يتحقق بالعودة إلى الجدّية التي كان يتحلّى بها عندما كان يلعب طفلاً".

فريديريك نيتشه

أنا في الأربعينات من عمري اليوم. أو على الأقلّ، هذا ما تُعلمني به وثيقة ولادتي: هذه السنّ المخيفة التي يقال فيها للنساء إنّ ملامح الشيخوخة تبدأ بالظهور عليهنّ، وللرجال إنّهم يزدادون جاذبيةً. حتى النضج لدينا يقوم على معجم يميّز بحق المرأة.

نعم، أنا في الأربعينات من عمري اليوم. وإن يكن؟ طبعاً، تكوّنت بعض التجاعيد حول عينيّ؛ فقد ابتسمتُ في حياتي كثيراً وعبستُ كثيراً. ضحكتُ وبكيتُ. باختصار، لقد عشتُ حياتي بطولها وعرضها! وأنا على يقين من أنّ الحياة لا تزال تخبّئ لي الأفضل. تقولون إنّ بشرتي تدفع ثمن طمعي؟ فليكن! حتى وإن كنت وحيدةً في هذه اللحظة، فقد كنت أكثر وحدةً عندما كانت بشرتي لمّا تزل ملساء. لم أعد أشتهي الثمار من بعيد، بل صرت أحدّق فيها بملء العين وألتهمها!

نعم، أنا في الأربعينات من عمري اليوم. وإن يكن؟ طبعاً، بدأ الشيب يغزو شعري؛ فقد شهدتُ على الكثير من الأفراح، والكثير من الأتراح. لقد ناضلتُ. انتصرتُ. وخسرتُ. تقولون إنّ خصلات شعري المتموّجة تدفع ثمن جنوني؟ فليكن! لست بحاجة إلى صبغ شعري كي أشعر بأنّني أصغر سناً. نار الشغف التي تتّقد في داخلي ستتكفّل الأمر. ولونها الأحمر الملتهب لا يتحوّل إلى الأبيض أبداً.

نعم، أنا في الأربعينات من عمري اليوم. وإن يكن؟ طبعاً، بتّ أنظر جيّداً قبل أن أقفز. لكنّني أقفز في مطلق الأحوال، حتى وإن لم يكن أحدٌ جاهزاً ليتلقّفني من الجهة الأخرى. أعرف أنّني سألتقط نفسي بنفسي. دائماً ما أفعل ذلك. تقولون إنّني سأكسر عظمة أو اثنتين؟ فليكن! ننحرف أحياناً عن الطريق الصحيح، لكنّنا نكون، في الواقع، سالكين الطريق الحقيقيّ نحو الاكتشاف. وأنا لا أريد أن أكفّ عن شدّ

الرحال نحو المجهول. أبداً. ركبتايَ المكسوّتان بالرضوض أقوى مما تبدوان عليه.

نعم، أنا في الأربعينات من عمري اليوم. وإن يكن؟ طبعاً، لا أثق بالآخرين كما كنت أفعل. لكنّني أوليهم ثقتي برغم ذلك، حتى وإن كان ذلك يروّعني. تعلّمتُ أنّ الخاسر الحقيقي في الحياة هو الإنسان المخادع، لا ذاك الذي تعرّض للخداع. تقولون إنّني سأتلقّى صفعةً بين الحين والآخر؟ وإنّني سأُطعَن في الظهر أحياناً؟ فليكن! أنا فخورة بندوبي التي لا تزال تقطر دماً. كلّما نزفت أكثر ازددتُ ظمأً إلى المزيد.

نعم، أنا في الأربعينات من عمري اليوم. وإن يكن؟ طبعاً، لم أعد أؤمن بأشياء كثيرة. لكنّني ما زلت مؤمنة بالحرية. بالحبّ. بالصداقة. مؤمنة بالغموض. بالرغبة. بالمفاجآت. مؤمنة بالكلمات. بالصمت. بالكرامة. مؤمنة بعطاء يكون مجزياً أكثر من الأخذ. الأهمّ من هذا كلّه: أنا مؤمنة بجمانة. تقولون إنّني سأسمع أكاذيب بين الفينة والأخرى؟ فليكن! القسوة هي أن تكذب على نفسك، لا على الآخرين. أما العقوبة، فتحملها في داخلك.

نعم، أنا في الأربعينات من عمري اليوم. وإن يكن؟ ما زالت ابنة الاثني عشر ربيعاً تلعب وتقهقه في داخلي. قلّما تبالي بالتجاعيد، أو الشيب، أو عظامها المكسورة، أو قلبها المجروح. قلّما تبالي بالخداع، أو الخوف، أو الصفعات، أو الطعنات في الظهر، أو الندوب.

هي لا تزال خفيفة، لامبالية كقصيدة لم تُكتَب بعد... ولا تنوي أن تشيخ قريباً قطّ.

السرد

كلّنا بيتر بان

”أن تكون هو أن تتغيّر. أن تتغيّر هو أن تنضج. وأن تنضج هو أن تعيد خلق نفسكَ إلى ما لا نهاية“.

هنري برغسون

على غرار معظم الأطفال، كان ابني الأصغر، أنسي، يهوى الرسم. كان يرسم لي لوحات جميلة بالألوان المائية، احتفظ بها في مختلف الأمكنة: في حقيبتي، وتحت الوسادة، وبين كتبي، وفي حقائب السفر. كنت أعلّق أعماله التجريدية الملوّنة هذه على مرآة الحمّام، والبرّاد، وفي غرفة نومي، لا بل أيضاً في مكتبي، جنباً إلى جنب أعمال أهمّ الرسّامين اللبنانيين. كنت، باختصار، أتصرّف كأيّ أمٍّ عادية.

لكن عندما بلغ أنسي الصف السادس بدأ يكره الرسم، وباتت الأوراق التي درجَ على تقديمها إليَّ تندر يوماً تلو الآخر. كما إنّه أمضى الفصل الدراسي الأول، بكامله، وهو يتذمّر من مدرّسة الرسم ”العجوز“ وهو يقول: ”معلّمتنا العجوز فعلت كذا وكذا“. ليس هذا فحسب، بل كان يردّد مراراً وتكراراً، مطلقاً تنهيدةً طويلة: ”إنّها لا تفهمني“. تخيّلتُ أنّ ابني عبقريّ من عباقرة مرحلة ما بعد الحداثة، وأنّه سيكون خليفة آندي وارهول في لبنان، لكنّه يصطدم بتوبيخ مرشدة مسنّة من التيّار التقليدي، لا تفقه شيئاً عن الأشكال والتعابير الفنية الجديدة.

بعدما زادت الشكاوى على حدّها قرّرتُ أن أجتمع بالسيدة المذكورة، كي أنفض الغبار المتراكم عن آرائها المنقرضة حول الفنون. في ذلك الصباح، بينما كنت أطبع قبلةً على خدّ أنسي قبل ذهابه إلى المدرسة، خطر لي أن أسأله: ”وكم عمر معلّمتك العجوز بالضبط؟“ عندما جاءني جوابه أحسستُ كمن يتلقّى ركلةً قويةً في معدته. بعدما أطلق تصفيرة طويلة عنى بها أنّها تنتمي إلى العصر الجوراسي أكثر من انتمائها إلى القرن الحادي والعشرين، قال: ”إنها هرمة حقاً. أرجّح أن تكون في الأربعين“. كنتُ، أنا، قد بلغتُ الأربعين قبل أسبوع من ذلك.

~

آنذاك صعقتْني الفكرة: في رأي ولديَّ، ينبغي لامرأة في الأربعين أن تحوك الجوارب الصوفية بالقرب من الموقدة، بينما ينبغي لها في رأيي أن ترتدي الجوارب الشبكية تحت تنّورة جميلة. في رأيهما، تحتاج امرأة في الأربعين إلى عكّاز كي تتمكن من السير، بينما هي في رأيي ترقص حتى انبلاج الفجر مع أصدقائها. في رأيهما، "ينتهي المشوار" بالنسبة إلى امرأة في الأربعين، وفي رأيي، "تبدأ الحكاية لتوّها".

لا ريب في أنّني لا أقول جديداً عندما أُورد أنّ الهوس بالشباب بدعةٌ أوجدها المجتمع البطريركي، وكذلك الأمر بالنسبة للهوس بالجمال الاصطناعي وما ينجم عنه من إدمان للجراحة التجميلية. ففي ظلّ انتشار صور مستحيلة في المجلات لنساء بعيدات كلّ البعد عن الواقع، وفي عالمٍ صناعيّ يولي أهميةً خاصة للمظاهر (لا سيّما جمال المرأة)، ومع وجود طائفة المشاهير الأثرياء الذين يستطيعون تحمّل كلفة شراء شبابهم، باتت الضغوط من أجل المحافظة على الشباب والجمال أكبر من كلّ وقتٍ مضى. كيف لا والإعلام (البطريركي) يجعلنا نؤمن بأنّ الذين يحافظون على شبابهم وجمالهم وحدهم يحتلّون مكانةً مهمّة؛ وحدهم يحظون بحياة اجتماعية مشرقة وباقة كبيرة من الأصدقاء؛ ووحدهم الناجحون في حياتهم والسعداء والمرغوبون. لهذا السبب تخفي العديد من النساء عمرهنّ الحقيقيّ، ويجهشنَ بالبكاء في أعياد ميلادهنّ، عوض التقدّم في العمر بسلامٍ ولباقة. لهذا السبب تستثمر العديد من النساء أموالهنّ في سبيل وضع حدٍّ لعملية الشيخوخة (من كريمات إلى حُقن وعمليات تجميل، إلخ)، عوض الاعتزاز بتلك الخطوط التي رسمتها ضحكاتهنّ على وجوههنّ، والسماح بأن يتألّق شعرهنّ بلونه الفضيّ الساحر.

بينما نتقدّم في العمر، محتّمٌ علينا جميعاً أن نشعر بالإحباط. محتّمٌ علينا جميعاً أن نشعر وكأنّ الوقت يهرب من بين أيدينا. محتّمٌ علينا جميعاً أن نخاف من تكّات الساعة المتتالية. كيف لا نفعل والشباب يعكس في نظرنا ما لا يُعَدّ ولا يُحصى من الاحتمالات، بينما ثمن النضج يعادل لائحةً طويلة من الهموم والمسؤوليات؟ لكن هل هذا سبب وجيه لإغراق أنفسنا في بحرٍ هائج من التصرّفات التي تليق بالمراهقين، والتهرّب من الواقع من طريق الاستغراق في الخيال؟ هل هذا سببٌ وجيه للخضوع لسلسلة لا متناهية من عمليات شدّ الوجه، وتضخيم الشفاه، ونفخ الخدود، وغيرها من العمليات التي تبعدنا عن

مظهرنا الطبيعي؟

فلنتناول حالة لبنان على سبيل المثال، حيث باتت العديد من الشابّات الجميلات، المكتملات صحّةً وعافية، اللواتي لا حاجة بهنّ إلى الجراحة التجميلية، يلجأنَ إلى هذا الخيار أكثر فأكثر؛ لا بل إنّ الكثيرات منهنّ يحاولن إعادة تشكيل بنية وجوههنّ بحيث يصبحنَ أكثر شبهاً بشخصية شهيرة معيّنة: لهذا السبب ستجدون شوارع بيروت وحاناتها ملأى بعدد فائض من النساء اللواتي يبدونَ نسخات كاريكاتورية لمغنّيةٍ شهيرة، ولبعضهنّ البعض أيضاً. في أغلب الأحيان، لا تهدف الجراحة التجميلية إلى استعادة الجمال والشباب، بل إلى تزييفهما، وقد أضحت مرضاً خارجاً على السيطرة، على غرار وباءٍ مُعدٍ نفسياً، نجح في خداع العديد من النساء حتى باتت الواحدة منهنّ تعتقد أنّها بحاجة إلى طبيب يسحق عظامها أو يشقّها بسكّين كي تتمكّن من جذب اهتمام الرجل.

~

الأمر كلّه مردّه الخوف: خوف المرأة من أن تكون ناقصة وغير جديرة، خوفٌ يقتات من انعدام ثقتها بنفسها أينما كانت في العالم؛ أعني بها المرأة العالقة في حالٍ من المراهقة الدائمة، فتخلط بين السعي وراء الشباب والسعي وراء عدم النضج، ذلك كلّه باسم ثقةٍ بالنفس ضاعت منذ زمن، ثقة قضت عليها الأنظمة البطريركية التي تجعل المرأة سلعةً لا أكثر، فتقلّل شأن قدراتها، وتختصرها في جسدٍ جميل ووجهٍ ناعم.

تذكّرني هذه الأفكار الأخيرة بملصق إعلاني رأيتُه أخيراً على واجهة إحدى المكتبات الشهيرة، تظهر فيه امرأة عارية نُقِش فوق جسدها المكشوف عبارة "ثقافة المتعة". ما هي المتعة، على وجه الدقة، للأشخاص الذين ابتكروا هذا الإعلان؟ امرأة عارية من دون شك. يحفل عالم الإعلانات بصور نساء يبعن، بإغراء أجسادهن ووجوههن، منتجات مختلفة، من المجوهرات إلى الشامبو، ومن التلفزيونات إلى الحساء، وهنّ يستخدمن صدورهنّ العارمة وشفاههنّ المنفوخة وسحبة أفخاذهنّ وذبحة عيونهنّ.

الحال هذه، ما قيمة كوني امرأةً في الثقافة الإعلانية؟ ما أنا؟ (لاحظوا أنّي سألت "ما" وليس "مَن"). الجواب سهل، بل سهل للغاية: أنا مجموع أعضائي. أنا طاقتي على جذب نظرات الذكور. أنا كفاءتي في

أن أكون مطلوبة/ مرغوبة/ مشتهاة. أنا موهبتي في إثارة الانتباه إليَّ والغيرة منّي. أنا استعدادي لأن أمتَلك وإيحائي بهذا الاستعداد. أنا مقدرتي على دفع النساء الأخريات إلى التشبّه بي بكلّ ثمن. أنا جاذبيتي الجنسية، ناقصةً عدد عيوبي الجسدية، ضرب قدرتي على "بيع" نفسي. أنا ما أستطيع جنيه من مظهري، ومظهري هو "حيلتي وفتيلتي". أنا "شيء". شيء للعب. شيء للبحلقة. شيء للاستفزاز. شيء يُستخدَم لتسويق أشياء أخرى، في عالم تحوّل سوقاً ضخمة على حساب أجساد النساء ولحمهنّ.

ثمّة حربٌ وسخة على النساء في عالم الإعلان والإعلام. حربٌ لا يشنّها الرجال الذكوريون فحسب، ولا النظام البطريركي ومفاعيله، بل أيضاً وخصوصاً نساء يفتقرن إلى الثقة بالنفس. نساء وقعن ضحايا غسل دماغ يريد إقناعهن بأنّ سعادتهنّ، وخيارهنّ، يكمنان في أن يكنّ محض أشياء. في ثقافة يسيطر عليها العامل البصري بشكلٍ ساحق، أصبح من المستحيل اجتناب التلوّث التمييزي ضدّ المرأة على شاشات التلفزيون، في الفيديو كليبات، في الإعلانات، في المجلات، وهلمّ. رسالة وراء رسالة وراء رسالة، وغسل الأدمغة مسلسلٌ مستمر. وكلّ ما حولنا يشجعنا على أن "نبدو" بدل أن "نكون".

أجل، هناك حربٌ مستعرة على النساء. حربٌ تقنعهنّ باضطراد بأنّهنّ أكسسوارات للبيع، وبأنّ الرجال هم الزبائن. ترى، متى تشرع النساء في استخدام عيونهنّ للنظر، بدلاً من الاكتفاء بأن يكنّ المنظر؟ ما الذي يتطلّبه قلب هذه المعادلة؟

يتطلّب، ربما، أن ندرك جميعاً، رجالاً ونساءً على السواء، أنّ معنى الحياة لا يكتمل إلاّ عندما ننسى أن ثمّة "جمهوراً". أما الباقي فتمثيل بتمثيل.

~

لعلّ التناقض والظلم يكمنان أكثر ما يكمنان في المعايير المزدوجة: إذ لا تهتمّ معظم النساء بشكل الرجل أو عمره؛ ليس شكله ما يثيرهنّ أو يجذبهنّ في الدرجة الأولى، بل ذكاؤه وسلوكه وطريقة معاملته المرأة. لكن كم من رجلٍ في وسعه أن يردّد الأمر نفسه؟ كم منهم يفضّل ذكاءها على ثدييها، وشخصيّتها على مؤخّرتها؟ متى يفهم الرجال أنّهم حتى وإن كانوا يشبهون براد بيت، لكن يتصرّفون كالأوغاد ولا يعتمدون

على ذكائهم، لن يتمكّنوا من استمالة امرأة ذكية وحقيقية؟ في المقابل، إذا كانوا يتمتّعون بالذكاء، والثقة بالنفس، والكرم، والروح المرحة، ففي وسعهم جذب أجمل النساء وأكثرهنّ ذكاءً على وجه الأرض، حتى وإن كان شكلهم أشبه بدبّ الباندا.

"لقد تقبّلتُ أنّ الخوف من التغيير هو جزءٌ من الحياة. ومضيتُ قدماً على رغم تلك الخفقات النابضة في قلبي التي كانت تقول لي: عودي أدراجكِ" (إريكا يونغ). بطبيعة الحال، أنا أخاف من التغيير أيضاً، لكنّني في الوقت نفسه أكثر شغفاً بالمضي قدماً على العودة أدراجي، وأكثر حماسةً للمستقبل من الماضي. لهذا السبب أفضّل أن أشعر بروح الشباب تنبض في داخلي على أن أبدو شابّةً في نظر الناس: فالحالة الأولى لا تنتج بالضرورة عن الثانية. في قلب كلٍّ منا بيتر بان. وليس من داعٍ إلى مبضع جرّاح لإنجاز مثل هذه المعجزة.

~

في هذا العالم الكثير الكثير من الكوارث الأخرى. حبّذا لو كانت مقتصرة على تلك المدرجة في هذا الكتاب. حتى أنّني أسأل نفسي أحياناً: "هل أنا مجهّزة حقاً لمواجهة الحياة أم أنّني أفتقر إلى الأدوات اللازمة؟". حسبي أنّني أنتمي إلى الفئة الثانية. في بعض الأحيان، عندما أجول بنظري في ما حولي، أشعر كأنّني أبحث عن سفينة الفضاء التي هبطت بي إلى هذا المكان قبل ثلاثة وأربعين عاماً.

نحن، كبشر، أشبه بورش بناء. جميعنا كذلك. لكن لا حاجة للاختيار بين أن نكون ناطحة سحاب أو بيتاً مطلاً على شاطىء. كازينو أو ملعب أطفال. نادياً للتعرّي أو مأوى للمشرّدين. محطّة قطار أو متحفاً. مبتماً أو جسراً. مصنعاً للطاقة أو معملاً لصنع الألعاب. مكتبةً أو متجراً أنيقاً لبيع الملابس الداخلية... على الأقلّ، أنا لا أريد الاختيار. وإلى أن أكتشف كيف أكون كلّ ما ورد أعلاه في وقتٍ واحد، سأواصل كفاحي؛ فبالرغم مما قيل لكم ولي، القناعة "كنزٌ" يفنى، ولا يجد الخير أولئك الذين يكتفون بـ"التفاؤل به" بل أولئك الذين ينهضون من مكانهم وينتزعونه انتزاعاً.

الكوارث كثيرةٌ نعم، خصوصاً في هذا العالم العربي العظيم. لكنّ المشكلة تكمن في أنّ أولئك الذين، مثلي، ينتقدون "كوارثنا"، وعيوب مجتمعاتنا وثقافاتنا، يُتّهَمون بالخيانة، وباعتماد خطاب يغازل الغرب.

من جهة أخرى، كثيراً ما يتمّ استغلالهم في الغرب من جانب اليمينيين المتطرفين والمعادين للإسلام والعرب، بغية تبرير لغة هؤلاء وسلوكاتهم العنصرية. إنّهم يمثّلون الحجة المثلى بامتياز، لأنّها حجة طالعة من "الداخل".

لكنّ هذا الموقع الصعب بين المطرقة والسندان، لا ينبغي له أن يردع أصواتنا الفصّاحة الضرورية، فنسكت ونزعم أنّ كل شيء بخير، بغية مراعاة أولئك الذين يضحكون على أنفسهم ويعيشون في الإنكار في البلدان العربية: تلك هي الخيانة في ذاتها. أيضاً، ينبغي ألاّ نسمح لعنصريي الغرب بأن "يخطفوا" منا أصواتنا أو يحوّروها ويستخدموها أداةً لشرعنة كراهيتهم العمياء حيال العرب والمسلمين. في اختصار، المطلوب منا الوقوف في وجه الوحشَين على السواء، وإثبات افتقارهما إلى الصدقية.

يجعل ذلك منّا بهلوانات يرقصون على حبل مشدود بين جحيمين: جحيم التساهل مع الذات من ناحية، وجحيم التوظيف الماكيافيلي البذيء لغضبنا الصادق والمشروع من ناحية ثانية. أمّا الوقوع فليس احتمالاً متاحاً لأنّه ما من شبكة حماية تحتنا. علينا إذاً المضي قدماً على الحبل، متسلّحين بتوازن العدل: العدل القائم في الاعتراف قوياً وعالياً بأنّ العالم العربي يشكو من عللٍ لا تحصى اليوم، وبأنّ أدنى درجات النزاهة الفكرية والشعور بالمسؤولية تقضي بفضحها. على أن يتلازم هذا الاعتراف مع اعتراف آخر، مفاده أنّ الأمور ليست أفضل حالاً بالضرورة في الغرب. للعالمَين فضائل كثيرة وعيوب لا عدّ لها. لذلك ينبغي للجهد النقدي ألاّ يكون من طرف واحد وفي اتجاه واحد، أكان هذا الجهد ممارَساً من جانب العرب أم الغربيين.

السبيل الوحيد لكي نصل أخيراً إلى عالمٍ يتمتع فيه الجميع بالكرامة هو يقيننا بأنّنا نحتاج جميعاً، وبلا استثناء، أن نصير بشراً أكثر استحقاقاً لإنسانيتنا.

أصواتهم الجميلة في رأسي

"لكن لديَّ وعودٌ ينبغي لي الوفاء بها

وأميالٌ يجب اجتيازها قبل أن أنام".

روبرت فروست

في البدء كانت الكلمة. كلمة داخل قصيدة. كلمة داخل قصيدة داخل صفّ مدرسة داخل مدينة مخيفة تُدعى بيروت. القصيدة كانت للشاعر السوريالي الفرنسي بول إيلوار. عندما أصغت إليها الفتاة الصغيرة للمرّة الأولى – الفتاة التي تجلس عند الطرف الأيسر من الصفّ الأول، إلى جانب النافذة ذات الزجاج المعشّق، المحصّنة بأكياس رملية يفترض بها حماية التلميذات من القنّاصين وشظايا القذائف – شعرتْ وكأنّ زلزالاً سيدكّ البلاد.

فوق دفاتري المدرسية

فوق طاولتي والأشجار

فوق الرمل فوق الثلج

أكتبُ اسمكِ.

كان صوت المدرّسة رقيقاً كما لطالما عهدْنه، لكنّه بدا لها أشبه بدويّ رعد. نظرت الفتاة الصغيرة من حولها: لم يكن أيٌّ جزءٍ من السقف قد تداعى. كلّ المقاعد والمكاتب كانت في مكانها. أمّا الكتب، فكانت مرتّبة على أفضل نحوٍ فوق الرفوف، وزميلاتها كنّ هادئات وعلى أتمّ التركيز. لم تتزلزل الأرض إذاً. ليس في الخارج على كلّ حال.

فوق واجهة المفاجآت،

فوق الشفاه المتنبّـهة،

فوق الصمت بكثير،

أكتبُ اسمكِ.

لم تلاحظ الفتاة، أو بالكاد فعلتْ، أنّ قلبها كان يخفق في صدرها ككلبٍ مسعور، وأنّ الدماء لوّنت وجنتَيها المحمومتَين: لم يكن أيّ شيء يهمّ؛ لم يعد أيّ شيء موجوداً بالنسبة إليها ما خلا ذلك الدفق الساحر من النور والأمل الذي كان ينبعث من حنجرة الآنسة نورما ويتغلغل في روحها.

فوق مخابئي المهدّمة،

فوق مناراتي المنهارة،

فوق جدران مللي،

أكتبُ اسمكِ.

كانت تريد أكثر من هذا الدفق. أكثر بكثير. بل كميةً هائلة منه. كانت تريد أن تحصل على ذلك الدفق، لكن أيضاً أن تمنحه، أو، في الأقلّ، أن تحاول.

وبقدرة كلمةٍ واحدة

أعيد بدء حياتي

من قال إنّ من الصعب تحديد اللحظة التي يتمّ فيها التخصيب على وجه الدقة؟ تلك كانت تماماً اللحظة التي عرفتْ فيها الفتاة الصغيرة أنّها سوف تصبح كاتبة.

~

قد يشكّل هذا الأمر مفاجأةً بالنسبة إلى بعض الأشخاص، لكنّ الحقيقة هي أنّ كثيرين في لبنان والبلدان العربية الأخرى، نساءً ورجالاً، يفكّرون مثلي، يشعرون مثلي، يغضبون مثلي. أو لعلّه العكس: لعلّي أنا التي أفكّر وأشعر وأغضب مثلهم. بعضهم يملك الفرصة ليعبّر عن أحاسيسه هذه، سواء من خلال الكتابة أو غيرها من أشكال الخلق أو النشاطات الاجتماعية. أمّا البعض الآخر فليس محظوظاً إلى هذه الدرجة. هؤلاء بالذات هم نقطة قوّتي: ردود فعلهم على نصوصي هي الحكايات التي أسردها على نفسي قبل النوم. هم الذين يمنحونني القوّة لأنهض من سريري كلّ صباح، وأجلس إلى مكتبي، فأواجه الشاشة البيضاء المخيفة، وأنزف.

أدين لكلّ هؤلاء الرجال والنساء المجهولين بقدرٍ كبير من العرفان بالجميل. أصواتهم الجميلة، المخنوقة، لا تنفكّ تردّد أصداءها في رأسي، فتلهمني للمضيّ قدماً وتدفعني إلى تخطّي حدودي يوماً تلو يوم، كلمةً بعد أخرى. لكنّكم أنتم أيضاً تستحقّون سماعها. لذا قرّرتُ، بإذنٍ منهم، أن أطلعكم ها هنا على عددٍ بسيط من تلك الردود. هدفي من ذلك أن أعرض عليكم المجموعة المتنوّعة من العرب الذين يتّفقون

على الأفكار نفسها، مشدِّدةً على أنّي لست "طائراً يغرّد خارج السرب" ولا استثناءً على القاعدة. جلّ ما في الأمر أنّ "الميكروفون" الذي أتكلّم عبره يعمل جيّداً، بينما "الميكروفون" الخاص بهم معطّل. لكنّهم سيصلحونه يوماً ما. ويا للزئير الذي سيصدر من حناجرهم عندما يحلّ ذلك اليوم أخيراً.

~

هبة ك. – ربّة منزل – فلسطينية:

زوّجوني عندما بلغتُ السادسة عشرة من عمري، من دون أن يطلبوا رأيي، من رجل يكبرني بإحدى وعشرين سنة. بدأ ينهال عليَّ بالضرب منذ الأسبوع الأوّل لزواجنا. بعد ثلاث بنات، وما لا يُعَدّ ولا يُحصى من الندوب التي غطّت جسدي، قرّرتُ أن أهرب. بفضل مساعدة صديق كان كريماً معي، أعيش اليوم في برلين محاولةً لملمة جروحي، وأنا بعد في الثالثة والثلاثين. جلّ ما أندم عليه، جلّ ما يؤلمني ويقضّ مضجعي، اضطراري لترك بناتي وحدهنّ. أجهل إن كنّ سيتفهمّنَ قراري هذا، أو يسامحنني يوماً، لكنّني لم أكن أملك حلاً آخر. ما كان في استطاعة كرامتي أن تتحمّل أكثر من ذلك. كان أمامي إمّا النفاد بجلدي وإمّا الانتحار. وقد اخترتُ الحياة. آمل أن أتحلّى يوماً ما بما يكفي من القوة والنفوذ كي أنقذهنّ أيضاً. علينا، نحن النساء، أن ندافع عن أنفسنا ونرفض العنف قبل فوات الأوان.

فريد س.– طبيب – مصريّ:

في رأيي، يجب أن نسائل ما حولنا، ونقرّر بأنفسنا، عوضاً عن قبول معاملتنا كقطعان لا تملك قدرةً على التفكير. لا يعجبني بتاتاً أن تُعامَل المرأة بمثل هذه الدونية في العالم العربي. لقد صعقتُ عندما قرّرت ابنتي ارتداء الحجاب الكامل ما إن بلغت الثالثة والعشرين من عمرها، رغم أنّي رحت أحثّها على عكس ذلك، لا بل توسّلتُ إليها أن لا تفعل. ماذا يمكن لأبٍ أن يفعل في مثل هذه الحال؟ لقد ربّيتُها على التفكير العلماني الحرّ، لكنّ المجتمع وحلقة صديقاتها كانا أقوى منّي. أشعر بالعجز، لكنّني لن أفقد الأمل. أنا متأكّد من أنّها ستعود إلى رشدها يوماً ما، وستناضل من أجل فرض احترامها لذاتها.

وفاء ب. – ممرّضة – عراقية:

منذ نعومة أظفاري، أخبروني مراراً وتكراراً أنّني لا أجيد فعل شيء. في بادئ الأمر، كنت مقتنعةً بكلامهم، إلى أن شاهدتُ ذات يوم فيلماً وثائقياً على شاشة التلفزيون عن النساء التاميليات. ركّز الوثائقيّ على موروجي سابيلاي كونيسواري تحديداً، والدة لأربعة أطفال تحدّت السلطات ورفعت شكوى ضد ضبّاط الشرطة الذي سرقوا أرضها، رغم احتمال انتقامهم منها. فكّرتُ: "يجب أن أبدأ بالدفاع عن نفسي والإيمان بإمكاناتي". فما كان منّي إلاّ أن بدأتُ أرتاد مدرسةً للتمريض سرّاً، ثمّ عثرتُ على وظيفة في مستشفى محليّ في البصرة. اليوم، ما عاد أحدٌ من أفراد أسرتي يجرؤ على إهانتي، بما أنّني صرت معيلة العائلة الوحيدة. حتى شقيقي الأكبر الذي كان يسيء معاملتي بات طيّعاً، لا بل يطلب منّي أحياناً منحه بعض المال لشراء الكحول والسجائر. صحيحٌ أنّه انتصار بسيط، لكنّه انتصاري الخاص، وأنا فخورة به.

سمير ح. – رجل أعمال – لبناني:

ولدتُ سنيّ المذهب، ولطالما شعرتُ بأنّ الناس من حولي متسامحون ومؤمنون بالتوافق والتعايش. لكنّ شعوري مختلف اليوم. أشعر بالخطر من حولي. أرى أصحاب اللحى الطويلة في كلّ مكان، وعدد المحجّبات يتضاعف بشكل ملحوظ. أما المساجد فتمتلئ أيام الجمعة حتى آخرها. أتلقّى اتّصالات هاتفية كلّ أسبوع من أصدقاء قدامى يطلبون منّي الانضمام إلى حلقات دينية وظواهر شبيهة مماثلة. منذ وقتٍ ليس بطويل، كان أصدقائي هؤلاء أنفسهم يطلبون منّي مشاركتهم كأساً من الخمر أو وليمة عشاء أو الخروج للاحتفال والرقص. ليس هذا فحسب، لا بل إنّ بعضهم كان حتى أكثر تحرّراً منّي في مرحلة ما من مراحل حياته. إنّ هذا الأمر يقلقني فعلاً. قلّما يهمّني ماذا يفعلون حقاً، لكنّني أشعر بأنّ هذه الظاهرة مخيفة لأنّها تؤثر لا محالة فينا نحن "الآخرين". لا يمكنني، بكلّ بساطة، تحمّل أيّ نوع من الظلم في العالم، مهما اختلف شكله أو كيفما أخفى وجهه، لا سيّما عندما يكون ظلماً شرّعه الزعيم الأكبر: أي الله. لا يمكنني تقبّل هذا الأمر، كما لا يمكنني أن أفهم كيف يسع الناس تقبّله حتى يومنا هذا. يجدر بي القول إنّني لا أفعل شيئاً في هذا الخصوص، فقد فقدتُ الأمل منذ وقتٍ طويل. نعم، كلّ هذا الظلم والتمييز يغضبانني، لكنّه غضبٌ أبقيه محبوساً في داخلي.

أميرة ج. – طالبة جامعية – جزائرية:

أنا في الثانية والعشرين من عمري. ما زلت طالبة. أعيش في بيئة صارمة وتقليدية جداً، لكنّني أطمح إلى أن أتحرّر يوماً ما. في داخلي كلامٌ كثير أودّ أن أقوله لكنّني لا أستطيع. ليس بعد، على كلّ حال. مشواري طويل، لكنّني أثق بقدميَّ، وأعرف أنّهما ستحملانني إلى حيث أريد.

الطاهر م. – صيدليّ – مغربي:

في هذه الأيام العصيبة التي ينتشر فيها التعصّب الديني والممارسات البطريركية بشكل متزايد في العالم العربي، أعتقد أنّنا نفتقد قوّة النساء، وأنّ هذه القوّة قد تنقذنا من الهاوية: النساء الشجاعات، المتمرّدات، والمستعدّات لفضح رياء مجتمعاتنا، حتى وإن كان ذلك على حساب التعرّض للهجوم والتهديد والكره. أعتقد أنّني نسويّ. لكن هل يمكن أن أكون كذلك وأنا رجل؟

أمل ب. – سكرتيرة – تونسية:

لقد ضاق ذرعي بكلّ تلك الكراهية للنساء التي تحيط بي وتحاول أن تقضي على عزيمتي يوماً تلو يوم. الله مجرّد سراب وُلد نتيجة خوفنا الغريزي من الموت. خطأنا الأكبر هو أنّنا ابتكرناه لنتخلّص من هذا الخوف وننقذ أنفسنا من الموت، من خلال الوهم الذي يُسمّى "الحياة الأبدية"، لكنّ هذا الخيال بات أكبر منّا، وانقلب علينا. الحلّ الوحيد هو بإطلاق النار على الأفعى وقتلها بلا تردد. أما كلّ ما هو دون ذلك، فمجرّد مضيعة للوقت. لكنّني من الضعف والعجز ما يمنعني من الضغط على الزناد.

حسين ت. – محامٍ – سوريّ:

أنا مناضل شرس في سبيل حرية الفكر، وبالتالي ضدّ كلّ أشكال غسل الدماغ، سواء على يد الدين أم القومية أم الاستهلاكية أم تأليه الزعماء. الدين قائم على التمييز بين البشر: فهو يفاضل بين المؤمنين وغير المؤمنين، وبين عرق وآخر، وبين الذكور والإناث إلخ. يجب وضع حدٍّ لذلك. وسريعاً.

ماجد ف. – مهندس كومبيوتر – يمني:

رغم أنّني رجل، ومؤمن بالله كلّ الإيمان كذلك، إلاّ أنّني أرفض أن أكون

ذكورياً. أنا ابن بلدٍ لا يزال الرجال فيه يُعزَلون عن النساء. لقد تربّيتُ على احتقار كلّ الإناث، باستثناء والدتي طبعاً. خلال نشأتي، لم أدرك قطّ تفاهة هذه التربية اللاإنسانية: من واجبنا أن نكرّم أمّهاتنا ونعاملهنّ كقدّيسات، بينما يمكننا أن نقلّل احترام النساء الأخريات، بمن فيهنّ أمّهات أولادنا! لكن عندما أصبحتُ في أواخر الثلاثينات، بدأتُ أتنبّه لهذا الظلم، وصرت أحاول أن أتداركه في محيط منزلي وأسرتي الصغيرة. لكنّني لا أستطيع أن أنقل أفكاري إلى خارج هذه الأسوار: فلو تحدّثتُ عن مثل هذه الأمور مع أصدقائي، لو أخبرتُهم أنّني أؤمن بأنّ النساء متساويات مع الرجال، لسخروا منّي ووصفوني بالجبان.

إيمان س. – معلّمة مدرسة – سعودية:

لستُ بحاجة لأخبركِ عن حياة المرأة السعودية: سأفترض أنّكِ تعرفين ذلك مسبقاً. أذكر أنّني عندما قرأتُ أحد كتبكِ للمرة الأولى تورّدتْ وجنتايَ من الخجل رغم أنّني كنت وحدي في غرفتي. شعرتُ وكأنني أرتكب المحظور، لكأنّني أمارس العادة السرية على قمة جبل عرفات، يوم العاشر من ذي الحجة، بينما يراقبني الحجّاج جميعهم. وعندما سمعتُ خطوات تقترب عبر السلالم سارعتُ إلى إغلاق الكتاب، محاولةً تبرئة نفسي مما ظننتُ حينذاك أنّه إثم. أعتقد أنّني لم أفهمكِ جيّداً ساعتذاك. أمّا اليوم، فأنا أفعل. اليوم، أريد أن أكون أكثر شجاعةً. لكنّ الشجاعة في هذا المكان ستكلّفني أكثر مما يمكن أن أتحمّل.

بثينة ل. – عالمة كيمياء – كويتية:

إنّ حفظي القرآن في سنّ الطفولة قيّد من حريّة التعبير التي كان يمكن أن أتمتّع بها. تعلّمتُ اللغة الإنكليزية لئلا أسدل ناظريّ خجلاً كلّما نبستُ بكلمة "جنس"، ولأعبّر عن احتياجاتي عوضاً عن الإصغاء حصراً إلى تلك التي يفرضها عليَّ الرجل. قد أتمكّن يوماً ما من حشد ما يكفي من الجرأة لإغلاق الصفحة على كلّ الكتب المقدّسة، والاحتفاء بمشاعري وأفكاري بلغةٍ تعرفها روحي ويعرفها جسدي، لكنّي لا أجرؤ على استخدامها كونها مثقلة بالمفاهيم الدينية.

ندى ك. – مندوبة مبيعات – لبنانية:

في صغري، تحرّش بي عمّي، علماً أنّه كان يصحبني إلى القدّاس كلّ أحد. أنا اليوم أمّ لفتاتين. تزوّجتُ رجلاً يتدلّى من عنقه صليب ذهبي، لكنّه لا يتوانى عن اغتصابي مراراً وتكراراً، غير أنّني لا أستطيع أن

أقاضيه أو أطالب بالطلاق لأنّ القوانين اللبنانية لا تعترف بجريمة تُسمّى "الاغتصاب الزوجي". هل تعرفين ما أتمنّاه؟ ألاّ تكون ابنتايَ غبيّتين بما يكفي لتتزوّجا كما فعلتُ. كم أودّ أن يكون حلمهما أكبر من الفستان الأبيض وخاتم "السوليتير" وتلك الخرافة المتداولة عن نعمة الزواج المقدّس. كم أودّ أن تحبّا من دون خوف ولا حدود. أودّ أن أخبرهما بذلك من دون أن أشعر وكأنّني أخرّب عقلهما وطريقة تفكيرهما. لكنّني بدأتُ أجد صوتي شيئاً فشيئاً. لا يزال صوتي مبحوحاً، يختنق تحت طبقاتٍ كثيرة من الخوف. لكنّني سأجده بطريقةٍ أو بأخرى، يوماً ما.

~

في البدء كانت الكلمة؛ كلمة أنقذتْ فتاةً صغيرة من الاختناق؛ كلمة أنقذتْ حياتها برمّتها؛ الكلمة نفسها التي علّمَتْها أن تحلم وتصرخ داخل رأسها وعلى الورق؛ الكلمة نفسها الموشومة باللغة العربية اليوم على الذراع اليمنى للمرأة التي صارتْها؛ الكلمة نفسها التي ساعدتْها على النهوض، كلّما زلّت بها قدمها فوقعت؛ الكلمة نفسها التي ستكون في انتظارها، هناك في نهاية الرحلة، متوهّجةً كسلسلة من الاكتشافات المتواصلة. على غرار إيلوار وكثيرين غيره في عالمها العربي وعلى هذه الأرض أيضاً، هذه الفتاة هي، بكلّ بساطة، إنسانة وُلدتْ "لكي تعرفكِ/ لكي تسميّكِ/ يا حرية".

رسالة إلى ولديَّ

"ابقوا جائعين. ابقوا مجانين"

ستيف جوبز

ولديَّ الحبيبَين،

هل من داعٍ لأخبركما أنّ تربيتكما على امتداد السنوات العشرين الماضية كانت أروع مغامرة عشتُها وأكثرها إثراءً وغنى؟ إنّها لكذلك فعلاً، وستبقى أروع المغامرات، كما آمل، لسنواتٍ عديدة بعد.

لقد منحتماني حبّاً غير مشروط، وكنتما مصدر فخري وعزائي وقوّتي، يومَ أقدمتُ على التشكيك بنفسي، أو كنتُ أسيرة الفشل أو الخيبة أو الوحدة. وقفتُما إلى جانبي، سواء عن قصد أم عن غير قصد منكما، يوم

لم يكن باستطاعتي، أنا، الوقوف إلى جانب نفسي. كنتما بصيص الأمل الذي أنار كلّ نفقٍ معتم عبرتُه، وسترة نجاتي عندما أوشكتُ على الغرق. لكن يجب أن أعترف لكما بشيء:

لم أخبركما بأمورٍ كثيرة خلال رحلتنا معاً: كنت أعتقد أنّكما ستعرفانها بقوّة حدسكما. خلتُ أنّكما ستكبران وتكتشفانها بنفسيكما في نهاية المطاف. افترضتُ أنّ بإمكاني تفادي عرضها عليكما بشكل واضح وصريح. هي أمورٌ لم أكن أريد أن أجسّد فيها دور الواعظة، بل أن أصوّرها أمامكما من خلال الأمثلة.

لكنّني عدتُ وغيّرتُ رأيي. أؤمن اليوم بأنّ الحاجة تدعو إلى التعبير عن بعض الأفكار بشكلٍ واضح وصريح، حتى وإن كان الثمن أن تبدو كلماتي كأنّها مقتطعة من عظة مخيفة، أو عاكسة لتعميم خطير. ولأنّكما ماضيان في سبيلكما نحو سنّ الرشد (وعلى وشك التعمّق في عالم العلاقات الفوضويّ)، ولأنّ أملي هو أن تواجها التحدّي على أكمل وجه وتكونا رجلَين حقيقيين، قرّرتُ أن هذين سببان وجيهان لكي أقصّ عليكما بعضاً من هذه الأفكار. ولعلّ هذا الكتاب هو خير وسيلة لأفعل ذلك. ها هي إذاً:

قد سئمنا نحن النساء (معظمنا فى الأقل) منكم أنتم الرجال (معظمكم في الأقلّ). لا ترون فينا سوى أمّهات لكم، أو بنات، أو شقيقات، أو عشيقات، أو زوجات، أو ممتلَكات، أو أكسسوارات، أو خادمات، أو لعبات مسلّية...

سئمنا من أنّنا لا نؤمن بأنفسنا، سئمنا من أنّكم لا تؤمنون بنا.

سئمنا من شعورنا بالذنب كلّما انكببنا على عملنا عوض خبز الحلويات. سئمنا من اقتناعكم العميق بأنّنا ما وُجدنا إلاّ لنكون آلةً للتناسل، لا لنكرّم أحلامنا وطموحاتنا المهنية مثلكم.

سئمنا من تفضيلنا الرجل المخادع على المحترم، والفظّ القاسي على اللطيف الحساس، وصاحب السلطة والثراء على الطَموح الجادّ في عمله. سئمنا من تفضيلكم النساء اللعوبات على الصادقات، والمتصنّعات على الحقيقيات، والجميلات صغيرات السنّ على الوفيّات والمُحبّات.

سئمنا من اضطرارنا للاختيار بين التلاعب بكم واليأس من نيل

اهتمامكم. سئمنا من رفضكم التكيّف معنا.

سئمنا من يدنا نمدّها إليكم إقراراً بتسوية أو تنازل، عوض أن تكون علامة تحالف. سئمنا منكم تحتاجون أن نتّشح بنقاب أسود، أو أن نعرض أجسادنا كسلعٍ جنسية رخيصة، كي تطمئنّوا إلى فحولتكم.

سئمنا من انتظارنا لكم حتى تجدونا، عوض ذهابنا إليكم بأنفسنا. سئمنا منكم تعتبرون أنّ الحاجة إلينا إنّما هي علامة ضعف.

سئمنا من الصمت الذي يحكم طريقة تعاملنا معكم. سئمنا من الفوقية التي تحكم طريقة تعاملكم معنا.

سئمنا من عدم مبادرتنا إلى الجنس، خوفاً من أن تُلصَق بنا صفة اللجاجة أو الوقاحة. سئمنا منكم تقرّرون ما يليق بـ"السيدات المحترمات" وما لا يليق بهنّ.

سئمنا من قلقنا بشأن الدهون المترهّلة على معداتنا، وهندسة الانفراج بين أثدائنا، وطلاء الماكيّاج على وجوهنا. سئمنا منكم لا تركّزون إلاّ على الدهون المترهلة على معداتنا، والانفراج بين أثدائنا، والماكيّاج على وجوهنا.

سئمنا من تصنيفنا كرومنطيقيات وتصنيفكم كواقعيين. سئمنا من اندفاعكم إلى العلاقات العابرة كسجين يجري نحو أسلاك شائكة لا يعرف أنّها ستصيبه بصدمة كهربائية.

سئمنا من تخيّلنا أنّكم جاهزون دوماً لممارسة الجنس. سئمنا منكم تتجنّبون الأحاديث التي تنبع من القلب.

سئمنا من افتراضنا أنّ في وسعنا فهمكم على الدوام. سئمنا منكم تفترضون أنّكم لن تستطيعوا فهمنا أبداً.

سئمنا من تفسيرنا نبل أخلاقكم ضعفاً. سئمنا من تمييزكم بين الجنس والحبّ.

سئمنا من أنفسنا ونحن نعتبركم غنائم حرب. سئمنا منكم تعتبروننا من المسلّمات.

سئمنا من أنفسنا نصطنع بلوغ النشوة لنطمئنكم، ونتوارى خلف الكواليس لندعمكم، ونسرد عليكم الأكاذيب لنرفع من معنوياتكم. سئمنا من الخطر الذين تشعرون به حيال نجاحاتنا، من الذعر الذي يسبّبه لكم ذكاؤنا، ومن الغضب الذي تثيره فيكم حريّتنا، ومن الاستفزاز الذي تمثّله لكم استقلاليتنا.

سئمنا من مطالبتنا إياكم بما هو حقّ لنا. سئمنا منكم لا ترون فينا شريكات مساويات لكم.

سئمنا من اقتناعنا بأنّكم من فولاذ لا تهزّكم ريح. سئمنا من اقتناعكم بأنّنا ننهار عند أتفه المشكلات.

سئمنا من شكّنا فيكم وإطاعتنا لكم وانهماكنا في التعارك معكم. سئمنا منكم تستخفّون بنا وبأبسط حقوقنا، باسم الله والتقاليد والفوقية الجسدية والمعتقدات الاجتماعية ومنطق "مَن يؤمّن رزق العائلة".

سئمنا من حاجتنا لنثبت لكم أنّنا قويّات. سئمنا من حاجتكم لتثبتوا لنا أنّكم تفوقوننا قوّةً.

سئمنا من ممارستنا ألعاباً طفولية لكي "نوقع" بكم. سئمنا من خوفكم المفرط من أن تظهروا بمظهر الضعفاء إذا ما كشفتم عن جانبكم الحسّاس.

سئمنا من قمعنا لشخصياتنا الحقيقية أمامكم. سئمنا من عدم تعاطيكم معنا ومع العالم إلاّ بعقلية الهيمنة.

سئمنا من كلّ التوقعات غير العادلة واللامعقولة التي نفرضها عليكم. سئمنا من الطريقة غير المتوازنة التي تتوزّع فيها دماؤكم بين الأعضاء العلوية والسفلية من أجسادكم.

سئمنا من تبرير توتّرنا بأعراض الدورة الشهرية. سئمنا من اعتقادكم أنّ كل ما في العالم من مشكلات، حتى المجاعات، يمكن حلّه بحبّة فياغرا.

سئمنا من كوننا سجيناتٍ لدى نسويةٍ عدائية. سئمنا من كونكم سجناء لدى ذكوريةٍ عدائية.

أجل، قد سئمنا بالتأكيد.

أخبِروني: ألم تسأموا أنتم بعد؟

وعاشا بسعادة إلى الأبد...

كان يا ما كان فتاة صغيرة تكره سوبرمان. وكانت تعرف أنّها لن تعيش مع رجل "بسعادة إلى الأبد"، إلاّ إذا رفضت هي أن تكون صورة عن شهرزاد التسويات، و/أو رندا المنجذبة إلى القشور، وإلاّ إذا خلع هو القناع ليتحوّل إلى رجل حقيقي.

فما كان منها إلاّ أن استخدمت القوة الخارقة الوحيدة التي تملكها لإقناعه وإقناع نفسها:

قوّة الكلمات.

قراءات إضافية

Elizabeth Wurtzel, Bitch: In Praise of Difficult Women, New York, – .Doubleday, 1998

Christopher Hitchens, God is Not Great: How Religion Poisons – .Everything, New York, Warner Twelve, 2007

.E. J. Graff, What Is Marriage For?, Boston, Beacon, 1999 –

Gerda Lerner, The Creation of Patriarchy, New York, Oxford – .University Press, 1986

Susan Squire, I Don't: A Contrarian History of Marriage, New York, – .Bloomsbury, 2008

Mara Hvistendahl, Unnatural Selection: Choosing Boys over Girls, and – the Consequences of a World Full of Men, New York, Public Affairs, .2011

Bill Lauritzen, The Invention of God: The Natural Origins of – .Mythology and Religion, Street Write, 2011

Simon Dermody, The Lost Patriarch: Towards a New Mythology of – .Manhood, Author House, Bloomington, 2007

.Laura Kipnis, Against Love: A Polemic, New York, Pantheon, 2003 –

David D. Gilmore, Manhood in the Making: Cultural Concepts of – .Masculinity, New Haven, Yale University Press, 2003

Kathleen Lois Barry, Unmaking War, Remaking Men: How Empathy – Can Reshape Our Politics, our soldiers and our selves, Santa Rosa, .Phoenix Rising Press, 2011

Eric Anderson,The Monogamy Gap: Men, Love, and the Reality of – .Cheating, New York, Oxford University Press, 2012

Charles Fourier, The Hierarchies of Cuckoldry and Bankruptcy,– .Cambridge, Mass., Wakefield Press, 2011

شكر وتقدير

هذا الكتاب هو "مواطن من العالم" بكلّ ما للكلمة من معنى. فلقد أبصر النور على الطريق في مختلف أنحاء الكرة الأرضية، بدءاً بروما، ثمّ برلين، فمرسيليا، وقرطاجنة، وميلانو، وبروكسيل، ومدريد، ونابولي، وجنوى، وميامي، وتورونتو، وكوبنهاغن، وتولوز، وباريس، ولندن، ومالمو، وآن أربور، وأوسلو، وسيغوفيا، والجزائر، ونيويورك، وواشنطن، وبوسطن، وأوليندا، وريو دي جانيرو، وستوكهولم، وأمستردام، ولاهاي، وبروفيدانس، ونارفيك، وبيروت.

لذا أودّ أن أستهلّ كلماتي هذه بشكر مطارات المدن المذكورة أعلاه، وفنادقها، لأنّها أفسحت صدرها: أولاً لبحثي المسعور عن مقابس الكهرباء لإعادة شحن بطارية حاسوبي النقّال؛ ثانياً، لشكاواي المتكررة من جيراني المزعجين الذين كان ضجيجهم يقطع حبل أفكاري. كما أتقدّم بالشكر، بشكلٍ خاص، من حسين، سائق التاكسي الإيراني في العاصمة النروجية الذي ألهمتني كلماته البسيطة عن العلمانية وحقوق المرأة والرجولة، ذات صباح شتويّ، أكثر ممّا فعلت كتبٌ كثيرة كتبها خبراء عن المواضيع نفسها. كنت قد وعدتُ حسين يومذاك بأنّه سيجد اسمه بين صفحات كتابي الجديد: وها أنا أفي

بوعدي.

أقدّم كذلك خالص شكري وعرفاني للأصدقاء الرائعين الذين خصّصوا وقتاً لقراءة ثرثراتي، وأطلعوني على وجهات نظرهم وملاحظاتهم القيّمة التي ساعدتني في تحويلها إلى كتاب لائق. هؤلاء هم (بالترتيب الألفبائي): حاتم بديع، حبيب بديع، تود بريليانت، سيليو بوكانيرا، سلفاتوري بيتسوريلو، شونا جولي، هلا حبيب، ديفيد ديماريست، منى رحال، عقل العويط، طوني سعادة، زينة نادر سلوان، يان هنريك سوان، بيتر كارلسون، مايكل مور وعبير ورد.

أشكر أيضاً كلّ الرجال الذين التقيتُ بهم في حياتي. كلّهم فعلاً: الطيّب والشرس والقبيح. لقد ساعدوني على النموّ، كلٌّ بطريقته: بفضل الأذرع التي أحاطوني بها، والندوب التي خلّفوها في داخلي؛ بفضل الابتسامات التي رسموها على وجهي، وخيبات الأمل التي دكّوا بها جدران قلبي؛ بفضل سيل الأحاديث التي أداروها معي، وشبح الوحدة الذي أحاطوني به. غنيّ عن القول إنّ ذكر أسمائهم على هذه الصفحات لن يعود بالمنفعة على أيٍّ منهم، لكنّني أريد أن أُعلمهم بأنّني ما كنت لأنجح في إنجاز هذا الكتاب من دونهم.

إلى ذلك، أودّ أن أشكر الرجلَين المميّزين اللذين ترعرعت بينهما: والدي عطاالله وشقيقي شادي. لقد ساهما، كلٌّ بطريقته، في تعزيز إيماني بإمكان تطوّر الرجولة.

شكرٌ كبير أيضاً وخصوصاً لقرّائي الأوفياء والأعزّاء في مختلف أنحاء العالم: على رسائلهم الورقية والإلكترونية، وما ضمّنوها من دعم واهتمام، والأهمّ من هذا كلّه على إيمانهم العجائبي بي. أجهل أين كنت لأكون اليوم بدون تشجيعهم ودعمهم الدائمين.

أخيراً وليس آخراً، أودّ أن أتقدّم بالشكر من أحبّتي لتحمّلهم تقلّبات مزاجي واستخفافي الفاضح باحتياجاتهم خلال انكبابي على هذا العمل. أعلم علم اليقين أنّني أتحوّل إلى امرأة نكدة وأنانية عندما أكون "في مزاج الكتابة". هذه خير مناسبة أعبّر فيها عن اعتذاري من:

ابني الأكبر، منير، لأنّني غالباً ما أومأتُ له برأسي، على سبيل الموافقة، من دون أن أسمع ما كان يقوله حقاً. آمل ألاّ يكون قد قال: "أمي، هل يمكنني تعاطي المخدّرات واحتساء الكحول حتى الثمالة؟".

ابني الأصغر، أنسي، لأنّني لم أقبّله بقدر ما كان ينبغي، وبقدر ما كنت أريد. ولأنّني استغللتُ تقنياته الرائعة في التدليك كلّما كانت عنقي تؤلمني من كثرة الجلوس.

والدتي، ماري، لأنّني كنت أصرخ فيها بلا هوادة كلما حاولت أن تحشر الطعام في فمي بينما كنت منكبّةً على حاسوبي، وفي مناسبات أخرى أيضاً، أظهرت لي فيها كلّ الرعاية والكرم من دون توقّع أيّ شيء في المقابل. لا يفوت الأوان البتّة لشعور المرء بالخجل من جحوده وإنكاره الجميل.

صديقتي، ماريان، لأنّني لم أخبرها كلّ هنيهة كم كان يبدو عليها الحمل رائعاً بينما كانت تهدهد أميرتها روان في أحشائها، وكم أنا محظوظة لأنّها موجودة في حياتي.

أخيراً، اسمحوا لي بأن أشكر، وبكلّ تواضع، نار الشغف المتّقدة التي أُنعِم بها عليّ (بعضهم يسمّيها "جنوناً"). هي النار التي تغذّي روح النضال فيَّ، وهي التي حفّزتني، وأرشدتني، ومكّنتني من قهر هذا التحدي وغيره؛ هي النار التي جعلتني ولا تزال تجعلني أبغض مظاهر الظلم واللاإنسانية التي أشهد عليها؛ هي النار التي ساعدتني ولا تزال تساعدني في تحمّل الانتقادات الشرسة وما أتعرّض له من إدانات على يد كلّ إنسان متخلّف حولي. لقد ساهمت هذه الروح مساهمةً كبيرة في إنجاز هذا الكتاب، وفي إنجاز كلّ مشروع عقدتُ العزم عليه في حياتي.

لا تتردّدوا في التواصل مع المؤلفة ومشاركتها تعليقاتكم وتجاربكم:

عبر البريد الإلكتروني:

contact@joumanahaddad.com

عبر الفايسبوك:

https://www.facebook.com/joumanajo.haddad

عبر تويتر:

joumana333@

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

ليس هذا الكتاب بمانيفستو ضدّ الرجال بشكلٍ عام، ولا هو بمانيفستو ضدّ الرجال العرب بشكل خاص. ولكنّه صرخة مدوّية في وجه صنفٍ محدّد من الرجال: الرجال الذكوريين، أو أشباه سوبرمان، كما يحلو لهم تصوير أنفسهم.

لكن سوبرمان مجرّد كذبة.

بعد كتابها «هكذا قتلت شهرزاد»، تستكمل جمانة حداد كتاباتها المثيرة للجدل لتفضح النظام البطريركي الذي لا يسيطر فقط على عالمنا العربي بل يتعدّى حدوده أيضاً. فمن الديانات السماوية ومفهوم الزواج إلى الذكورية المتجذّرة والازدواجية السائدة في التفكير، تتوغّل في حاجتنا الماسّة إلى ذكورية جديدة في ظلّ أزمنة الثورات والتغييرات التي تجتاح منطقة الشرق الأوسط.

نبذة عن المؤلف

جمانة حداد شاعرة لبنانية حازت جوائز عدّة، مترجمة أدبية، ناشرة وصحافية. أطلقت عام 2008 أوّل مجلة إيروتيكية ثقافية في العالم العربي، بعنوان «جسد».

صدر لها عن دار الساقي «هكذا قتلت شهرزاد».